

المثل السائر لابن الأثير والردود عليه

دراسة في الفضايا النقدية التي أثارها ابن الأثير

فدوى الحنبلي

رسالة مقدمة الى الدائرة العربية ولغات الشرق الأدنى

لنيل درجة ماجستير في اللغة العربية وآدابها

الجامعة الأميركية في بيروت

أغسطس ١٩٢٥

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Title:

Ibn al-Athir's book -" Al-Mathal al-Sa'ir
and the rebuttals it caused

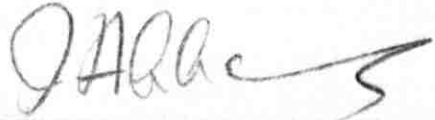
"المثل السائر لابن الاثير والردود عليه"

دراسة في القضايا النقدية التي أثارها ابن الأثير

By

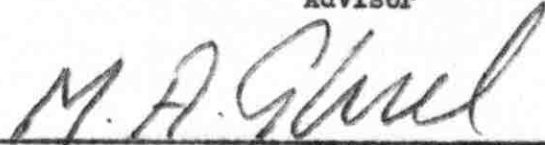
Fadwa Hanbali

Approved :



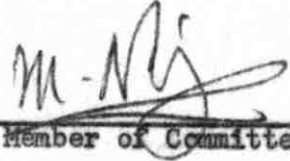
Professor Ihsan Abbas

Advisor



Professor Mahmud Ghul

Member of Committee



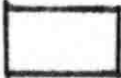
Professor Muhammad Najm

Member of Committee

Date of Thesis Presentation : August, 1975.

THESIS RELEASE FORM
American University of Beirut

I; Fadwa Hanbali



authorize the American University of Beirut
to supply copies of my thesis to libraries
or individuals upon request.

Signature Fadwa Hanbali

September 1, 1975

المثل السائر لابن الأثير والردود عليه

دراسة في القضايا النقدية التي أثارها ابن الأثير

فدوى الحنبلي

رسالة مقدمة الى الدائرة العربية ولغات الشرق الأدنى

لنيل درجة ماجستير في اللغة العربية وآدابها

الجامعة الأميركية في بيروت

أغسطس ١٩٢٥

المخطط العام

مقدمة

في النقاد الثلاثة

- أ - ابن الاثير
- ب - ابن ابي الحديد
- ج - الصفدي

القسم الاول :

قضايا نقدية عامة :

- ١ - علم البيان (بين البلاغي والنحوي)
- ٢ - الاديب بين الطبع والثقافة
- ٣ - العلاقة بين الشعر والنثر

القسم الثاني :

قضايا نقدية خاصة

- ١ - قضية اللفظ
- ٢ - قضية المعنى
- ٣ - العلاقة بين اللفظ والمعنى
- ٤ - تداول المعاني (أو مشكلة السرقات)

القسم الثالث :

مناقشات مفردة

- ١ - ابن الاثير الناقد الاديب في ميزان نفسه وميزان الاخرين
- ٢ - ابن الاثير والغزالي
- ٣ - ابن الاثير ومعلب
- ٤ - ابن الاثير والمحرى
- ٥ - ابن الاثير والحريرى

خاتمة

مقدمة

- ١ - في طائفة من نقاد القرنين السابع والثامن للهجرة
- ٢ - في النقاد الثلاثة :
 - أ - ابن الاثير
 - ب - ابن ابي الحديد
 - ج - الصفدي

١ - في طائفة من نقاد القرنين السابع والثامن

تعد القضايا النقدية التي وقف عندها ضياء الدين ابن الاثير (٦٢٧ -) في كتاب " المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر " مدار اهتمام النقاد في القرنين السابع والثامن للهجرة على تفاوت بينهم في التوفر على فئة من تلك القضايا دون سواها .

وحيث يريد الدارس ان يكون صورة متكاملة عن الحركة النقدية في ذينك القرنين - في الشام ومصر والمغرب الاسلامي فلا بد له من الوقوف عند عدد من النقاد من أبرزهم : *

١ - ابن سناء الملك (٦٠٨) (١) مؤلف كتاب " دار الطراز " وهو مجموع مختارات من الموشحات لعدد من شعراء الاندلس وللمؤلف كذلك وأهمية

* - يمكن الرجوع الى المراجع التالية في استيفاء صورة اكمل لدور كل واحد من هؤلاء النقاد : أ - تاريخ النقد الادبي عند العرب : للدكتور احسان عباس ، بيروت ١٩٧١ ب - تاريخ النقد العربي : للدكتور محمد زغلول سلام . مصر (لا . ت) ج - النقد الادبي في العصر المملوكي : للدكتور عبد العزيز قلقيله . القاهرة ١٩٧٢

١ - هو هبة الله بن جعفر بن القاضي محمد ، شاعر مصري يقترن اسمه بالوقوف عند الموشح دراسة ونظما ونقدا . ولي القضاء : وكتب في ديوان الانشاء ، وقامت بينه وبين رئيس الديوان القاضي الفاضل - صلة وثيقة يميزت بتشجيع الثاني وتوجيهه الادبي والنقدي له : وديوانه مطبوع . توفي بالقاهرة . (انظرني ترجمته : عقود الجمان ٩ : ٢٠٦ ، ومعجم الادباء ١٩ : ٢٦٥ ، والوفيات ٦ : ٦١ . وهناك دراسة عنه للدكتور عبد العزيز الاهواني . القاهرة ، ١٩٦٢) .

الكتاب من الوجهة النقدية ، هي في مقدمته التي تتحدث عن نظرية المؤلف في قواعد تأليف الموشح ونظمه وفي خصائصه واوزانه وانواعه ، وهي نظرية لم يسبق اليها ، كما لم يتابعه فيها احد من ادباء المشرق او المغرب على حد سواء .

٢ - ابن ظافر الازدي (- ٦٢٢) (١) صاحب كتاب " بدائع البدائع " و " غرائب التشبيهات على عجائب التشبيهات " وفي اولها جمع المؤلف نماذج شعرية مما قيل على البديهة او ارتجالا ، ورتبه على العصور دون نقد او تحليل . ولكن موقفه النقدي يبدو من خلال حديثه عن البديهة والارتجال في مقدمة الكتاب حيث يجعل لهما اهمية كبرى وتقديرا عاليا .

ويورد في " غرائب التشبيهات " مختارات شعرية في التشبيهات التي تتميز عن غيرها من حيث الجودة او الغرابة ، ومعظمها لشعرا محدثين او معاصرين له .

١ - هو ابو منصور علي بن ظافر بن الحسين ، كاتب واديب مصرى ، تثقف بالادب وعلوم العربية والتاريخ ، اتصل في بدء حياته الادبية بالقاضي الفاضل فشحبه واتصل بصلاح الدين الايوبي وابنه الافضل واخيه العادل ووزر للملك الاشرف فترة وقدم لخزائنه كتابه " بدائع البدائع " ثم تفرغ للتدريس في اواخر حياته في المدرسة المالكية . من مؤلفاته التاريخية " كتاب الدول المنقطعة " (انظر : معجم الادباء ١٣ : ٢٦٤) وفيه ان تاريخ وفاته سنة ٦١٣ ، وانظر الفوات ٢ : ١٠٦ ، وفي " غرائب التشبيهات " دراسة عنه .

الكتاب من الوجهة النقدية ، هي في مقدمته التي تتحدث عن نظرية المؤلف في قواعد تأليف الموشح ونظمه وفي خصائصه واوزانه وانواعه ، وهي نظرية لم يسبق اليها ، كما لم يتابعه فيها احد من ادباء المشرق او المغرب على حد سراً .

٢ - ابن ظافر الازدي (- ٦٢٢) (١) صاحب كتاب " بدائع البدائع " و " غرائب التشبيهات على عجائب التشبيهات " وفي اولهما جمع المؤلف نماذج شعرية مما قيل على البديهة او ارتجالا ، ورتبه على العصور دون نقد او تحليل . ولكن موقفه النقدي يبدو من خلال حديثه عن البديهة والارتجال في مقدمة الكتاب حيث يجعل لهما اهمية كبرى وتقديرا عاليا .

ويورد في " غرائب التشبيهات " مختارات شعرية في التشبيهات التي تتميز عن غيرها من حيث الجودة او الغرابة ، ومعظمها لشعرا محدثين او معاصرين له .

١ - هو ابو منصور علي بن ظافر بن الحسين ، كاتب واديب مصرى ، تشقف بالادب وعلوم العربية والتاريخ ، اتصل في بدء حياته الادبية بالقاضي الفاضل فشجعه واتصل بصلاح الدين الايوبي وابنه الافضل واخييه العادل ووزر للملك الاشرف فترة وقدّم لخزائنه كتابه " بدائع البدائع " ثم تفرغ للتدريس في اواخر حياته في المدرسة المالكية . من مؤلفاته التاريخية " كتاب الدول المنقطعة " (انظر : معجم الادباء ١٣ : ١٦٤) وفيه ان تاريخ وفاته سنة ٦١٣ ، وانظر القواف ٣ : ١٠٦ ، وفي " غرائب التشبيهات " دراسة عنه) .

ورتيبها في ستة ابواب على الموضوع ، مع ايراد بعض الاحكام غير المعللة من آن
لآخر . (١)

٣ - اسماعيل بن محمد الشقندي (- ٦٢٩) (٢) مؤلف " رسالة في المفاضلة
بين الاندلس والمغرب " وفيها يفتخر بعظما الملوك والعلماء والمؤرخين والبلاغيين
وكبار الشعراء الاندلسيين ويستشهد بقطع متميزة من الشعر الاندلسي رجع فيها
الى ما كان يستحسنه الذوق العام الاندلسي ويطرب له ، واكثرها يعتمد على
الصور الجميلة .

٤ - ابن جبار (- ٦٢٢) (٣) صاحب نظم الدر في نقد الشعر " ويسمي
الصفدي هذا الكتاب " تعليقه التي املاها علي شعر ابن سناء الملك " (٤) ولم يصلنا

١ - مثال على ذلك قوله في : ٢٨ " ومن اطرف ذلك ، ومثله في الحسن ، ويلحقه

في الجودة " وانظر ايضا : ١٢ ، ١٤ ، ٤٢ / ١٥١ وغيرها .

٢ - اديب اندلسي من شقندة على نهر قرطبة ، كان متكنا من العلم الاسلامية وعلوم

الاوراق تولى القضاء غير مرة في الاندلس ، وكان مقربا من الخليفة الموحد

المنصور ، كما كانت له مشاهد ومناظرات على جانب من القوة . ورسائله في فضل

الاندلس كتبها ردا على ابي يحيى ابن المعلم الطنجي حين تنازع معه في

مجلس امير سبتة حول افضلية الاندلس او المغرب . وكانت وفاته باشبيلية . (انظر

ترجمته واخباره في اختصار القدر المعلى : ١٢٨ ، وفي نفح الطيب ٢ : ١٨٦ ،

(٢٢٢)

٣ - هو القاضي شرف الدين علي بن اسماعيل بن ابراهيم التجيبي السخاوي ، كان

عالما عدلا واديبا شاعرا نحويا وحدث عن السلفي ، له شعر اثبت الصفدي

شيئا منه في نكت الهميان . (انظر نكت الهميان : ٢٠٨ = ٢٠٩ ، وفيغية

الرعاة ٢ : ١٤٩)

٤ - الغيث المسج ١ : ١٩٤

الكتاب ولكن هناك نماذج منه في كتاب " الغيث المسجم " وهي تتناول بالنقد شعر ابن سناء الملك . ويشير الصفدى الى ذلك بقوله : " وله كتاب نظم الدر في نقد الشعر قصره على مؤاخذات ابن سناء الملك ، واجاد في بعضها وتعنت تعنتا زائدا في بعضها " (١) كما يؤكد عنف ابن جبارة في بعض نقده حين يقول ايضا : " وتعنت عليه ابن جبارة ٠٠٠ وقال عند هذا البيت : هذا نوع من الجنون والاختلاط " (٢)

٥ - ابن دحية الكلبي (- ٦٣٣) (٣) مؤلف " المطرب من اشعار اهل المغرب " وقد اورد في كتابه هذا نماذج شعرية في اغراض مختلفة معظمها في الغزل والنسيب والوصف

١ - نكت الهميان : ٢٠٩

٢ - البيت لابن سناء الملك وهو

لا ارضي بالشمس تشبيها لها والبدر بل لا اكتفي بالمكتفي

(انظر الغيث المسجم ١ : ١٩٤ ، وانظر اقواله النقدية الاخرى في ١ : ٣٤٢ ، ٣٧٢ ، ٤٠٥ من المصدر نفسه)

٣ - هو ابو الخطاب عمر بن الحسن بن علي الاندلسي البلسي الحافظ المحدث ، كان عارفا بالنحو واللغة ولا سيما غريبها واخبار العرب ، ولي القضاء مرتين في بلده ، وحدث بتونس ثم ارتحل الى المشرق واختلط بالعلماء ، واستقر بالقاهرة حين جعله الملك العادل الايوبي مؤدبا لابنه الكامل ، وتولى فيما بعد التحديث في الكاملية وهي دار للحديث بناها له الكامل وقد ألف المطرب للكامل ليعرفه ويعرف المشاركة بأدب الاندلس ، له شعر وعدد من التصانيف . توفي بالقاهرة (انظر في ترجمته الوفيات ٣ : ٤٤٨ ، وبغية الوعاة ٢ : ١٨ ، ونفح الطيب ٢ : ٩٩ ، وفي المطرب دراسة عنه) .

والتشبيه وراعى فيها طرافة الصور والابتكار والابتداع تمشيا مع الذوق العام
الاندلسي ، ويبدو موقفه النقدي من خلال تعليقاته على بعض النماذج (١)
وهو موقف دفاعي شبيه بموقف الشقندي .

٦ - ابن ابي الاصبغ (- ٦٥٤) (٢) مصنف كتاب " تحرير التحبير " في البلاغة
والنقد وفيه يقف عند اقسام البديع فيناقش تعريف من تقدمه لها ، ويغير
ويبدل في اسمائها أو يفرق بين المشتبه من انواعها ، ويتعقب بالنقد
شواهد تلك الاقسام ويلقي بحكمه النقدي على اصحابها ، كما يتبع بالنقد
الشعراء ويوازن بين شعره واشعارهم ومن خلال ذلك كله يبرز اهتمامه
بالبديع وتقديره له .

١ - يقول في احداها بعد ان مدح شعرا احد الاندلسيين " يا لله لاهل
المشرق قولة غاص بها شرق . الا انظروا الى الاحسان بعين الاستحسان
واقصروا عن استهجان الكرم الهجان " (المطرب : ١٤٥)

٢ - هوزكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد ، شاعر مصرى وأديب مؤلف ،
وأحد علماء البلاغة البارزين . عاش معظم حياته في مصر في العهد
الايوبي متفرقا للبحث والتأليف ولا يعرف عنه تخصص بمدح لسلطان أو تولي
منصب في الدولة . من تصانيفه : " بديع القرآن " و " الخواطر السوانح
في شرار الفواحش " (انظر في ترجمته الفوات ١ : ٦١٧ والنجم ٧ : ٣٧ ،
والشذرات ٥ : ٢٦٥ ، وترجم له ترجمة مسهبة د . حفي شرف فسي
كل من بديع القرآن ، وتحرير التحبير) .

٧ - عزالدين ابن ابي الحديد (- ٦٥٥) (١) شارح " نهج البلاغة " ومؤلف " الفلك الدائر " .

٨ - حازم القرطاجني (- ٦٨٤) (٢) مؤلف " منهاج البلغاء وسراج الادباء " وفيه مال الى تطبيق نظريات " ارسطو " وآرائه على الادب العربي مستخدما مصطلحات لم تكن مألوفة من قبل مثل " معلم ، اضافة ، تنوير ، مأم " وبمنهج جديد يدل على مدى تفهمه لنظريات ارسطو ، وعلى قدرته في ابراز النظريات النقدية المعروفة حتى زمنه وكأنها جديدة مبتكرة ، ولم يفته التقدم بنظرات شخصية لها اهميتها ، بحيث بات كتابه حلقة متممة لسائر كتب النقد والبلاغة المتقدمة .

١ - ستأتي دراسة عنه ، وتعريف بكتابه فيما بعد .

٢ - هو ابو الحسن بن محمد بن محمد الانصاري القرطبي المولد ، القرطاجني الدار كان فقيها مالكيا نحويا بصريا ، حافظا للحديث ، اديبا شاعرا ، درس المنطق والخطابة والشعر ومصنفات الفارابي وابن سينا . هاجر الى المغرب في عهد الموحدون ، ثم الى تونس حيث اتصل بصاحبها المستنصر ومدحه بأشعار فنال ثقته وألحق بديوانه وظل على صلة بالحفصيين الى ان مات . ويعد من شيوخ عصره فقد تخرج به جماعة منهم ابو حيان الاندلسي ، وابن سعيد ، وابن عصفور (انظر في ترجمته : اختصار القدرج : ٢٠ ، وبغية الوعاة ١ : ٤٦١ ، ونفح الطيب ٢ : ٨٤ . وهناك دراسة عنه في " منهاج البلغاء وسراج الادباء ") .

٩ - ابن سعيد الاندلسي (- ٦٨٥) (١) صاحب " المغرب في حلى المغرب " و " عنوان المرقصات والمطريات " . تحدث في اولها عن الاندلس وخصائصها وفضائلها ، وخرج على اقاليمها ومناطق كل اقليم فترجم لابرز رجالاته ، كل حسب مركزه الاجتماعي ومهنته في المنطقة ، وشفح ذلك بما قيل في كل منطقة من شعر فريد وموشح او زجل طرف ، معتمدا غرابة الصورة الشعرية وطرافتها في اختياراته مما يتماشى مع الذوق العام في الاندلس آنذاك ، وجمع في " عنوان المرقصات والمطريات " مختارات مما كتب نظما او نثرا في الاندلس والمشرق دون اطلاق حكم ما ، واعتمد فيها مقياس التأثير النفسي الذي تسببه الصور الشعرية الغربية او المبتكرة ، في القارئ او المستمع ، مقتصرنا على اقوى نوعين تأثيرا وهما المرقص والمطرب مرتبين على الاعصار . والمرقص ما كان مخترعا او مولدا يكاد يلحق بطبقة الاختراع والمطرب ما كان فيه مسحة من الابداع ويقل درجة عن الاختراع .

١ - هو علي بن موسى بن محمد ، اديب كاتب نحوي مؤرخ من اسرة لها اسهام في الادب اتصل بالموحدين وعمل معهم ، وانتقل الى الشرق حاجا فمر بتونس وتعرف على ادبائها ، وحل في مصر والتقى بنخبة من شعرائها . اتصل بالملك الناصر صاحب حلب ومن بعده بسلطان دمشق توران شاه واصبح من ندائه . ثم تجول في الشرق ليعود فيستقر في تونس حيث نال الحظوة لدى المستنصر الحفصي صاحب تونس وتوفي هناك . (انظر المغرب ٢ : ١٧٨ وفيه ترجمة للناقد بقلمه ، وانظر الفوات ٢ : ١٧٨ ، وبغية الرهاة ٢ : ٢٠٩ ، وفيه ان وفاته سنة ٦٧٣ ، وانظر ايضا نفح الطيب ٢ : ١٧٦) .

- ١٠ - صلاح الدين الصفدى (٧٦٤ -) (١) مؤلف "نصرة الشاعر على المثل السائر"
- ١١ - عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨ -) (٢) وقد أودع في مقدمة كتابه المعروف "العبر وديوان المبتدأ والخبر" آراء ونظرات عديدة في النقد ، اعتمد في بعضها آراء من تقدمه من النقاد العرب ، وأتى بجديد في البعض الآخر . فما ذكره طريقة النظم وفقا لقلب معين ، واشترك الانسانية في ممارسة النظم ، وغرق الشعراء الاسلاميين على الجاهليين بلاغة بسبب القرآن ، وأثر استيلاء العجمية على اللسان العربي في اللغة والادب نظما ونثرا ، وأثر الحفظ في تكوين الملكة الادبية ، وتعليل اهتمام المشاركة بالبلاغة تأليفا وشرحا وتعليما . (٣)

ان علاقة هؤلاء النقاد جميعا بالمثل السائر - سواء اكانت مباشرة او بالواسطة - ليست موضوع هذا البحث ، ان يقتصر البحث على التأثير المباشر الذي أحدثه هذا الكتاب لدى كل من ابن ابي الحديد ، وصلاح الدين الصفدى ، فقد تصدى اولهما لبعض ما تضمنه المثل السائر من آراء ونظرات ورد عليها في كتاب اسمه "بالفلك الدائر على المثل السائر" وألف الثاني "نصرة الشاعر على المثل السائر" تأييدا لـلالول

-
- ١ - ستأتي دراسة عنه فيما يلي .
- ٢ - انظر في ترجمة ابن خلدون : كتاب العبر ٧ : ٢٩٥ ، والضوء اللامع ٤ : ١٤٥ وابتداء الضمير ٢ : ٣٢٩
- ٣ - يمكن الرجوع الى الصفحات ١٠٦٢ - ١٠٦٥ وما بعدها من المقدمة للوقوف على الآراء المذكورة .

في موقفه من ابن الاثير .

٢ - في النقاد الثلاثة

ولكل من هؤلاء الثلاثة - في عصره - دور هام يتجاوز المجال النقدي
الادبي الى مجالات اخرى في السياسة والادارة والفكر .

أ - ابن الاثير

فاما ابن الاثير : فهو ضياء الدين ابو الفتح نصرالله بن محمد بن
عبد الكرم الشيباني الجزري (١) من عائلة عربية على جانب من الثراء والجاه اذ
كانت تمتلك عدة بساتين في قرية العقبة (٢) . كما كان رأسها ابو الكرم محمد
من التجار (٣) الى جانب توليه اعمال جزيرة ابن عمر لأتابكة الموصل فترة
من الزمن وكان خلالها حسن السيرة محبوبا ومؤثقا به (٤) ويبدو انه كان ملما

١ - نسبة الى جزيرة ابن عمر ، وهي بليدة فوق الموصل . يقال ان اول من عمرها

الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبي (انظر معجم البلدان ٢ : ١٣٨ .

والوفيات ٣ : ٣٤٩)

٢ - من جملة اعمال جزيرة ابن عمر ، وكانت تقابلها على الطرف الاخر من نهر دجلة .
(انظر ، اتابكة الموصل : ١٤٢)

٣ - يقول صاحب اتابكة الموصل في حوادث ٥٦٢ " وفيها خرجت مراكب من مصر الى
الشام فأخذ الفرنج الذين في لاذقية مركبين فيها ملوئين من الامتعة ، فلما
أخذ الفرنج هذين المركبين كان لوالدي فيها تجارة مع شخصين " (اتابكة
الموصل : ١٥٥)

٤ - وهو ما يبدو من قول ابنه عز الدين " حدثني والدي قال : استدعاني يوما
اتابك قطب الدين وهو بالجزيرة وكنت اتولى اعمالها له . . . قال لي اشرع
في عمارة هذه الاماكن التي تحتل العمارة ، ففعلت وكبرت منزلي عنده " .
(اتابكة الموصل : ١٤٨)

بالاحداث التاريخية وعلى شيء من المعرفة العلمية والادبية ، فكان لهذا كله
اثر في التكوين العلمي والثقافي لاولاده الثلاثة : مجد الدين الفقيه (١) ،
وعز الدين المؤرخ (٢) ، وضياء الدين الاديب .

ولد ضياء الدين في جزيرة ابن عمر عام ٥٥٨ / ١١٦٣ (٣) ، ونشأ بها
وحصل فيها شيئاً من العلم ، فأخذ الحديث عن اخيه مجد الدين " واستظهر
القرآن الكريم وشدا طرفاً من الادب وعلم العربية ، وحفظ من اشعار الجاهلية
واشعار المحدثين والأحاديث النبوية والسير والامثال صدراً وافراً . " (٤) ولما

١ - هو ابو السعادات المبارك بن محمد بن الاثير الجزري الشافعي ، كان
عالماً فاضلاً في العربية والقرآن والنحو واللغة والحديث والفقه كتب الانشاء
لأتابكة الموصل وله بعض التصانيف منها : (جامع الاصول في احاديث الرسول)
(النهاية في غريب الحديث) ، توفي بالموصل سنة ٦٠٦ (انظر في ترجمته :
معجم الادباء ١٢ : ٧١ ، والكامل ١٢ : ٢٨٢ ، والجامع المختصر : ٢٩٩
والوفيات ٤ : ١٤١ وطبقات السبكي ٥ : ١٥٣)

٢ - هو ابو الحسن علي بن محمد بن الاثير ، كان حافظاً للحديث والتاريخ ،
خييراً بأنساب العرب واخبارهم ، درس على بعض علماء الموصل وبغداد ، ورحل
في طلب العلم الى دمشق والقدس . من مؤلفاته : الكامل في التاريخ ،
والتاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل ، توفي بالموصل سنة ٦٣٠ (انظر
في ترجمته : ذيل الروضتين : ١٦٢ ، والوفيات ٣ : ٣٤٨ والبدر السافر :
الورقة ٢٠٥ ، وعبير الذهبي ٥ : ١٢)

٣ - انظر الوفيات ٥ : ٣٨٩ ، وتكملة الاكمال : ٢٤ ومرآة الجنان ٤ : ٩٧

٤ - عقود الجنان ٩ : ٥٣

بلغ الحادية والعشرين من عمره انتقل الى الموصل (١) حيث اقام بعض الوقت في خدمة الامير قايمار (٢) ولعله تولى احدى الوظائف الكتابية له . ومكث على ذلك نحو من ثماني سنوات ، ولكن يبدو انه لم يكن راضيا عن عمله الكتابي ، او قانعا بحياته في الموصل ، لا سيما وانه كان على قدر من الذكاء والطموح المتطلع الى المجد والشهرة ، لذا نراه يأخذ في اعداد نفسه لتحقيق ما يطمح اليه ، فينتظم في حلقات الدرس ، ويقبل على المزيد من الثقافة والعلم ، فيأخذ علم الحساب على ابن وهبان (٣) ، ويدرس القرآن والنحو على ابن ريان الماكسيني (٤) ، ولم تكفه هذه الدراسة ، فاعتمد طريقة التثقيف الذاتي من خلال اطلاعه على الكثير مما ألف في علم البيان (٥) ، وبالتأثر على تلاوة القرآن الكريم والتعمق في معانيه بهدف حلها والاقتباس منها

- ١ - انظر عقود الجمان ٥٢ : ٩ ، والوفيات ٥ : ٣٨٩ ، والبدر السافر : الورقة ٢٠٥
- ٢ - هو مجاهد الدين ابو المنصور بن عبد الله الزيني الرومي ، حاكم الموصل في الدولة النورية كان خيرا فاضلا على شي . يسير من الفقه ، وكثير من حفظ التاريخ والشعر . توفي بالموصل سنة ٥٩٥ (اخباره في : الكامل ١٢ : ١٥٣ ، وانا بكة الموصل : ١٩٣ والوفيات ٤ : ٨٢ ، والحوادث الجامعة : ٨)
- ٣ - هو ابو العباس احمد بن عبد الرحمن الجزري ، كان عالما متبحرا في علم كثيرة منها الفقه والحساب والاصول والفرائض والنجوم والمنطق . درس بالموصل وتوفي بمكة سنة ٥٨٥ (انظر في ترجمته الكامل ١٢ : ٤٢ ، وانظر عقود الجمان ٩ : ٥٣)
- ٤ - هو صاغن الدين ابو الحارث مكي بن ريان بن شيعة النحوي المقرئ الضرير . كان عارفا بالنحو واللغة والقراءة ، ملما بالفقه والحساب ، قرأ عليه اعيان الموصل وتخرجوا به وتوفي فيها سنة ٦٠٣ (له ترجمة في كل من معجم الادباء ١٩ : ١٧١ ، والكامل ١٢ : ٢٥٨ ، ونكت الهميان ٢٩٦)
- ٥ - انظر المثل السائر ١ : ٣٥ ، ونسعه يتحدث عن هذا الاطلاع فيقول : " فشرعت عند ذلك في تطلبه والبحث عن تصانيفه وكتبه ، فلم اترك في تحصيله سبيلا الا نهجته ، ولا فادرت في ادراكه بابا الا ولجته حتى اتضح عندي بادية وخافية وانكشفت لي اقوال الائمة المشهورين فيه " (الجامع الكبير ١ - ٢) .

قال " كنت آخذ سورة من السور وأتلوها وكلما مر بي معنى أثبتته في ورقة مفردة حتى انتهى الى آخرها ، ثم آخذ في حل تلك المعاني التي اثبتتها واحدا بعد واحد ولا اقمع بذلك حتى أعاود تلاوة تلك السورة ، وأفعل ما فعلته أولا ، وكلما صقلتها التلاوة مرة بعد مرة ظهر في كل مرة من المعاني ما لم يظهر في المرة التي قبلها " (١) .

وجرد من الاخبار النبوية كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف خبر ، وواظب على مطالعته بحيث كان ينهي قراءته في كل اسبوع مرة ، حتى حفظه حفظا تاما ولم يشذ عنه منه شيء (٢) . ووقف على الدواوين الشعرية ومجموعاتها ، فأضى وقتا طويلا في مطالعتها وفريلتها وانتقى منها " ما تكثر فوائده وتتشعب مقاصده " (٣) وما قد يحتاجه في الترسل وفي مهنة الكتابة عامة . وتدرك من حديث له انه كان على معرفة ببعض لغات عصره - وان كما لا ندرى كيف تأتت له هذه المعرفة ، فهو يقول يصف لقاؤه بخطيب اديب شاعر في احدى المدن التركية سنة ٦٠٠

-
- ١ - المثل الثائر ١ : ١٧١ ، ونجد له ما يقرب من هذا المعنى في الوشي المرقوم : ٨٥
 - ٢ - المصدر نفسه ١ : ١٦١ ، وانظر كلامه في المعنى نفسه في الوشي المرقوم : ٥
 - ٣ - المثل السائر ٢ : ٢٢٥ ، ويشير الى مختاره الشعري في (الوشي المرقوم ص ٦ - ١٠) فيقول " وكنت حفظت من الاشعار القديمة والمحدثة ما لا احصيه كثرة ثم اقتصر بعد ذلك على شعر الطائيين حبيب بن اوس وابي عبادة البهتري وشعر ابي الطيب المتبي ، فحفظت هذه الدواوين الثلاثة وكنت اكرر عليها بالدرس مدة سنين حتى نمكنت من صوغ المعاني وصار الادمان لي خلقا وطبعها " .

" فقصدت لقاؤه وألنيتيه كما اخبرت عنه . ورض علي قصيدا من شعره وهي مائة بيت ، كل عشرين منها على لغة ، فكان متضمنا خمس لغات : العربية والفارسية والتركية والرومية والارضية فالجميع على وزن واحد وقافية واحدة ، الا انه كان في غير اللغة العربية ابرع منه في اللغة العربية وهذا من اغرب ما شاهدته " (١)
ومنه ندرك ايضا ان معرفته بهذه اللغات كانت على وجه مكسب من تقييم الشعر في كل منها .

وحيث رأى ان لديه من الثقافة ما يكفي لتحقيق اهدافه ، غادر الموصل عام ٥٨٢ الى دمشق حيث تمكن من الاتصال بالقاضي الفاضل (٢) فنشد مساعدته في تولي احد الاعمال الكتابية ، فلم يخيب القاضي رجاءه وألحقه بخدمة السلطان صلاح الدين الايوبي ، ومكث في خدمة السلطان شهورا قلائل التقى خلالها بابنه الطك افضل (٣) ، ويبدو ان هذا اعجب بذكاء الكاتب وثقافته وشخصيته ، وراقته انكاره ورفقته ، ومن ثم رغب الى والده في ان كنه يتخلى عن كاتبه ، فخير السلطان الاخير بينه

١ - الرشي المرقوم ٢١ - ٢٢

٢ - هو عبد الرحيم بن علي اللخمي البيساني ، من أئمة الكتاب وبلغائهم ، وصاحب الطريقة الفاضلية في الانشاء . وزر للسلطان صلاح الدين الايوبي ولازمه وكتب الانشاء له . توفي بالقاهرة سنة ٥٩٦ (اخباره في الكامل ١٢ : ١٥٨ وما قبلها ، وله ترجمة في الوفيات ٣ : ١٥٨ ، وطبقات السبكي ٤ : ٢٥٢ ، وعبير الذهب ٤ : ٢٩٢)
٣ - هو علي نور الدين بن يوسف صلاح الدين الايوبي ، ولد سنة ٥٦٥ ، وسمع شيئا على علماء مصر وصار شاعرا ادبيا . تولى ملك دمشق فترة ثم اخرج منها الى صرخند ، ثم ملك مصر مدة عام واحد ، لتؤخذ منه ويستقر نهائيا في سميساط حيث توفي سنة ٦٢٢ (انظر اخباره في الكامل ١٢ : ٢٨ وذيل الروضتين : ١٤٥ ، والوفيات ٣ : ٤١٩) .

وبين ابنه ، فاختر الابن بوحي من ذكائه وطموحه ، وأخذ في التحبب اليه حتى فاز بكامل ثقته بحيث واه " وزارته وكتابته وعلق به جميع اموره " (١)
وحين استقل الافضل بملك دمشق بعد وفاة والده استقل ضياء الدين ايضا بوزارة الدولة وكتابتها وتدير امورها ، وهذا " جمع بين تدبيرى السيف والقلم " (٢)
موقفا بذلك ما سعى اليه سنوات طولا من تفرد بالسلطة واستئثار بالمجد .

وكان من الممكن ان يبقى في مركز القوة هذا لو لم يتصرف كما كانت تلي عليه عناصر ونزعات معينة في طبيعته واخلاقه . فقد كان بحسب شهادة صاحب عقود الجمان " متكبرا في نفسه ذا عصبية عظيمة وصلف زائد يتجاوز فيهما الحد ، وكان كثير الحماقة ، متناقض الاحوال ، مشهورا في اموره ، سفية اللسان ، جباها لمن يخاطبه ولو كان ملكا او سلطانا ، مقنونا الى الناس شرس الاخلاق ، سريع الغضب قليل المبالاة بالخلق ، لا يرى في العالم الا نفسه ، ويبخس الناس حقوقهم ويحطمهم من اقدارهم ، ويرمقهم بعين الاهمال (٣)

ان من كانت له طبيعة كهذه ، واخلاق كذلك ، لا ينتظر منه ان يتوخى الحكمة او الروية في تصرف الامور ، او ان يكون قادرا على معاملة رؤوسه بتفهم وهدل ، وهذا ما حدث مع ضياء الدين ، فقد اساء التصرف حتى اختلت به الاحوال

١ - عقود الجمان ٩ : ٥٣
٢ - المصدر نفسه ، والوفيات ٥ : ٣٨٩
٣ - عقود الجمان ٩ : ٥٣

غاية الاختلال وكثر شاكوه " (١) واصبح الناس يتنون الخلاص منه بأية وسيلة ،
متسائلين مع احد شعرائهم ،

متى أرى وزيركم وماله من فزر
يقلعه الله فذا اوان قلع الجيزر (٢)

وظل ضياء الدين سادرا في غيه ، فاشدد تدمر الناس منه وسخطهم عليه ، وكرروا
الشكوى منه الى الملك العادل (٣) ، وكان في مصر يرضى شئون الدولة الايوبية
فاستجاب العادل لاستغاثة الشاكين وتوجه الى دمشق لتسوية الامور فيها ، ومع
تطور الاحداث اضطر الى انتزاع دمشق من الافضل واخراجها الى صرخد . (٤)
وهرب ضياء الدين في صندوق مقل من صناديق الافضل لخوفه من القتل او الحرق
من قبل الشعب الناقم عليه . (٥)

-
- ١ - السلوك ١ ، ١٣٥ ، ورمآة الزمان : ٤٣٦
 - ٢ - الروضتين ٢ : ٢٢٨
 - ٣ - هو ابو بكر محمد بن ايوب ، أخو صلاح الدين ، كان حازما في الامور وسياسيا
ادبيا ومحيا للعلم والعلماء ، تميز عهده بالفاوضات السياسية مع الصليبيين .
توفي قرب دمشق سنة ٥١٦ . (اخباره في الكامل ج ١٢ وفتح الكروب ج ٣ .
وانظر الوفيات ٥ : ٧٤ ، والسلوك ١ : ١٩١)
 - ٤ - انظر الروضتين ٢ : ٢٢٨ ، والوفيات ٥ : ٣٨٩ ، وصرخد : بلد ملاصق لحوران
من اعمال دمشق ، وكانت قلعة حصينة ينسب اليها الخمر . (انظر معجم البلدان ٣ :
٤٠١)
 - ٥ - انظر الروضتين ٢ : ٢٨٨ ، والوفيات ٥ : ٣٨٩ ، والنجم الزاهرة ٦ : ١٢٥ ،
والشذرات ٥ : ١٨٨

وكانت هذه الحادثة بداية مرحلة من القلق وعدم الاستقرار في حياة ضياء الدين . فقد لازمه الاخفاق السياسي ، واصبح دائم التجوال ، يتنقل بين حواضر الاقاليم ومدنها الكبرى ، ساعياً وراء غاية لم يستطع ادراكها ثانية ، الى ان استقر به المقام عام ٦١٨ في الموصل ، تلبية لدعوة تلقاها من صاحب الموصل لؤلؤ الأتابكي (١) ، وتولى كتابة الانشاء له ، ولم تفض فترة وجيزة الا واصبح " رأس الكتاب ومنشى الدولة " . (٢)

وبهذا انتهى عهد السفر والتنقل وجوب البلاد ، وبات في مقدور ضياء الدين الاخلاص الى الهدوء والاستقرار خاصة وانه بلغ الستين من عمره ، وهي سن لا تستسيغ حياة التنقل والتجوال الدائم ، ثم انصرف الى التأليف الادبي ، فكتب في النقد والباهة وفي الترمز والانشاء ، فمما ألفه من النوع الاول " المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر " - ولعله اشهر كتب المؤلف واصل شهرته كذلك ، ثم كتاب " الجامع الكبير في صناعة المنظم والمنثور " و " الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان " و " الوشي المرقوم في حل المنظم " وجميعها مطبوعة . وله مؤلفات اخرى من هذا النوع لم نطنا ولكن المؤلف يشير اليها في بعض كتبه الأتفة الذكر ،

١ - هو بدرالدين بن عبد الله ، ولقبه الملك الرحيم ، ملك الموصل نحواً من خمسين سنة وكان ذا عقل وهمة ودهاء . قدم لخزانته عزالدين ابن الاثير كتابه (الكامل) فأجازته واحسن اليه . توفي بالموصل سنة ٦٥٦ ، او ٦٥٧ ، (اخباره في الكامل ١ : ٥ ، والهداية ١٣ : ٦١٤ ، والنجم ٧ : ٧٠) .
٢ - عقود الجمان ٩ : ٥٤ ، والشذرات ٥ : ١٨٨

فله " عمود المعاني " (١) ، و " الرسالة في المعاني المبتدعة " (٢) وكتاب في السرقات الشعرية (٣) .

غير ان التأليف لم يصرفه كلية عن الحياة العامة ، وقد أوفده بدرالدين لؤلؤ عدة مرات في مهمات رسمية الى بغداد ، وذهب في احداها للتعزية بالظاهر بأمر الله (٤) ، ولتهنئة المستنصر بالله (٥) بالخلافة ، فألقى خطبة بليغة استهلها بقوله " ما للليل والنهار لا يعتذران وقد عظم حادثهما ، وما للشمس والقمر لا يكسبان وقد فقد ثالثهما " (٦)

وكانت وفاته ببغداد سنة ٦٢٧ / ١٢٣٩ اثنا قيامه باحدى تلك المهمات ، ودفن هناك . (٧)

-
- ١ - انظر الاستدراك : ١١
 - ٢ - انظر الاستدراك : ٦٠ ، والمثل السائر ٣ : ٢٨٩
 - ٣ - انظر المثل السائر ٣ : ٢٢٢
 - ٤ - هو محمد بن الناصر لدين الله العباس . بويج بالخلافة سنة ٦٢٢ ، وتوفي بعد شهر قلائل سنة ٦٢٣ كما جاء في ديوان رسائل ابن الاثير ١٨٦ ، والفخرى ٢٣٩ سنة ٦٢٢ حسب قول الكامل ١٢ : ٤٣٨
 - ٥ - هو ابو جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله ، كان شهيدا جوادا محيا للعلم بني المدرسة المستنصرية للمذاهب الاربعة ، وبني المساجد والربط . توفي ببغداد سنة ٦٤٠ (انظر في ترجمته الكامل ١٢ : ٤٥٨ ، والفخرى : ٢٤٠ والحوادث الجامعة : ١٥٥ ، والبيداية والنهاية ١٣ : ١٥٩)
 - ٦ - عقود الجمان ٩ : ٥٤ وفتح الكروب ٤ : ١٩٨ وانظر نص الخطبة في ديوان رسائل ابن الاثير : ١٨٦ - ١٨٧
 - ٧ - انظر تكملة الاكمال : ٢٤ والحوادث الجامعة : ١٢٦ ، وعبير الذهبي ١٥١ : ٥

ب - ابن أبي الحديد

وأما عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن أبي الحديد المدائني (١) ، فقد كان أحد أخوة ثلاثة ، من أسرة ذات مكانة اجتماعية مميزة ، وكان أبوه قاضياً بالمدائن (٢) ، وأخوه أبو البركات أديباً كاتباً (٣) ، وأما أخوه الآخر موفق الدين فقد كان قاضياً فقيهاً أديباً شاعراً (٤) .

ولد عز الدين بالمدائن عام ٥٨٦ / ١١٩٠ ، ونشأ بها ، وربما تلقى فيها شيئاً من العلوم الأولية التي كان أطفال المسلمين يلقونها في ذلك العهد . من تلاوة للقرآن الكريم ، وإلمام ببعض مبادئ العربية ، وحفظ لشيء من الأحاديث

-
- ١ - نسبة إلى المدائن ، وهي بليدة قريبة من بغداد ، وكان أهلها فلاحين يغلب عليهم التشيع على مذهب الإمامية (انظر معجم البلدان ٥ : ٧٤)
 - ٢ - انظر عقود الجمان ٤ ، ٢١٣ ، والجامع المختصر ٨٨
 - ٣ - هو محمد بن هبة الله بن أبي الحديد ، كاتب ووقف المدرسة النظامية ، كان فاضلاً أديباً شاعراً موصوفاً بالذكاء . ولد بالمدائن سنة ٥٦٤ ، وتوفي شاباً ببغداد سنة ٥٩٨ (انظر الجامع المختصر ٨٨)
 - ٤ - هو أحمد بن هبة الله بن أبي الحديد . كان فقيهاً أديباً تولى قضاء المدائن سنة ٦٢٢ ، وكتب الأنشأ مدة للخليفة العباسي المستعصم بالله ، وله قصائد مدح في الخلفاء العباسيين ووزرائهم . ولد بالمدائن سنة ٥٩٠ ، وتوفي ببغداد سنة ٦٥٥ أو ٦٥٦ قبيل وفاة أخيه عز الدين بقليل (انظر في ترجمته ، الوفيات ٥ : ٣٩٢ ، والحوادث الجامعة ٥٦ ، والوفائي ٨ : ٢٢٥ ، والبداية والنهاية ١٣ : ١٩٩)

النبوية والأشعار . وكان لتشيع اهل المدائن اثره في الوجة المذهبية له .
اذ اقتدى بهم وتشيع وهو لا يزال حدثا . كما اثر ذلك في نمو موهبته الشعرية
وتوجيهها بحيث اصبحت معظم اشعاره ذات لون تشيعي متميز (١) . وقد عرف به
حتى بعد انتقاله الى بغداد طلبا للعلم .

ولا ندرى - على وجه التحديد - متى انتقل عزالدين الى بغداد .
اذ ليس لدينا سوى اشارة عابرة اوردها في " شرح نهج البلاغة " يذكر فيها
حضوره في المدرسة النظامية وهو غلام (٢) . ولكن من المؤكد ان ذلك حدث
قبل وفاة الشيخ صدق الواسطي (٣) . سنة ٦٠٥ . فقد اخذ عنه عزالدين الادب
والنحو وتفقه به بالحديث ودرس عليه اصول الكلام ولازمه الى حين وفاته . كذلك
درس النحو واللغة على الشيخ ابي البقاء العكبري (٤) . وافاد منه كثيرا .

-
- ١ - ومنها قصائده المعروفة بالعلويات السبع والتي نظمها في المدائن سنة ٢١١
وكذلك قصائده لبعض اصدقائه العلويين في المدائن (انظر شرح النهج ٤ ،
٥٢٤ . وحقود الجمان ٤ : ٢١٨)
 - ٢ - انظر شرح النهج ٣ : ٣٨٢
 - ٣ - هو ابو الخير بن شبيب بن الحسين الصلحي النحوي . درس النحو في
بغداد وسمع فيه وسمع الحديث ورواه . وتخرج به جماعة من الاعيان واهل
الادب . توفي ببغداد (انظر في ترجمته : معجم الادباء ١٦ : ١٤٢ .
والكامل ١٢ : ١١٨ . وسغية الوعاة ٢ : ٢٨٢)
 - ٤ - هو عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن محب الدين البغدادي الحنبلي
الضريب كان عالما بالنحو واللغة والمذهب والفرائض والحساب . وانتفع به
كثيرون . توفي ببغداد سنة ٦١٦ (اخباره في انباء الرواة ٢ : ١١٦ . والوفيات
٣ : ١٠٠ . ونكت الهميان ١٢٨ . وسغية الوعاة ٢ : ٣٨ . وفي شرح
النهج ١ : ٤٢٢ اشارة له) .

ولم يكتب بذلك ، فأما مجالس العلم والادب ، واختلط بالعلماء من اصحاب المذاهب ، ودرس فقه الامام الشافعي ، وقرأ علم الاصول (١) ، ثم اطلع على شيء من الكتب الفلسفية ، واستعان بخزائن كتب بغداد في دراسته المنطق وعلم الكلام (٢) ، وكذلك المسائل الطبيعية ونظريات الحكماء (٣) ، بحيث بات واعياً للحقائق قادراً على التدقيق والتحصيل . وظل طلب العلم والتزود بالمزيد من المعرفة ويدنه طيلة حياته ، وان لم يشغله عن النظم في شتى المناسبات .

ولعل انصرافه الى البحث والاطلاع اقصاه عن مزاوله العمل في سن مبكرة ، فقد كان اول عمل له سنة ٦٢٠ حين تولى الاشراف على طريق خراسان (٤) ، وفي عهد المستنصر بالله اصبح كاتباً في ديوان الخلافة ونال الحظوة لدى الخليفة بمدائح له واثراً تأليفه لخزائنه كتاب " الفلك الدائر على المثل السائر " سنة ٦٣٣ (٥)

-
- ١ - انظر عقود الجمان ٤ : ٢١٣
 - ٢ - انظر شرح النهج ٤ : ٥٧٤ ، وفي ٣ : ١٦٨ من الشرح قصيدة له في الرد على الفلاسفة .
 - ٣ - انظر شرح النهج ٣ : ٣٠٤ ، وعقود الجمان ٤ : ٢١٣ ، وروضات الجمان ٥ : ٢٠
 - ٤ - انظر عقود الجمان ٤ : ٢١٤
 - ٥ - انظر الفلك الدائر ٣٣ : ٤٤ ، ونصرة الثائر ٤٤

كما نال جوائزهم وعطاياهم ، واثنا ذلك كان قد نقل كاتباً في مخزن دار التشریفات (١) وكان الوزير آنذاك نصیرالدين ابا الازهر (٢) ، فاتصل به عزالدين وتوطدت الصلة بينهما ، ومدحه بالعديد من القصائد التي كانت تحوز اعجاب الوزير واستحسانه (٣) ، وحدث ان رتب مؤيد الدين العلقمي (٤) ناظراً لدار التشریفات وكان على غرار عزالدين في تشييعه واعتزاله وحبه للعلم والادب ، فقرب المذهب والميول المشتركة بينهما وربطتهما بأواصر الصداقة والمودة ولم يضعف او يقلل من مائة صداقتهما ، انتقال عزالدين من دار التشریفات الى السواد لتولي الاشراف بأعماله (٥) ، بل ربما كان ذلك وراء اعادة عزالدين الى بغداد ناظراً للبيمارستان العضدي (٦) ، حين تولى العلقمي الوزارة سنة ٦٤٣ . ولاهتمام العلقمي البالغ بالادب ولا سيما الشيعي منه ، كلف عزالدين بشرح نهج البلاغة ، فاستجاب هذا للتكليف وشرع في تأليف الشرح في اول رجب سنة ٦٤٤ . ولما فرغ منه في آخر صفر سنة ٦٤٩ (٧) .

١ - انظر عقود الجمان ٤ : ٢١٤

٢ - هو احمد بن محمد بن الناقد ، كان اميناً وسياسياً حازماً ، تولى الوزارة من ٦٢٩ - ٦٤٣ ، وضبط الدولة ضبطاً مرضياً . توفي ببغداد سنة ٦٤٣ (انظر

الفخرى : ٢٤١ ، والحوادث الجامعة : ٢٩١)

٣ - في شرح النهج ٤ : ٤١ يشير عزالدين الى استحسان الوزير لاحدى قصائد الاول

المرتجلة ، وانشاده لها دائماً . وفي عقود الجمان ٤ : ٢٥١ والحوادث الجامعة : ٤٧ قصيدتا مدح وتهنئة للوزير في فتح اربل .

٤ - هو ابو طالب محمد بن احمد العلقمي الشيعي ، درس الادب وشرح فيه ، وأحب الادباء والعلماء وقربهم ، واقتنى الكتب النفيسة . وكان خبيراً بالسياسة . توفي

ببغداد سنة ٦٥٦ (انظر الفخرى : ٢٤٦ ، والحوادث الجامعة : ٢٣٦ ،

والفوات ٢ : ٣١٢ ، والوافي ١ : ١٨٤)

٥ - انظر عقود الجمان ٤ : ٢١٤ ، ومجمع الاداب ٤ ق ١ : ١٩٠

٦ - انظر مجمع الاداب ٤ ق ١ : ١٩٠

٧ - انظر شرح النهج ٤ : ٥٢٤

أنفذه على يد أخيه موفق الدين الذي كان أيضا على صلة وثيقة بالوزير ،
فتلقى هذا الشرح بما يليق به من التقدير والاعتزاز ، ووصل مؤلفه بمائة
دينار وخلعة سنية وفرس ، وقد عبر عزالدين عن تأثره بصلة الوزير بقصيدة مدحه
فيها منها بحبه للاعتزال وأهله . قال :

أحب الاعتزال وناصره ذوى الالباب والنظر الدقيق
فأهل العدل والتوحيد أهلي ونعم فريقهم أبدا فريقى

.....

بآل العلقمي ورت زنادى وقامت بين أهل الفضل سوقي
فكم ثوب أتيق نلت منهم ونلت بهم ركم طرف عتيق
أدام الله دولتهم وانحسى على أعدائهم بالخنفقيق (١)

وتضطرب المصادر في وصف أحداث السنوات الأخيرة من حياة عزالدين ،
فيشير البعض إلى استمراره في عمله بنظارة البيمارستان إلى حين وفاته سنة ٦٥٥ /
١٢٥٧ (٢) ، بينما ينص البعض الآخر على أنه أدرك سقوط بغداد بأيدي المغول
ثم كلف بكتابة السلة (٣) ، ولكنه لم يعمر طويلا وما لبث أن توفي في مطلع
سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨ (٤) .

-
- ١ - انظر نص القصيدة في روضات الجنات ٥ : ٢١ - ٢٢
والخنفقيق : الداهنية (انظر اللسان ١٠ : ٩٣ مادة خنفق)
٢ - انظر الفوات ١ : ٥١٩ ، والبداية والنهاية ١٣ : ١٩٩ ، وروضات الجنات ٥ : ٢٠
٣ - " المراد بالسلة ، ما تحفظ فيه بعض الكتابات الديوانية وكانها هو الذى يرقمها "
(الجامع المختصر هاشم : ٢٢٩)
٤ - انظر تلخيص مجمع الاداب ٤ ق ١ : ١٩٠ ، والحوادث الجامعة : ٣٢٦

وتضطرب المصادر ايضا في حقيقة تشيعه ، فبعضها يؤكد ذلك (١) ،
وقسم ينفي تشيعه كلية (٢) ، وقسم محايد يتجنب الخوض في هذا الامر (٣) ،
وربما نشأ هذا الاضطراب من تغير آراء عزالدين بعد مغادرته المدائن الى
بغداد حيث تأثر بمختلف العلم والآراء والنظريات والمذاهب ، اما بمطالعته
للعديد من الكتب العلمية والادبية ، او باختلاطه ببعض اصحاب المذاهب من
العلماء كما ذكرنا سابقا فبات معتدلا لا يتعصب لمذهب دون الاخر و " منصفا غاية
الانصاف في المحاكمة بين الفريقين " . (٤)

على ان جميع المصادر متفقة من حيث اعتزال عزالدين ، وبعضها يورد قصائد
له يتغنى فيها بالاعتزال ، ومنها قوله :

لولا ثلاث لم أخف صرعتي ليست كما قال فتى العبد
ان انصر التوحيد والعدل في كل مكان باذلا جهدي
وان اناجي الله مستمتعا بخلوة احلى من الشهد (٥)

-
- ١ - انظر نصره الثائر : ٥٠ ، والبداية والنهاية ١٣ : ٩١
 - ٢ - انظر روضات الجنات ٥ : ٢٠ ، ومصادر نهج البلاغة : ٢٥٧
 - ٣ - انظر عقود الجمان ٤ : ٢١٣ ، والوفيات ٥ : ٣٩٢ ، والفوات ١ : ٢٥١٩
ومجمع الاداب ٤ ق ١ : ١٩٠ ، والسلوك ١ : ٤٠٨
 - ٤ - روضات الجنات ٥ : ٢٠
 - ٥ - انظر عقود الجمان ٤ : ٢١٥ ، ونصره الثائر : ٤٧ ، والفوات ١ : ٥١٩
وفي نصره الثائر : ٤٥ قصيدة للصفدي يرد فيها عليه لتغنيه بالاعتزال ،
وقصائد اخرى في الفوات ١ : ٥١٩ في نفس الغرض .

ومناجاة الله سبحانه وتعالى ومخاطبته كما يفعل المتصوفة ، من السمات التي يتميز بها شعر عز الدين ، ولكنه - ولامر ما - كان يتكلم شعره هذا ولا يبيح به الا للضرورة ، وفي ذلك نسمعه يقول " من شعري الذي اتاجي به الباري سبحانه في خلواتي وهو فن أطويه وأكتمه عن الناس ، وانما ذكرت بعضه في هذا الموضع لان المعنى ساق اليه والحديث ذو شجون :

يا من جفاني فوجدى بعده عدم هبني أسأت فأين العفو والكرم

.....

والله والله لو عاقبتني حقا بالنار تأكلني حطما وتلتهم
ما حلت عن حيك الباقي فليس علي حال بمنصم والدهر ينصم " (١)

ويقول واصفا ارتياده في هدأة الليل لأماكن خالية من الناس ومناجيا ربه : " من شعري ايضا في المعنى وكنت أنادى به ليلا في مواضع مقفرة خالية من الناس بصوت رفيع وأجدح قلبي ايام كنت مالكا امرى مطلقا من فيسود الاهل والولد وطلائق الدنيا :

وحقك ان اذخلتني النار قلت للذين بها قد كنت ممن احبه
وأفانيت عمري في علم دقيقة وما بغيتني الا رضاه وقربه
وآية صدق الصب ان يعذب الاذى اذا كان من يهوى عليه يصبه " (٢)

١ - شرح النهج ٣ : ١٩٦
٢ - شرح النهج ٣ : ١٩٦ ، وانظر نصره الثائر : ٤٥ ، والفوات ١ : ٥١٩

ويدلنا هذا كله على ان عزالدين كان شاعرا قادرا على النظم في فنون
وأغراض عديدة . وقد شهر كشاعر عقب نظمه القصائد العلويات السبع ومن خلال
مدائحه الكثيرة للخلفاء والوزراء ، فسعى اليه لرواية شعره عدد من الادباء من
بينهم ابن الشعار (١) الذي تردد عليه مرات عديدة في منزله في بغداد
حتى تمكن من تدوين عدد من قصائده ، رأيتها في كتابه " عقود الجمان " كما
اثبت له شيئا من كتبه الرسمية وتراجمه (٢) .

غير ان شاعرية ابن ابي الحديد لا تمثل الا جانبا واحدا من الجوانب
المتعددة لشخصيته الادبية والعلمية . فقد كان اديبا خالعا في فنون الادب ،
متقنا لعلم اللسان العربي عارفا بأخبار العرب ولغاتها وخطبها ، وحسبه شاهدا
على رسوخ قدمه في هذه الفنون والمعارف شرحه " لنهج البلاغة " الذي
اسهب القول فيه بحيث اشتمل على الغريب والمعاني وعلم البيان، وما عساه يشتهر
ويشكل من الاعراب والتصريف ، وأورد في كل موضع ما يطابقه من النظائر والاشياء
نقرا ونظما ، وذكر ما يتضمنه من السبر والوقائع والاحداث التاريخية وأثبتت
شيئا من الانساب والامثال والحكم النفسية (٣) . ولم يفته التقدم ببعض الآراء

١ - هو ابو البركات كمال الدين المبارك بن ابي بكر بن حمدان ، اديب موصلني ،
درس الادب على ضياء الدين ابن الاثير ، وعلى بعض ادباء بغداد وشعرائها
توفي سنة ٦٥٤ (له ترجمة في مرآة الجنان ٤ : ١٣٦ ، وانظر اخباره
مع ابن ابي الحديد في عقود الجمان ٤ : ٢١٤)
٢ - انظر عقود الجمان ٤ : ٢١٦ - ٢٥١
٣ - شرح النهج ١ : ٢

والنظرات النقدية في بعض ضروب البديع (١) .

وربما كان كتابه " العبقري الحسان " صورة اخرى من تأليفه العلمي والادبي ، فقد جمع فيه مسائل شتى في علم الكلام والمنطق والطبيعي والاصول (٢) ، الى جانب فصول في البلاغة والنقد ، وأولى البديع عناية ملحوظة . قال " وقد تكلمت في كتابي المسمى بالعبقري الحسان على اقسام الصنعة البديعية نشرا ونظما ، وبينت ان كثيرا منها يتداخل ويقوم البعض من ذلك مقام البعض " (٣) .

وهو في " الفلك الدائر على المثل السائر " ناقد خبير بجيد الكلام ورديته ، وصاحب نظرات صائبة ، في تأويل المعنى نشرا ونظما وفي الرد على بعض المسائل التي عرض لها ابن الاثير .

وهو الى ذلك كله الفقيه الاصولي والمتكلم المعتزلي جدلا ونقاشا وحشا .

١ - في شرح النهج ٢ : ٢٨٣ - ٣٨٥ ، ٢ : ٤٠٧ آراء له في التجنيس والاعتراض . وفي ٢ : ١٥٠ - ١٥٢ ، ٢٤٥ منه يتعقب اقوال ابن الاثير في المقابلة والاستطراد . ويتحدث في ١ : ٧٢ - ٧٣ عن الاستعارة الحسنة والمستقبحة .

٢ - عقود الجمان ٤ : ٢١٣ ، وشرح النهج ٤ : ٥٧٥ ، وروضات الجنات ٥ : ٢٠

٣ - شرح النهج ٢ : ٣٨٦ ، ويبدو انه بحث في كتابه هذا الفرق بين الفصاحة والبلاغة فهو يقول في الفلك الدائر : ٨٧ " وقد ذكرنا نحن في كتاب العبقري الحسان اقوالا كثيرة في هذا الباب . ويشير في ١٢ من المصدر نفسه الى ذكره لوجوه اعراب الفاعل والمفعول والمبتدأ وتعليلها في الكتاب المذكور .

الذى ثبتت له مواقف وكتب مع بعض العلماء المعدودين مثل فخرالدين الرازى (١) .
لهذا لعنا لا نغالي حين نصفه بأنه مثال للعالم المسلم القيم على فنون
شتى من العلم والادب .

ج - الصفدى

وناقدنا الثالث وهو صلاح الدين ابو الصفا خليل بن ابيك بن عبد الله
الصفدى الشافعي ، ولد بمدينة صفد في فلسطين سنة ٦٩٦ / ١٢٩٦ (٢) .
وبها نشأ حتى بلغ مرحلة الشباب وحصل اثارة على بعض العلوم الاولية ، ويبعدو
انه كانت لديه بعض الميول والهوايات الفنية ، مما حدا به الى الاقبال على
تعلم الرسم حتى اتقنه ومهر فيه (٣) ، وأكب على الخط يدرس اصوله

- ١ - هو محمد بن عمر بن الحسين التيمي ، الفقيه الشافعي ، وصاحب المؤلفات
العديدة في تفسير القرآن والفقه وعلم الكلام والحكمة والطب . توفي بهراة
سنة ٦٠٦ (انظر في ترجمته : الوفيات ٤ : ٢٤٨ ، والوفيات ٤ : ٢٤٨ ،
وطبقات السبكي ٥ : ٢٢) وقد شرح ابن ابي الحديد كتابه " المحصل "
و " المحصول في علم الاصول " ونقضا حسب قول المصادر : نصره الثائر ،
٤٤ ، والفوات ١ : ٥١٩ ، وروضات الجنات ٥ : ٢٢
- ٢ - في البدر الطالع ١ : ٢٤٣ ان مولده سنة ٦٩٢ / ، وينفرد صاحب النجم
الزاهرة بنسبته الى الامير عز الدين ابيك (انظر النجم ١١ : ١٩) فيبدو
انه التبس عليه الاسمان (ابيك بن عبد الله) اذ كان لكل منهما ابن يدعى
ابراهيم (انظر الوافي ٥ : ٢٣٠)
- ٣ - انظر الدرر الكامنة ٢ : ١٧٦

وقواعده حتى اجاده اجادة تامة (١) ثم آنس من نفسه ميلا للادب ،
اخذ يتحول على مر الايام الى شغف شديد به (٢) ، فوقف على ما سمعت به
ظروف بلاده وبيئته من تراث ادبي ، مكفيا منه بالقرأة والمطالعة والتحصيل
دون اية محاولة للتأليف او الكتابة (٣) .

وكان لا بد لطبيعته الفنية والادبية ان تفتح على مظاهر الجمال والغرابة
وان تطلبها حيث وجدت ، وصفد مدينة غنية بالمناظر الطبيعية الجميلة ، فلا عجب
ان كما نرى الصفدى يكثر من التنزه في مزارعها وضواحيها مستطعما ومتأملا ،
وربما استرعت انتباهه حادثة غريبة او نادرة مضحكة ، فيتوقف عندها يستوعب احداثها
ويحفظ ملامساتها ، وقد افاد فيما بعد من امثال هذه المشاهدات الطريفة والغريبة
في تأليفه الادبي المتنوع (٤) .

وعلى هذا النسق استمرت حياة الصفدى في بلده الى ان بلغ العشرين من
عمره وكان والده قد اصر على بقاءه معه ، ورفض ان يأذن له بفارقته او

-
- ١ - انظر الدرر الكامنة ٢ : ١٧٦ ، وكان الصفدى يعد الخط الجميل من ميزات
الاديب ، فينبه الى ذلك في تراجمه بقوله " خطه ابهج من الازهار "
او " خطه ابهج من الحديقة الغناء " او " كتب الخط المنسوب الملبس
الى الغاية وكانت له قدرة على حكايات الخطوط ومناسباتها " وغير ذلك كثير
في تراجمه (انظر الوافي ١ : ٢٩٠ ، ٢٤٩ ، ٥ ، ٣٠٦ ، ٤ ، ٢٢١ وغيرها .
 - ٢ - انظر الدرر الكامنة ٢ : ١٧٦
 - ٣ - انظر الغيث المسجم ٢ : ٢٣٨
 - ٤ - من ذلك ما ذكره في نكت الهميان : ٨٦ من مشاهدته لاصي يحذر زوجته
من الوقوع في عقبة عين الورد (من ضواحي صفد) اثنا توجيهها الى حمام
(عين الزيتون)

مغادرة بلده (١) ، ولعله كان يشفق عليه من الترحل ومشاق الاقتراب قبل ان يشتد عوده . ثم أذن الوالد لابنه بالسفر ، فرحل الى دمشق طلبا للعلم والعمل ، ولا نعلم هل تولى عملا في دمشق عقب وصوله اليها أم اكتفى بطلب العلم ، ولكن الثابت انه التقى بابن تيمية (٢) عام ٧١٧ ، وجالسه واستمع اليه يدرس وناقشه في بعض مسائل النحو والتفسير ، وما لبث ان نزل عند رغبته فلازمه وواظب على حضور دروسه ما يقرب من سنتين ، وأفاد منه كثيرا (٣) . ثم انقطع الى الشعر فتمرس به فترة من الزمن ، وبدأ في النظم سنة ٧٢٠ حين كلفه بعضهم بنظم شيء في التذکر (٤) . ثم دفعه

-
- ١ - انظر الدرر ٢ : ١٧٦
 - ٢ - هو شيخ الاسلام احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ، المفسر الفقيه الحافظ المحدث ولد بحران سنة ٦٦١ ، وتوفي معتقلا بقلعة دمشق سنة ٧٢٨ (انظر في ترجمته ، الوافي ٧ : ١٥ ، والغيث المسجم ٢ : ١٩ ، والفوات ٢ : ٦٢ ، والدرر ١ : ١٤٤)
 - ٣ - يذكر الصفدي انه اثر تساؤلاته ومناقشته لابن تيمية في تفسير بعض الايات القرآنية وفي اقوال المتكلمين في الواجب والممكن ، طلب الشيخ ان يلازمه ليفيد منه وقال له ميديا اعجاب به بعقله المتسائل : " هذا ذهن جيد ولو لازمتني سنة لانتفعت " (انظر الوافي ٧ : ٣٠ - ٢١) ويعقب الصفدي على ما افاده منه فيقول : " وكنت احضر دروسه ويقع لي في اثنا كلامه فوائد لم اسمعها من غيره ولا وقعت عليها في كتاب " (الوافي ٧ : ٢٢)
 - ٤ - انظر الغيث المسجم ٢ : ٣٦

تعطشه للعلم والادب الى ارتياد آفاق جديدة . فأم حلب عام ٧٢٣ (١) .
حيث التقى بعدد من العلماء والادباء من بينهم كمال الدين الزملكاني (٢) .
ويبدو ان هذا كان على غرار الصفدى في الميل للتزهر والتريخ ، ومن ثم راحا
يتجولان معا في ظاهر المدينة وفي الحدائق ، والزملكاني ينشد بعضا من القصائد ،
فيصفي له رفيقه باعجاب وقد يدون ما يسمعه (٣) ليضيفه الى محفوظه
الشعرى .

غير ان اقامة الصفدى في حلب لم تستمر طويلا ، فغادرها في السنة
التالية الى صفد حيث تولى كتابة الدج (٤) . وأخذ يقضي اوقات فراغه
في مجالس العلم او الصوفية مستمعا ومناظرا ومناقشا ، ولم يلبث ان تعرف
الى بعض من كان يؤم تلك المجالس من رجال العلم والادب ، وكان من بينهم
شيخ صوفي يدعى شيخ حطين (٥) وقد نصح له الصفدى اشعاره ، وكتب له

-
- ١ - انظر الغيث المسجم ٢ : ٢٩ ، والوافي ٤ : ٢١٩
 - ٢ - هو قاضي القضاة محمد بن علي بن عبد الواحد الانصارى الدمشقي ، كبير
الشافعية في عصره . درس الفقه والعربية وسرع فيها وتخرج به كثير
من الطلبة . توفي ببليبيس في مصر سنة ٧٤٧ (انظر في ترجمته الوافي
٤ : ٢١٤ ، وطبقات السبكي ٥ : ٣٥١)
 - ٣ - الوافي ٤ : ٢١٩
 - ٤ - المصدر نفسه ٣ : ٦٤ ، والدرر ٢ : ١٧٦
 - ٥ - هو شمس الدين محمد بن ابي طالب الانصارى ، كان من الازكيا ، قادرا
على التصنيف في كل منه . كتب عدة مصنفات من بينها الفراسة وجمع
فيه شيئا من كلام علماء العرب وفلاسفتهم ، واقوال افلاطون وارسطو .
وكانت ولادته بصفد وفيها توفي سنة ٧٧٧ (ترجمته في الوافي ٣ : ١٦٣ ،
والدرر ٤ : ٧٧)

كتابه " الفراسة " ثم تناوله منه .

وظل الصفدى في بلده نحواً من سنتين ، تردد خلالها مرات عديدة على مدينة الخليل ، والتقى بالشيخ برهان الدين الجعبرى (١) ، واستمع اليه يقرأ ويحدث في المسجد الابراهيمي ، ولكن لم يتفق له ان يروى عنه شيئاً .

ثم انتقل كاتباً للدرج في القاهرة (٢) ، وشهد عاما ٧٢٨ ، ٧٢٩ .
جل التشريف المثر له ، فقد أتيح له لقاء عدد من كبار الشيوخ والدرس عليهم ، فأخذ الادب والحديث عن ابن سيد الناس (٣) ، ولازمه قرابة سنتين ، توثقت خلالهما عرى الصداقة بينهما ، واستمرت عبر المكاتبات الى حين وفاة الشيخ .

-
- ١ - هو ابراهيم بن عمر بن ابراهيم ، شيخ القرآ في بلده ، ولى مشيخة الخليل بضعا وأربعين سنة وكتب ما يقارب المائة من التصانيف . توفي بالخليل سنة ٧٣٢ . (انظر ترجمته في الوافي ٦ : ٧٣ ، وطبقات السبكي ٦ : ٨٢ والدرر ١ : ٥٥ ، والشذرات ٦ : ٩٧)
 - ٢ - انظر الدرر ٢ : ١٧٦
 - ٣ - هو فتح الدين محمد بن محمد بن احمد ، الامام الحافظ المحدث الاديب الناظم سمع وقرأ وترحل وتفرد بالحديث في وقته . وتوفي بالقاهرة سنة ٧٣٤ . (انظر في ترجمته الوافي ١ : ٢٨٩ - ٣٠٨ ، والفوات ٢ : ٣٤٤ ، وطبقات السبكي ٦ : ٢٩ ، والنجم ١ : ٣٠٣)

كما تفرس بالنحو على شيخ نحاة مصر آنذاك اثير الدين ابي حيان (١) ، وسمع الحديث والتفسير منه ، وقرأ عليه المقامات الحزبية ، بحضور جماعة من افاضل الديار المصرية ، فضلا عن بعض الدواوين الشعرية ، وسمع منه غير كتاب في اللغة والقراءات ، كما سمع منه ديوانه الشعري وكتبه ، وظل على صلة به ، يزوره كلما أم القاهرة ويكتبه اذا افترقا ، وحين سمع بوفاته رثاه بقصيدة جامعة نوه فيها بعلمه وأدبه وفنائه الجمّة (٢) .

وكذلك التقى بالطبيب الاديب شمس الدين الانصارى (٣) ، فأخذ عنه شيئا من العلم العقلية . ويحدثنا الصفدى عن هذه العلم فيقول " قرأت عليه قطعة جيدة من كتاب " اقليدس " في الهندسة فكان يحل لي فيه ما اقرأه عليه بلا كلفة ، وما سألت عن شيء في وقت من الاوقات عما يتعلق بالحكمة من المنطق

-
- ١ - هو محمد بن يوسف بن علي الخرناطي الجباني ، الحافظ الاديب الشاعر المحدث تولى تدريس التفسير بالقبة المنصورية والاقراء بجامع الاقصر بالقلعة . وله كثير من التصانيف في التفسير والقراءات واللغة والنحو والادب ، وله ديوان شعر كذلك توفي بالقاهرة سنة ٧٤٥ (انظر في ترجمته الوافي ٥ : ٢٦٧ - ٢٨١) ، ونكت الهميان ٢٨٠ - ٢٨٦ ، وطبقات السبكي ٦ : ٣١ ونفح الطيب (٥٣٥ ، ٢)
 - ٢ - انظر هذه القصيدة في نكت الهميان : ٢٨٤ - ٢٨٥ ، وكذلك نص رسالة كتبها الصفدى لشيخه يمدحه نظما ونثرا وفي ورق احمر .
 - ٣ - هو ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن ساعد السنجاري الاصل والمولد ، المصري الدار ، كان بارعا في علم الحكمة والرياضيات والطب والادب ، وله مصنفات عدة توفي بالقاهرة سنة ٧٤٩ (انظر في ترجمته الوافي ٢ : ٢٥ - ٢٧ ، والبدر الطالع ٢ : ٧٩)

والطبيعي والرياضي والالهي الا وأجاب بأحسن جواب " (١) .

وكان ابن جماعة (٢) من سمع منهم الصفي في القاهرة ايضا ، وأفاد منه شيئا من علم الكلام والمنطق والحديث والفقه ، ونال ثقته بحيث حصل على الاجازة منه ، على قرب العهد بينهما .

وفي أواخر عام ٧٢٩ ، عاد الصفي الى دمشق ثانية ، (٣) وربما كاتبا للدرج ايضا ، وكانت دمشق في هذه الاونة صنو القاهرة في احتضانها للعديد من شيوخ العلماء والادباء ، فوجد لديهم مبتغاه من الثقافة العلمية والادبية ، ويادر الى التعرف ببعضهم ، فلقى ابن نباته (٤) وأخذ عنه الادب ولازمه بعد ان ربطت بينهما صداقة متينة وكانا يلتقيان في الغداة والعشى بالعائط الشطلي من الجامع الاموي ويتذاكران ، وكثيرا ما كان يخطو لابن نباته انشاد مقطعات من قصائده ، فكان صديقه يصفي اليه باعجاب وشغف .

-
- ١ - الوافي ٢ : ٢٥
 - ٢ - هو بدرالدين محمد بن ابراهيم بن سعد الله ، قاضي القاضي ٢ والعالم بالحديث والفقه والاصول والتفسير . ولد بحماه سنة ٦٢١ ، وتوفي بالقاهرة سنة ٧٢٣ بعد ان اجاز للصفي سنة ٦٢٨ (انظر ترجمته في الوافي ٢ : ١٨ ، ونكتت الهيمان ٢٣٥ ، والبداية والنهاية ١٤ : ١٦٣)
 - ٣ - انظر الوافي ٤ : ٨٩
 - ٤ - هو جمال الدين محمد بن محمد بن محمد ، الفارقي الاصل المصري المولد ، كان ادبيا ناظما ناثرا ، اقام في دمشق ما يقرب من ثلاثين عاما وطوف بالشام . توفي بصر سنة ٧٦٨ (ترجمته واخباره مع الصفي في الوافي ١ : ٣١١ - ٣٢٩ وانظر الدرر ٤ : ٢١٦)

ولقي الصفدى شهاب الدين محمود (١) وأخذ عنه الادب ايضا وقرا عليه كتابه "حسن التوسل الى صناعة التوسل" كما سمع بعضا من اشعاره ودونها .

وأخذ التاريخ عن الذهبي (٢) بعد ان جالسه طويلا وتوثقت معرفته به ، واقتدى به في تاريخه وتراجمه فيها بعد .

وهكذا بات الصفدى تلميذا وصديقا لنخبة من الشيخ الافاضل ، ولكن من بين صداقاته العديدة تميزت صداقته لتاج الدين السبكي (٣) بالاخوة الصادقة والمودة الخالصة ، فلا عجب في ان يسارع السبكي الى مد يد العون

١ - هو ابو الثناء بن سليمان بن فهد الحلبي ثم الدمشقي ، كان اديبا وكاتبا حافظا . عمل في دواوين الانشاء بمصر والشام نحو من خمسين عاما ، وألف "حسن التوسل الى صناعة التوسل" على فرار "المثل السائر" توفي بدمشق سنة ٧٤٥ (ترجمته واخباره مع الصفدى في الوافي ٢ : ٤٠٥ والغيبث المسجم ١ : ١٨٠ ، ٢٤٥ ، ٢٨١ ، ٢ : ٦٠ ، ٤١٠ وانظر ترجمته ايضا في الفوات ٢ : ٥٦٤ والدرر ٥ : ٩٢)

٢ - هو الحافظ شمس الدين محمد احمد بن عثمان ، اتقن الحديث وألف كثيرا في التراجم والتاريخ . من مؤلفاته ، تاريخ الاسلام ، وطبقات الحفاظ ، والعبر اجاز للصفدى وتوفي سنة ٧٤٨ بدمشق (انظر ترجمته في الوافي ٢ : ١٦٢ ، ونكت الهميان : ٢٤١ ، وطبقات السبكي ٥ : ٢١٦ ، والدرر ٣ : ٤٢٦)

٣ - هو قاضي القضاة عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي الانصارى الشافعي المؤرخ الباحث ، صاحب "طبقات الشافعية الكبرى" توفي بدمشق سنة ٧٧١ . (انظر في ترجمته الدرر ٣ : ٣٩ والشذرات ٦ : ٢٢١)

الى صديقه كلما دعت الحاجة الى ذلك . ومن ثم كان وراء تولي الصفدى
كتابة الدستور في دمشق سنة ٧٣١ هـ وراء ترقية الاخير في مجال عمله
حين عمل على نقله كاتباً للسرف في حلب في السنة نفسها (١) . وجرياً
على عادة الصفدى في المبادرة الى لقاء اهل العلم والادب ، نراه متوجهاً
شمالي حلب حيث التقى بالشاعر صفي الدين الحلبي (٢) . وسمع منه شيئاً
من قصائده .

ويبدو ان طبيعة عمل الصفدى كانت تستدعي تنقله بين مصر والشام ،
لذا نجده يغادر حلب بعد فترة وجيزة الى القاهرة (٣) ففصله (٤)

-
- ١ - انظر الغيث المسج ١ : ١٩٥ ، وطبقات السبكي ٦ : ٩٤
 - ٢ - هو عبد العزيز بن سرايا بن علي ، الاديب الشاعر الشيعي ، ولد بالحلة
سنة ٦٧٣ وحصل الادب وأولع بنظم الشعر منذ ان شب عن الطوق . وكان
يتعاطى التجارة متقلداً بين الشام ومصر والعراق ، ومدح ملوك ديار بكر
بن وائل ، وسلاطين المماليك في مصر . من تصانيفه " الكافية البديعية
في المدائح النبوية " . توفي ببغداد سنة ٧٥٠ او ٧٥٣ (انظر في
ترجمته الدرر ٣ : ٤٧٩ ، والنجم الزاهرة ١٠ : ٢٢٨ ، والبدر الطالع
١ : ٣٥٨ ووردت اخباره مع الصفدى في الغيث المسج ١ : ١٩٥ ، ٢٠٧ ،
٢٦٦ ، ٣٥٩)
 - ٣ - انظر الغيث المسج ٢ : ٦٦ ، ٢٥٦
 - ٤ - انظر المصدر نفسه ٢ : ٤٠٨ ، وفي الوافي ١ : ٢٩٣ ، يصف الصفدى
حزنه لدى سماعه في صغد سنة ٧٣٤ بوفاة شيخه ابن سيد الناس ،
ويثبت مراثية له فيه .

فالقاهرة مرة اخرى (١) ، فرحمة مالك بن طوق (٢) ، وفي كل بلد ينتقل اليه ، كان يشارك في لقاءات ومجالس ادبية مع شيوخه او اصدقائه او ادباء ناشئين ، فيزداد فائدة واطلاعا .

وبعد سنوات اخرى من التنقل ، اكتسب الصفدى فيها قدرا وافرا من الثقافة والخبرة ، اذ تلقى كبار الشيخ كما ذكرنا ، وأمدته رحلاته العديدة واختلاطه بالناس على اختلاف طبقاتهم ، خبرة موسعة ومعرفة بمختلف العادات والتقاليد والطباع ، بعد هذا كله شعر الصفدى بحاجة ماسة الى الاستقرار . فعاد الى دمشق حيث تولى كتابة الدستور ووكالة بيت المال معا (٣) ، وكان ذلك بمساعدة صديقه السبكي . وظل في وظيفته هذه الى حين وفاته ، ولم يغادر دمشق اثنا ذلك الا لزيارة بلده صفد (٤) أو لتأدية فريضة الحج (٥) .

وقد اتاح له الاستقرار الفراغ ما شرع فيه من تصنيف ، فأتى كتابه

-
- ١ - في نكت الهميان : ١٦٤ يشير الصفدى الى مغادرته القاهرة سنة ٧٣٩ ، وانظر الوائلي ٣ : ٢٤٤
 - ٢ - انظر الوائلي ٤ : ١٦٣ ، والرحبة : بلد بين دمشق وحلب يقال ان مالك بن طوق احد ندماء الرشيد أسسها (انظر معجم البلدان ٣ : ٣٤)
 - ٣ - انظر طبقات السبكي ٦ : ٩٤
 - ٤ - يذكر الصفدى في الوائلي ١ : ٩٧ انه تمت قراءة السيرة النبوية من الوائلي سنة ٧٤٨ بحضور بعض اعيان صفد .
 - ٥ - ويذكر في المصدر نفسه ١ : ٩٨ ان السيرة النبوية قرئت عليه سنة ٧٥٧ في تبوك اثنا توجهه للحجاز ، وفي الحزم النبوي بالمدينة ايضا .

مؤلفه الجليل الوافي بالوفيات - سجل ثقافته وخبرته معا - فضلا عن عشرات التصانيف التي يزيد عدد مجلداتها عن المائتين (١) ومن بينها عدد من الكتب الادبية والنقدية ، في مقدمتها كتاب " نعمة الناصر على المثل السائر " و " جنان الجناس " (٢) و " الغيث المسجم في شرح لامية العجم " (٣) و " تمام المتن في شرح رسالة ابن زيدون " (٤) . ولكن اشتغاله بالمناصب وانهماكه في التأليف لم يعيقاه عن التصدي في اواخر حياته للتدريس في الجامع حيث سمع منه الذهبي وغيره من الشيخ (٥) .

-
- ١ - انظر الدرر ٢ : ١٧٦ ، والبداية والنهاية ١٤ : ٣٠٣ والشذرات ٦ : ٢٠١
 - ٢ - عقد المؤلف فيه فصلا لمناقشة تعريف عدد من علماء المربية للجناس وتفنيد اقوالهم فيه وكذلك لمناقشة رأى ابن الاثير في الجناس التام ورد ابن ابي الحديد عليه (انظر ١٥ - ١٩ من المصدر المذكور)
 - ٣ - في الصفحات ١ : ١٤٦ ، ١٧١ ، ٢٨٤ ، ٢٩٢ ، وايضا ٢ : ١٦٦ من الكتاب هذا ، يتعقب الصفدي آراء لابن الاثير وردت في " المثل السائر " ، وله تعليقات على نقد ابن جبار لشعر ابن سناء الطلك في ١ : ١٩٥ ، ٣٤٤ ، ٣٧٣ ، ٤٠٦ ، وآراء نقدية في صفحات متفرقة .
 - ٤ - تناول المؤلف بالنقد رسالة ابن زيدون في خمسة عشر مسألة ادرجها في نهاية الكتاب من ٣٩٩ - ٤٠٣
 - ٥ - انظر طبقات السبكي ٦ : ٩٤ ، والدرر ٢ : ١٧٦

ولما اجتاح الطاعون دمشق عام ٢٦٤ / ١٢٦٢ ، أصيب الصفدي به
وما لبث ان توفي ودفن بدمشق ، خلفا وراءه تراثا ادبيا وعلميا ضخما
على جانب كبير من الجودة والتميز كما تقول المصادر (١) . ورغم خآلة
ما وصل اليها من هذا التراث حتى الان ، الا انه يمكن الاستدلال به على
قيمة الصفدي العلمية والادبية ، وهو ما ادركه شيوخه حين اجازوه وأولوه كامل
ثقتهم في روايته عنهم وفي تقييم ما يرويه أو تصحيحه (٢) .

-
- ١ - انظر طبقات الشافعية ^{السلي} ٦ ، ٩٤ ، والبداية والنهاية ١٤ : ٣٠٣
والنجم ١١ : ١٩ وفتح السعادة ١ : ٢١
- ٢ - من ذلك ما كتبه إليه شيخه ابن سيد الناس في اجازته له " قد
أجزت لك ما رويته من انواع العلم وأذنت لك في اصلاح
ما تعثر عليه من الزلل والوهم ، والخلل الصادر عن غفلة اعترت النقل
أو وهلة اعترضت الفهم ، فيما يصدر عن قريحتي من النثر والنظم "
الواني ١ : ٣٠٨ .

القسم الاول

قضايا نقدية عامة

- ١ - علم البيان (بين البلاغي والنحوي)
- ٢ - الاديب بين الطبع والثقافة
- ٣ - العلاقة بين الشعر والنثر

علم البيان

يقول ابن الأثير في مقدمة المثل السائر " ان علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة اصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام " (١) فهو برأيه حجر الأساس في البناء الأدبي ، وبدونه لا يكتمل أى تأليف شعري او نثري ، كما أنه اشرف الفضائل واعلاها درجة ، ولولا ذلك لما اتصل الإعجاز به بدون غيره (٢) . وحين يكون لعلم البيان مثل هذه الخطورة في الميدان الأدبي ، فإن البحث فيه مفصلا أمر يستدعيه مقتضى الحال . وهو ما نهض له ابن الأثير ، فقد خص الفصل الأول من مقدمة كتابه للتعريف بموضوع علم البيان ، وتوضيح العلاقة بين البلاغي والنحوي من حيث تناولهما لأحواله اللفظية والمعنوية . قال " موضوع كل علم هو الشيء الذي يسأل فيه عن احواله التي تعرض لذاته ، وعلى هذا فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة ، وصاحبه يسأل عن احوالهما اللفظية والمعنوية . وهو والنحوي يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي وتلك دلالة عامة وصاحب البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصة ، والمراد بها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن وذلك امر وراء النحو والاعراب (٣) . ويتطرق من ذلك إلى تخطئة مفسري الأشعار في اقتصرهم^{اقتصرهم} على شرح المعنى وتفسير الكلمات

-
- ١ - المثل السائر ١ : ٣٥
 - ٢ - انظر المثل السائر ٤ : ٤
 - ٣ - المثل السائر ١ : ٣٩

اللغوية الواردة في النص " وتبيين مواضع الإعراب منها دون شرح ما تتضمنه من اسرار الفصاحة والبلاغة " (١) فهو لا يرى في أية قطعة شعرية او نثرية مجرد نص يحتاج في فهمه إلى تفكيك الفاظه وشرحها لغويا ونحويا ، وإنما لوحة فنية تقوم على عنصرين جماليين هما الفصاحة والبلاغة . ومن ثم فإنه يتطرق الى تفصيل القول فيهما ، فيذكر أنه رغم اكتثار العلماء قديمهم وحديثهم من القول في الفصاحة ، فإنه لم يجد من ذلك ما يمكن الأخذ به إلا القليل (٢) .

فغاية ما يقال " إن الفصاحة هي الظهور والبيان في اصل الوضع اللغوي ، يقال انصح الصبح إذا ظهر ، ثم انهم يقفون عند ذلك ولا يكشفون السر فيه " (٣) .

غير أنه لكثرة دراسته لهذا الموضوع وبحثه فيه ، توصل الى سره ، فوجد ان الفصاحة تختص باللفظ الواضح البين مألوف الاستعمال وحسن الوقع في الأذن ، ويوضح علاقة الصفات المذكورة ببعضها فيقول " إن الفصح من الألفاظ هو الظاهر البين ، وإنما كان ظاهرا بينا لأنه مألوف الاستعمال ، وإنما كان مألوف الاستعمال لكان حسنه ، وحسنه مدرك بالسمع ، والذي يدرك بالسمع إنما هو اللفظ فقط " (٤) فالسمع يلتقط اللفظ دون المعنى وهذا الأخير خارج عن

١ - المثل السائر ١ : ٤٠

٢ - قابل هذا بقول عبد القاهر الجرجاني في نفس الموضوع ص ٢٨ وما بعدها من " دلائل الإعجاز "

٣ - المثل السائر ١ : ١١٣

٤ - المصدر نفسه ١ : ١١٥

نطاق الفصاحة ، والدليل على ذلك ما نراه في الألفاظ الثلاثة-العززة والديمة
والبعاق ، فهي تدل على معنى واحد في وصف المطر ، ولكنها ليست جميعا فصحة ،
بل الفصح منها العززة والديمة لحسن وقعها في الأذن ما أشاع تداولهما
بين الناس ، بينما ينفر السمع من لفظة البعاق لقبحها وبالتالي يندر استعمالها
في الكلام المتداول ، فهي ليست فصحة ولو كان للمعنى علاقة بالفصاحة لما عريت
هذه اللفظة منها (١) .

وأما البلاغة : فهي في الوضع اللغوي من الوصول والانتها ، وقد
أطلقت على الكلام الذي " قد بلغ الأوصاف اللفظية والمعنوية " (٢) فهي بذلك
تشمل الألفاظ والمعاني ، وتفرق عن الفصاحة في كونها أخص منها ، لأن الكلام
البلغ لا يكون إلا فصحا ، بينما الفصح قد يكون بليغا وقد لا يكون ، والبلاغة
" لا تكون إلا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب ، فإن اللفظة الواحدة لا يطلق
عليها اسم البلاغة ويطلق عليها اسم الفصاحة إذ يوجد فيها الوصف المختص
بالفصاحة وهو الحسن ، وأما وصف البلاغة فلا يوجد فيها لخلوها من المعنى
الفيد الذي ينتظم انتظاما " (٣) .

فالفصاحة إذا من الأوصاف المميزة للفظ ، والبلاغة من أوصاف الصيغة
أو التركيب . وإن فرق ابن الأثير بين شقي علم البيان : الفصاحة والبلاغة ،

١ - انظر المثل السائر ١ : ١١٥
٢ - المثل السائر ١ : ١١٨ ، وتكرر هذه العبارة في الجامع الكبير : ٧٦
٣ - المصدر نفسه ١ : ١١٨ - ١١٩ ، وقريب منه ما اثبتته المؤلف في الجامع
الكبير : ٧٦

تطرق إلى البحث في أصل هذا العلم وكيفية استنباط ضروبه ، فذكر أن العرب الذين ألفوا الشعر والخطب إما أنهم ابتدعوا ما أتوا به من ضروب الفصاحة والبلاغة بالنظر وقضية العقل ، أو أخذوه بالاستقراء من كان قبلهم " (١) فإذا كان الوجه الأول فإنه يؤيده بقوة ، وأما إذا كان الثاني ، فإنه لا بد من تتبع هذا الاستقراء لمعرفة أول من فعل ذلك ، ولا بد أن يكون قد ابتدعه بعقله وفكره ، فعلى كلا الوجهين يعتبر هذا العلم عقليا لا نقليا .

ويقوده تقريره هذا إلى مقارنة الفصاحة والبلاغة بالنحو من حيث اعتماد العقل أو النقل في اخذهما . فيؤكد أن أقسام النحو أخذت بها بتقليد من واضعها ، ولا يدخل فيها العقل ، على النقيض من أبواب الفصاحة والبلاغة التي استنبطت بالعقل والذوق ، ورغم أنه قد أقيمت أدلة على أقسام النحو ، فإن تلك الأدلة لا تغير شيئا من حقيقة كون النحو نقليا لا عقليا ، فهذه الأدلة واهية لا تثبت على محك الجدل ، إذ من أين علم الذين أقاموها " أن الحكمة التي دعت الواضع إلى رفع الفاعل ونصب المفعول هي التي ذكروها " (٢) .

ويشير النظر من هذه الزاوية إلى النحويين وأدلتهم ابن أبي الحديد ، فيبادر إلى التساؤل عما إذا كان ابن الأثير ممن ينفون القياس في الشريعات أو يعترفون به ، فإن كان الأول فإنه يقدر أن يناقشه على طريقة الأصوليين من الشيعة وغيرهم ممن نفى القياس في الفقه ، " وإن كان يعترف بالقياس في

١ - المثل السائر ١ : ١١٦

٢ - المصدر نفسه : ١ : ١٢٠

الشرعيات فالقياس في الشرعيات كقياس في النحويات " (١) ثم يؤكد أن الحركة التي دعت الواضع إلى رفع الفاعل ونصب المفعول هي التي يذكرها النحاة ، ومن بينها إعطاء الفاعل إعراب المبتدأ للمشابهة بينهما في تكوين الجملة المفيدة ، فكلاهما ركن أساسي فيها . ويبدو أنه يفترض اعتراف ابن الأثير في القياس في الشرعيات ، إذ يربط بين ما ذكره من إعراب الفاعل وأحدى المسائل الشرعية ، وهي تختص بسقوط قضاء الصلاة عن الحائض وتعليل ذلك بالمشقة قياساً على سقوط قضاء الركعتين المنقطعتين من صلاة الظهر في السفر ، ويقول إن هذا " التعليل متفق بين القايسين على صحته " رغم أن الشارع لم يورد أي تعليل وإنما نص فقط على سقوط قضاء الصلاة (٢) . ولعل ابن أبي الحديد بتوضيحه هذا يقصد أنه إذا اعترف ابن الأثير بسلامة التعليل في المسألة المذكورة فلم لا يعترف بأدلة النحويين وتعليلاتهم كذلك . وكأنما يكتبني بهذا الرد على مجمل ما ذكره زميله من أن الفصاحة والبلاغة علم عقلي ، وأن النحو نقل ، فهو لا يعرض لذلك بشيء آخر .

وكما انتصر للنحاة ، ينتصر لمفسري الأشعار الفالين خطأهم زميله ، فيوضح أنهم وضعوا الشروح بقصد تفسير مراد الشاعر فقط " فكل ما يذكرونه من زيادة على ذلك مقصودة بالعرض لا بالذات ، وإذا كانت الحال هكذا لم يجوز أن يقال أنهم غلطوا لإخلالهم بنقد الشعر والكلام على ما فيه من علم الصناعة الشعرية

١ - الفلك الدائر ، ١٢

٢ - انظر الفلك الدائر ، ١٣

والبحث في فصاحته وبلاغته . لان ذلك فن مفرد لم يضعوا شروحهم له " (١)
ثم يشير الى أنهم يسيرون في ذلك على هدى من مفسري القرآن ، فهؤلاء لم
يذكروا في تفاسيرهم ما في القرآن من البهارة والفصاحة وأسرارها ، وعلى ذلك
إذا سحب ابن الأثير حكمه عليهم فخطأهم أيضا ، يكون مخطئا لكبار الصحابة
من فسروا القرآن أمثال علي بن أبي طالب ، وهو أمر فيه ما فيه من القباحة
والشناعة ، وإن لم يخطئهم فقد انتقض بذلك ما قاله عن مفسري الأشعار (٢) .

وكذلك يتخذ موقفا دفاعيا في رده على استهانة ابن الأثير بما قاله
البلاغيون في الفصاحة والبلاغة ، فينوه أن هناك من كتب كلاما جيدا في الموضوع
وأنه قد وقف لأبي محمد بن الخشاب (٣) " على رسالة في الفرق بين الفصاحة
والبلاغة أتى فيها بنوادر شريفة ، وقد ذكر أبو هلال العسكري في كتاب
الصناعتين كلاما جيدا في هذا المعنى " (٤) كما أنه هو نفسه قد أورد
أقوالا كثيرة في الموضوع نفسه في كتابه " العبقري الحسان " ويخرج الى التعميم
فيقول " وما أظن أن أحدا من يتصدى لكلام في هذا الفن إلا وقد قال

١ - انظر الفلك الدائر : ٣٩

٢ - المصدر نفسه : ٤٠

٣ - هو عبد الله بن أحمد بن الخشاب ، اعلم معاصريه بالعربية ، كان عارفا
بعلم الدين مطلعا على شيء من الفلسفة والحساب والهندسة . وقف
كتبه على اهل العلم قبل وفاته ببغداد سنة ٥٦٢ . (انظر ترجمته
في انباء الرواة ٢ : ١١ ، ومعجم الادباء ١٢ : ٤٧ ، ووفيات الاعيان
٣ : ١٠٢)

٤ - الفلك الدائر : ٨٦ (انظر قول العسكري في الفصاحة والبلاغة في الصناعتين :

٤ - ١٣)

قولا بالغا في هذه المسألة ، فما أعلم كيف يدعي هذا الرجل على الناس أنهم يقتصرون في هذا البحث بتينك اللفظتين لا غير (١) " فابن الأثير بنظره مدع في اقواله ، وقد حاول تفنيده ادعاءه باستشهاده ببعض من ألف في الموضوع المتقدم ، إلا أنه لا يورد شيئا مما قاله هؤلاء ، بحيث يتبين معه للقارى مدى ادعاء ابن الأثير ذاك .

ويعترض على ما ذكره ابن الأثير من اختصاص الفصاحة باللفظ مألوف الاستعمال لحسن وقوعه في السمع ، ولكنه بنى اعتراضه على نقل خاطئ لقول زميله إذ اثبتته على الوجه التالي : " قال المصنف : والفصاحة مختصة بالألفاظ دون المعاني لوجوه منها أن الفصحح هو المألوف الاستعمال ، وإنما كان مألوف الاستعمال لحسنه ، وحسنه يدرك بالسمع لأنه أمر عائد إلى تركيب حروفه ، وخفتها وتباعد مخارجها ، والذي يدرك بالسمع يكون صوتا يأتلف من مخارج الحروف ، وكل ما ليس بسموع لا يكون فصيحاً " (٢)

ففي معرض اعتراضه يقول إن هذا الكلام يحتمل أمرين : جعل هذا الكلام حدا للفصاحة ، أو تعليل اختصاص اللفظ دون المعنى بوصف الفصاحة . فإذا كان الاول فانه لا اعتراض لديه عليه لان لكل امرئ الحرية في قول ما يريد ، وتوضيح ما يعنيه به ، أما إذا كان الثاني - وهو ما يتبين من كلامه -

١ - الفلك الدائر : ٨٢

٢ - المصدر نفسه : ٨٩ ، وانظر قول ابن الأثير المنقول عنه ص ١١٥

من المثل السائر ج ١

فليس هذا بمناع لوجود دلالة أخرى على تسمية المعنى فصيحاً ، وإن ما استدل به على اختصاص الفصاحة باللفظ لا يوجب " انتفاً الأدلة على إطلاق هذه اللفظة على المعنى " (١) وينهي اعتراضه بسؤال ابن الأثير عن السبب الذي من أجله نفى وصف المعنى بالفصاحة في ضوء استدلاله السابق ، وكأنه يلجأ إلى عدم اقتناعه بأقوال ابن الأثير تلك .

ثم يناقشه فيما ذكره من أن المعنى اللغوي للفظه فصيح هو فاعل الإبانة عن المعنى ، (٢) فيوضح أن معنى الفصيح ذر الفصاحة لا فاعل الفصاحة ، مثل جميل وصبيح في معنى ذر الجمال والصباحة لا فاعلها ، ويذهب إلى القول أن هذا " الموضع من المواضع التي أشبهت على هذا الرجل ، وذلك أن أفعال الطبائع نحو فصيح وظريف وشريف وكريم إنما تعطى الاتصاف بتلك الصفة فقط ، ولا تعطى معنى الفاعلية أصلاً ولا تدل على المؤثر " (٣)

ويستدرك فيفترض أن ابن الأثير كان مصيباً في جعل فصيح بمعنى فاعل الانصاح عن المعنى ، وعلى ذلك يكون المعنى الواضح هو الذي فعل الفهم والإدراك في نفس السامع وأوضحه له فانكشف له فحواه ومغزاه ، فبهذا الاعتبار يسمى المعنى فصيحاً أيضاً .

-
- ١ - الفلك الدائر : ١٠
 - ٢ - انظر ما أورده ابن الأثير في هذا المعنى ص ١١٦ من المثل السائر ج ١ ويقول في الجامع الكبير : ٨١ " والفصيح هو الظاهر وهو اسم فاعل من فصح مطرد في بابه يقال : كرم فهو كريم ، وظرف فهو ظريف وشرف فهو شريف ، وفصح الكلام فهو فصيح " .
 - ٣ - الفلك الدائر : ١١

ويعود فيلغي هذا الافتراض بتقريره أن النزاع برمته في هذه المسألة لفظي محض ، فقد اصطلح أهل اللغة والاستعمال على أن الفصاحة خاصة باللفظ والبلاغة بالمعاني وهو ما جعلهم يطلقون على البيغاء صفة الفصيح لا البليغ ، لأنه يلفظ دون إدراك لمعنى ما ينطق به ، ومن ثم يستحسن الاقتداء بعلماء اللغة فيما ذهبوا إليه (١) . ومنه يتضح أن ابن أبي الحديد يحنئ الأخذ بأقوال السلف ، وإن كان يلجأ إلى حاكم العقل والمنطق في مناقشة بعض المسائل .

وأما الصفدى فإنه يقف وقفة طويلة عند ما ذكره ابن الأثير من الفروق بين الفصاحة والبلاغة ، وكذلك من أن علم البيان عقلي لا نقلي ، ففي المسألة الأولى يرى أن الفارقين اللذين ذكرهما زميله هما في واقع الأمر واحد ، فإن قوله كل كلام فصيح بليغ ولا ينحس يعني أنه " إذا قلنا قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ، فإن هذا الكلام بليغ باعتبار أن معناه بلخ في صوغ تركيبه إلى حد له توفية بتمام المراد ، وفصيح باعتبار بيان مفرداته وحسنها وعذوبتها في السمع " (٢) فإذا انفردت كلماته كل على حدة فإنها لا توصف إلا بالفصاحة فقط ، ومن ثم فإن الفصاحة أهم لوجودها في حالتها الأفراد والتركيب ، والبلاغة أخص لوجودها في المركب فقط . وهذا المعنى بعينه - يقول الصفدى - إنه وجد في فارق ابن الأثير

١ - انظر الفلك الدائر ، ٩١ - ٩٢

٢ - نصره الثائر ، ٧٧

الثاني حيث قال " إن البلاغة لا تكمن إلا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب " (١) .

وإذ أظهر أن الفارقين واحد ، يتقدم بشرحه الخاص للفريق بين الفصاحة والبلاغة، فيقول إن كلا منهما خاص وعام معا ، فالبلاغة عامة لأنها تتناول الفصيح وغير الفصيح وهو الغريب الوحشي ، وهي خاصة لأنها لا تتناول إلا الألفاظ المركبة ، وأما الفصاحة فهي عامة لتناولها العذب الحسن من الألفاظ ، مفردة ومركبة ، ويبدو خصوصها في تناولها العذب المستعمل فقط . وبذلك يثبت " أن بين البلاغة والفصاحة عموما من وجه وخصوصا من وجه ، ومثل هذا لا يتنبه له ابن الأثير " (٢) . ويكلام آخر يذهب الصفدي إلى أن فرقة المتقدم بين الفصاحة والبلاغة هو المميز بينهما، وأن هذا غاب عن بال ابن الأثير فأورد فريقين معناهما واحد ، فحقيقة الفريقين تتمثل فيما أورده كل منهما معا .

ثم ينتقل إلى مناقشة ابن الأثير فيما ذكره من أن علم البيان عقلي لا نقلي ، فيتساءل عما يعنيه زميله " بعلم البيان " : إن كان قصده ما اصطاح عليه البلاغيون من أنه أحد أقسام علم البلاغة الذي يطلق على أبواب الحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة والكناية، فإن من المجاز ما هو لغوي كالصلاة ، وحقيقتها اللغوية الدعاء ، ومثل هذا المجاز تتوقف معرفته على حقيقته " وتلك الحقيقة لا تعرف إلا بالثقل لا بالعقل ، والمتوقف على معرفة الشيء متوقف على ذلك الشيء " (٣)

١ - انظر فصحة الثائر : ٧٧ ، وفي عبارة ابن الأثير المذكورة انظر ص ١١٨ من

المثل السائر ج ١ .

٢ - المصدر نفسه : ٧٨

٣ - نصره الثائر : ٧٩

وأما الاستعارة فقد اختلف علماء البيان فيها ، ولكن ذهب جمهورهم إلى أنها مجاز لغوي أيضا ، ودليلهم على ذلك أنه في مثل عبارة - عندى أسد شاكي السلاح - لا يفهم أن المراد بالأسد هو الرجل الشجاع إلا بالنقل (١) .

وكذلك من أقسام الكناية ما يتوقف فهمه على النقل ، مثل قول الشاعر :

ويدهي الشرب في كأس وفي قدح وأم عنقرة العبسي تكفيه

فهنا لا يمكن فهم علاقة أم عنقرة بالبيت إلا إذا عرف أن اسمها كان زبيبة ، وقد كنى الشاعر عن الزبيبة بأم عنقرة ، وعلى ذلك فالكناية هنا تتوقف معرفتها على النقل " وليس للعقل هنا مجال ، فقد اتضح أن بعض البيان نقلي " (٢) .

ويضي الصفدي في مناقشته ، فيقول إنه إذا أراد ابن الأثير بالبيان علم المعاني الذي يبحث في خواص تركيب الكلام من أحوال الإسناد الخبري ، والفصل والإيجاز والوصل والإطناب وأحوال الطلب ، فإن أكثر أبوابه تتوقف معرفته على النقل ، فالمسند والمسند إليه هما المبتدأ والخبر ، وأحوال كل منهما متنوعة ، ولكنها مذكورة بالتفصيل في النحو ، وقد ذكر ابن الأثير أن النحو نقلي لا عقلي ، فعلى ذلك تكون أبواب المعاني هذه نقلية أيضا . ويثبت من ذلك كله " أن البيان ليس بعقلي كما ادعاه ابن الأثير بل بعضه

١ - نصره الثائر : ٢٩

٢ - المصدر نفسه : ٨١

عقلي وبعضه نقلي " (١) وقد توصل الصفدي إلى إثباته هذا بالحجة والبرهان؛ ولا يعنينا هنا تقييم ما ذكره لأن هذا خارج عن موضوع هذه الدراسة .

ويقف الصفدي أخيرا عند قول ابن الأثير المتقدم في أدلة النحويين "واللهي تكلفه النحاة من التعليقات واه لا يثبت على محك النظر" (٢) ، فيذكر أن ابن أبي الحديد قد أجابه عن ذلك، ولكن اجابته لم تكن وافية وتحتاج إلى بعض إضافات؛ منها لفت نظر ابن الأثير إلى أن عددا من أئمة النحو واللغة مثل أبي علي الفارسي، وابن جنبي، والسيرافي وابن الأنباري، قد أوردوا في مؤلفاتهم تعليقات حسنة لأحكام النحو، وإن كان في البعض تسامح لا التزامهم بتعليل كل ما ورد عن العرب (٣) ، غير أنهم لا يختلفون في ذلك عن الفقهاء، فإن أكثر تعليقاتهم لما ورد في أحكام الشرع الشريف في غاية الحسن والقوة، وفي بعض ذلك تسامح . كمن أراد تعليل بعض مناسك الحج فإنه ليس بقوي قوة غيره، والغزالي في "الاحياء" تكلم في هذا كلاما حسنا (٤) .

وكما استشهد بتفاوت تعليقات الفقهاء من حيث الحسن والقوة، يستشهد الصفدي الآن بتعليقات المتكلمين أيضا، فإن أدلتهم لا تبلغ القوة فيما أتوا به

١ - نصره الثائر : ٨١

٢ - المثل السائر ١ : ١٢٠

٣ - انظر نصره الثائر : ٨٢

٤ - نصره الثائر : ٨٤

من حدوث العالم والنفس وإثبات الوجدانية وعدم الجهة ، فقد تجي* معهم مسائل قليلة أدلتها عليلا لا تبلغ في القطع والجزم والزام الخصم مبلغ تلك " (١) .

وهو يعني أنه إذا لم يعد ضعف بعض تعليقات الفقهاء* والمتكلمين سببا يوجب الطعن فيهم ، فلم لا يكون ذلك شأن النحويين أيضا ؟ على أن تفاوت التعليل في القوة يوجد في معظم العلم ، لا في النحو فحسب ، ولولا هذا التفاوت ما وقع خلاف بين البصريين والكوفيين في النحو ، ولا بين أصحاب المذاهب والفروع .

وينتهي الصفدي من ذلك كله إلى التساؤل بنهم " إن كانت تعليقات النواة وأهمية لم تثبت على محك النظر ، فماذا الذي يثبت على محك النظر من تعليقات أصحاب المعاني . وهي ما هي ؟ أكثر ما يستندون إليه شبه خطابية لا يقطع بها ، ولو عورضوا فيها وقفوا في الكثير منها " (٢) . وفي هذا إعلاء من شأن تعليقات النواة مقابل الوضع من تعليقات أصحاب المعاني ، ولعل الصفدي يلح بذلك إلى ابن الأثير نفسه باعتباره منهم ، لا سيما وأنه يختم كلامه بالجزم بأن " الكثير من الحجج النحوية أقوى وأقطع إلى الجزم من الكثير من حجج أرباب المعاني " (٣) .

يتبين ما تقدم أن ابن الأثير يؤكد على أهمية علم البيان في التأليف الأدبي ، وأنه في تناوله لشقي هذا العلم - الفصاحة والبلاغة - يركز على

١ - نصره الثائر : ٨٤

٢ - المصدر نفسه : ٨٦

٣ - المصدر نفسه : ٨٧

بضعة مسائل مثل : ما يختص به كل من الفصاحة والبلاغة ، والفرق بينهما ، وكيف استنبطت شروطهما ، واختلافهما في طريقة الاستنباط عن أقسام النحو ، مع إبداء رأيه في جهود كل من البلاغيين في التعريف بالفصاحة ، وفسري الأشعار في شروحهم ، وفي الأدلة التي أقامها النحويون لتعليل أقسام النحو .

وقد ناقضه في معظم هذه المسائل كل من ابن أبي الحديد والصفدي ، وأوردا عليه الحجج والبراهين لإظهار خطأه فيما ارتآه . ولم يوافقاه سوى في مسألة واحدة هي اختصاص الفصاحة باللفظ ، والبلاغة بالصيغة أو التركيب .

بين الطبع والثقافة

بيدي ابن الأثير اهتماما ملحوظا بقضية الابداع لدى الكاتب ، فهو يرى ان ذلك يعتمد على عاملين رئيسيين ، احدهما اصيل وهو الطبع ، والآخر مكتسب وهو الثقافة ورغم تأكيده على انه " ينبغي للكاتب ان يتعلق بكل فن " (١) فان الطبع عنده في المقام الاول ، فهو الاصل ، والثقافة الفرع الذي يستمد منه فعاليته وحيويته ، وعلاقة الأصل والفرع احدهما بالآخر مثل " النار الكامنة في الزناد والحديده التي يقدح بها " فاذا خلا الزناد من النار لم يعد للحديده تلك ، اية فائدة او تأثير ، وعلى هذا فان الطبع هو الذي يجعل من مادة الاديب مادة حية مشرقة ، ومن دونه تكون باهتة باردة مكلفة .

ويفرق ابن الأثير بين المتكلف والمطبوع فيقول : " اما المتكلف فهو الذي يأتي بالفكرة والروية وذلك ان يُلْغِي الخاطر في طلبه ويبعث على تتبعه واقتصاص اثره ، وغير المتكلف يأتي مستريحا من ذلك كله ، وهو ان يكون الشاعر في نظم قصيدته او الخطيب او الكاتب في انشاء خطبته او كتابته ، فبينما هو كذلك ان سح له نوع من هذه الانواع بالاتفاق لا بالسعي والطلب " (٢) فهو بما ذكره انما يشير الى ما يوفره الطبع على الاديب من التعب والعناء في عملية الخلق الفني لأدبه .

١ - المثل السائر ١ ، ٤٠ ويقول في الجامع الكبير : ٦ " فمثل الطبع كمثل النار الكامنة في الزناد ، ومثل الآلات كمثل الحراق والحديده التي يقدح بها ، الا ترى انه اذا لم يكن في الزناد نار لا يفيد ذلك الحراق ولا تلك الحديده شيئا ؟ "

ثم يأتي بنماذج على المطبوع والمتكلف في النظم - دون تعليل؛ او توضيح لاعتباره لها مطبوعة او متكلفة، فيورد في المطبوع قول ابي تمام :

خدم العلا فخدمته وهي التي لا تخدم الاقوام ما لم تخدم
فاذا ارتقى في قلة من سوود قالت له الاخرى بلغت تقدم (١)

وقول ابي نواس :

اترك الاطلاع لا تعباً بها انها من كل بؤس دانية
وانعت الراح على تحريمها انما دنياك دار فانية
من عقار من رآها قال لسي صيدت الشمس لنا في آنية (٢)

وقول الفرزدق :

منع الحياة من الرجال ونفعها حدق قلبها النساء مراض
وكان افئدة الرجال اذا رآوا حدق النساء لنبلها اغراض (٣)

ويورد في المتكلف قول ابي العلا المعري :

بنت عن الدنيا ولا بنت لسي فيها ولا عرس ولا أخت
وقد تحملت من الوزر ما تعجز ان تحمله البخت
ان مدحوني ساءني مدحهم وخلصت اني في الشرى سخت (٤)

١ - المثل السائر ١ : ٣٧٢

٢ - المصدر نفسه ١ : ٣٧٤

٣ - المصدر نفسه ١ : ٣٧١

٤ - المصدر نفسه ١ : ٣٦٨

ولا يفوته ان يبين صنوف الطباع وآثارها في العلم عامة وفي علم البيان خاصة فيقول ان الناس متفاوتون في الطباع ؛ فمنهم من يميل به طبعه الى اتقان الصعب من العلم دون سهولها ، ومنهم من يتيح له طبعه اجادة لوز معين فسي النشر او غرض خاص في الشعر ، دون بقية الالوان والاغراض ، بل ان منهم من اذا حاول الخوض في موضوع يتنافى وطبعه ، اما ان يعجز عن معالجته كلية ، أو يأتي بما هو دون مستواه المعروف عنه ، ومثال ذلك عجز الحريري عن كتابة رسالة وهو صاحب المقامات المشهورة وكذلك التفاوت الكبير بين اسلوبه في المقامات وفي انشائه الاخرى . فللحريري " كتابه اشياء خارجة عن المقامات واذا وقف عليها أقسم ان قائل هذه ليس قائل هذه ، لما بينهما من التفاوت البعيد " (١)

واذ يفرض ابن الاثير من بسط وجهة نظره فيما يختص بالطبع وأثره ينتقل الى ما يصقل هذا الطبع ويجلوه ، وهو انواع الثقافة اللازمة لكل من الشاعر والخطيب والكاتب ، فيذكر انواعا ثمانية هي : معرفة النحو والصرف ، واللغة ، وامثال العرب وایامهم ووقائعهم ، والاطلاع على مؤلفات من تقدم في النظم والنثر وحفظ كثير منها ، ومعرفة الاحكام السلطانية ، وحفظ القرآن والتدرب باستعماله ، وحفظ مختار من الاخبار النبوية والتدرب باستعمالها ايضا ، ومعرفة علم العروض والقوافي وهذا خاص بالناظم فقط (٢)

ويستثنى من الصرف معرفة الادغام ، فيرى انه لا حاجة للكاتب اليها ، وان

١ - المثل السائر ١ : ٤٢ ،

٢ - انظر المصدر نفسه ١ : ٤٢ - ٤٤ . ويتكرر ذكر هذه الانواع في الجامع

احتاجها الشاعر احيانا للضرورة الشعرية (١) ، على ان الاثني لا تلزمهما -
فيما يرى - معرفة المنطق ولا فلسفة اليونان وخاصة ما جاء منها في حصر المعاني
والقواعد الشعرية . ويدلل على رأيه هذا بقوله ان هناك عددا من الشعراء أو
الكتاب لم يتصلوا بالثقافة اليونانية ، ومنهم ابو نواس وابو تمام والبحثري والمتنبي ،
وعبد الحميد (٢) ، وابن العميد (٣) والصابي ، ومع ذلك فقد اجاد كل منهم
في ميدانه ، ويمعن في تدليله فيقول انه اذا زعم احد ان هؤلاء قد اطلعوا

-
- ١ - انظر المثل السائر ١ : ٥٦ وقابل هذا بقوله في الجامع الكبير : ١٢ - ١٣
" وأما الادغام وقولك ان المؤلف لا يحتاج الى معرفته ، واستدلالك عليه بما
ذكرته من المثل ، فان ذلك لا يسلم الا في هذه الصورة وما يجري مجراها . . .
فيجب حينئذ على مؤلف الكلام بهذا الدليل معرفة الادغام ليسلم من اعتراض
متعرض أو تعنت متعنت " .
 - ٢ - عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى بني عامر ، عالم بالادب من ائمة الكتاب ،
يضرب به المثل في البلاغة ، كتب لمروان بن محمد آخر خلفاء بني امية . وقتل
بمصر سنة ١٣٢ . (انظر الفهرست ١١٧ ، والبيان والتبيين ٩١٣ ، ووفيات
الاعيان ٣ : ٢٨٨)
 - ٣ - محمد بن بن العميد الحسين بن محمد ، ابو الفضل الكاتب المعروف ، كان
عالما في الادب والترسل والفلسفة والنجوم ، ووزر لركن الدولة البويهية ، ت بالرى
وقيل ببغداد سنة ٣٦٠ ، (انظر وفيات الاعيان ٥ : ١٠٣ ، واليتمية ٣ : ١٥٨ ،
والشذرات ٣ : ٣١)

على كتب حكما اليونان ، فان هذا الزعم باطل به (١) ، فهو لا يعرف ولم يعلم شيئا مما جاء في هذه الكتب ، ومع هذا فان منه الكتابي من رسائل ومكاتبات يشهد بأن " صاحب هذا العلم من النظم والنثر بنجوة من ذلك كله ، وانه لا يحتاج اليه ابدأ " (٢) فهو يقيم من نفسه وثقافته دليلا على استغناء الكاتب في مهنته عن المنطق والفلسفة ، وكأنني به يحاول بتدليله هذا تغطية ضعف تحصيله العلمي ، وقلة تنوع ثقافته ، لا سيما وانه يعود فيصر على وجوب معرفة الكاتب لكل فن " وبالجملة فان صاحب هذه الصداقة يحتاج الى التشبث بكل فن من الفنون ، حتى انه يحتاج الى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء ، والماشطة عند جلوة العروس ، والى ما يقوله المنادى في السوق على السلعة " (٣) فهو في ذكره لهذه الفنون يبعد كل البعد عن الانواع الرفيعة من العلم والثقافة ، ويفضل الاخذ من ثقافة جمهور الناس وعامتهم . ويتراءى لي نوع من الاضطراب في تعليقه لضرورة معرفة الفنون التي ذكرها ، فهو يذهب الى ان الكاتب " مؤهل لان يهيم في كل واد فيحتاج ان يتعلق بكل فن " (٤) .

فاذا كان الاديب يلزمه معرفة كل فن كما يقول ، فلم انكر عليه معرفة الادغام او الفلسفة والمنطق ؟ وانكاره هذا كان وراء انبراه كل من ابن ابي الحديد والصفدي للرد عليه في هذه القضية . فهما يتفقان معه في وجوب توفر الطبع فسي

١ - المثل السائر ٢ : ٤

٢ - المصدر نفسه ٢ : ٥

٣ - المصدر نفسه ١ : ٧٣ ، وله مثل هذا القول في الوشي المرقوم : ٤ - ٥

٤ - المثل السائر ١ : ٧٣

الأديب ولا ينقصان ما قاله بهذا الشأن ، ويتفق الصغدي معه في ضرورة صقل الطبع
بألوان معينة من الثقافة ، غير أن الاثنين يعارضانه بل ويخطئانه في ما ذهب
إليه من عدم حاجة الأديب للثقافة اليونانية .

وينفرد ابن أبي الحديد بالرد على بعض آراء ابن الأثير في النحو والصرف
واللغة ، التي وردت في تفصيله لأنواع المعرفة الثمانية المتقدم ذكرها ، ويرفض
ابن أبي الحديد اعتبار معرفة تلك الأنواع الثمانية ضرورة لا غنى عنها للكاتب أو الشاعر ،
ويرى أن " هذا الكلام من أجهات الكتاب وتزويقاتهم ، ولا يعول عليه محصل " (١)
ويدعم رأيه بالاستشهاد بعدم معرفة بعض مشاهير خطباء العرب في الجاهلية و صدر
الإسلام لتلك الفنون ، فيذكر منهم سحبان وائل (٢) وقس بن ساعدة (٣) .

١ - الفلك الدائر : ٤٠

٢ - سحبان بن زفر بن اياس الوائلي من باهله ، خطيب يضرب به المثل في
الفصاحة والبلاغة ، اشتهر في الجاهلية وأدرك الإسلام . له شعر قليل .
ت سنة ٥٤ . (انظر بلوغ الأرب للأكوسي ٣ : ١٥٦ ، والإصابة ترجمة
٣٦٥٨ ، وخزانة الأدب ٤ : ٢٤٧)

٣ - هو أحد حكماء العرب ومن كبار خطبائهم في الجاهلية ، وكان أسقف نجران ،
ويقال انه أول من قال (اما بعد) في كلامه . توفي نحو ٢٣ ق . ه .
(انظر الاغانى ١٥ : ١٢ ، وبلوغ الأرب ٣ : ١٥٥ ، وخزانة الادب ٢ : ٨٩)

ومعاوية بن ابي سفيان ، وزيايد بن ابيه (١) .

وهو عندما يرفض تلك الفنون ، فإنما يرفضها كضرورة لا غنى عنها ، ولكنه لا يعترض عليها كعنصر ثانوي متم ، يمكن الاستغناء عنه في حالة توفر الطبع والدراسة . يقول : " وان ارادوا انها متمه ومكمله فهذا حق ، ولكن عدمها لا يقتضي سلب الكتابة اسمها " (٢) .

ويضي في معارضته فيقف عندما ذهب اليه ابن الأثير في باب الصرف من

ان كل خماسي يحذف منه حرف في التصغير سواء كان الحرف زائدا ام اصيلا ^{بأن من} اللفظية الخماسية لا يحذف منها شيء في التصغير مثل حيمرا تصغير حمرا ، واجيغال تصغير اجمال وقد يحدث في البعض نوع من التصرف لا الحذف في مثل موزين تصغير ميزان (٣) وفي ذلك برهنة على خطأ ابن الاثير في اطلاقه الحكم في تصغير الخماسي

ويقف عند ما ذكره ابن الاثير - اثنا - تدليله على وجوب معرفة النحو والصرف

من انه لم يجد احدا من الشعراء المفلقين سلم من لحن يدل على جهله مواقع الاعراب او من خطأ في تصريف كلمة ، فأبو نواس المعددود " في طبقات العلماء مع تقدمه في

١ - هو احد الخطباء المشهورين في العرب بالفصاحة والدهاء ورجاحة العقل ، كتب لابي موسى الاشعري في البصرة ، وكان عمر بن الخطاب معجبا بعقله وفصاحته في خطبه ورسائله . وقد الحقه معاوية بنسبه عندما تولى الخلافة . وله كتاب في المثالب . توفي سنة ٥٣ هـ (انظر تاريخ الطبري ٧ : ١٥٨ وما قبلها ، وانظر خزنة الادب ٤ : ٣٢٢) .

٢ - الفلك الدائر : ٤١

٣ - انظر المصدر نفسه : ٤٢

طبقات الشعراء قد غلط فيما لا يغلط مثله فيه " (١) عندما استعمل لفظي
صغرى وكبرى بالتكبر ودون اضافة وهما على صيغة فعلى أفعل ، في البيت :

كان صغرى وكبرى من فواتها حصبا در على ارض من الذهب
فمثل هذا الاستعمال غير جائز في النحو (٢) . كما انه لحن في البيت :

يا خير من كان ومن يكون الا النبي الطاهر الميمون
نرفع كلمة النبي وهي استثناء من الموجب (٣) ، وكان الواجب نصبها طبقا للقاعدة
النحوية المختصة بها .

وقد اخطأ ابو تمام في تصريف الفعل (اطادت) في البيت :

بالقائم الثامن المستخلف اطادت قواعد الملك ممتدا لها الطول
فهذا الفعل مشتق من وطد ، فينبغي ان تكون صيغة افتعل منه اتطدت ، قياسا
على " وعد يعد اتعد " (٤)

وكذلك المتنبى فانه خرج عن قواعد التنبيه والجمع ، عندما اورد لفظة ركبات
بدلا من ركبتين في البيت :

وتكرمت ركباتها عن مسبرك تقعان فيه وليس مسكا اذ فرا (٥)

-
- ١ - المثل السائر ١ : ٥٢
 - ٢ - انظر المصدر نفسه
 - ٣ - انظر المصدر نفسه ١ : ٥٤
 - ٤ - انظر المصدر نفسه ١ : ٥٣
 - ٥ - " المصدر نفسه ١ : ٥٥

ففي وقوف ابن أبي الحديد من هذا كله ، يحاول تبرير استعمال الشعراء
أولا وتخرجها على وجه ، يبدو وكأنهم فيه على صواب لا خطأ كما نص ابن الأثير .
فيقول ان ابا نواس لم يكن بدعة عندما اتى بلفظتي كبرى وصغرى على الوجه المتقدم
ذكره ، فقد ورد مثل هذا الاستعمال في بعض الأراجيز والقوائد مثل :

لا تبخلن بدينا وهي مقبلة

وكذلك : وان دعوت الى جلى ومكرمه يوما سراة كرام الناس فادعينا (١)

على انه يمكن تخرج هاتين اللفظتين على مذهب بعض الكوفيين ، فيجعل
الحرف (من) زائدا في شطر البيت - كأن صغرى وكبرى من فواقعها - ومن ثم
تصح كبرى وصغرى مضافتين ، فلا يكون ابو نواس مخطئا من الناحية النحوية . (٢)

واما بيته الثاني فيحتمل فيه وجهان ، احدهما ان تكون لفظة النبي
مبتدا وخبرها محذوف ، وذلك على مذهب الكوفيين ايضا ، او ان تكون منصوبة

١ - انظر الفلك الدائر ، ٤٣

٢ - " المصدر نفسه : ٤٤ ، وأورد الصفدي في الغيث المسج ١ ، ٢٨٤
نقاش ابن الأثير وأبني أبي الحديد حول بيت أبي نواس هذا وهب قائلا
" قال النحاة : وربما استعملوا هذه الصفات استعمال الأسماء فحذفوا الألف
واللام نحو قولهم " دنيا " لأنها وان كانت صفة فقد قلبت وصارت بمنزلة
الأسماء غير الصفات ومثل " جلى " وأنشدوا الأبيات التي أنشدها ابن أبي
الحديد " .

على الاستثناء من الموجب وتنصب لفظه الطاهر كعت للاستثناء ، وترفع لفظه الميمون على انها خبر حذف مبتدؤه المقدر (لهم) وذلك طبقا لقاعدة جواز قطع النعت المتعدد (١) . وفي كلا الوجهين هذين ينتفي وجود اللحن في البيت وتكون صيغته النحوية سليمة .

وعلى مذهب الكوفيين ايضا يبرهن ابن ابي الحديد ان ابا تام كان مصيبا في استعماله لفظه (اطادت) ، فهو يستشهد بكلام لأبي زكريا الفراء يقول فيه " قال العلماء : اشتقاق اطادت من الطود ، وهو الجهل بني على انتعلت من ذلك ، فقيل اطادت لينا غير مهموز لان تا" الافتعال اذا كان بعدها تا" قلبت الفا ، ثم همزها في الشعر للضرورة " (٢) ويرى ان استعمال التثني (ركباتها) بالجمع لا بالتثنية هو من باب الاتساع في اللغة وليس خطأ ، وقد ورد في كلام العرب ما يدل على ذلك مثل قولهم : امرأة ذات اوراك بدلا من وركين ، وكما جاء " في حكم داود وسليمان في الغنم التي نفشت في الحرث : وكنا لحكمهم شاهدين " (٣)

ثم يعرض لما رآه ابن الأثير من عدم حاجة الكاتب الى الادغام والثقافة اليونانية، فينقض قوله مؤكدا ان الكاتب والشاعر سوا في الحاجة الى معرفة الادغام ، فقد يخطئ الكاتب في بعض مسائل الادغام اذا لم يكن متمكنا منه ، كما حدث مع

١ - انظر الفلك الدائر : ٤٦

٢ - " المصدر نفسه : ٤٥

٣ - الفلك الدائر : ٤٦

ابن الاثير الذي اخطأ في فك ادغام المحاققة في عبارته " وانما قصدنا ان يكون الكتاب الذي يكتب في هذا المعنى مشتقاً على الترفيب والترهيب والمسامحة في موضع والمحاققة في موضع " (١) فكك الادغام هنا غير جائز وان كان الهدف منه الموازنة في اللفظ بين المسامحة والمحاققة ، (٢) وعلى ذلك فان الكاتب بحاجة الى معرفة الادغام جيداً . وموقف ابن ابي الحديد هذا لا يخلو من تناقض ، فقد اعترض بادي الأمر على مجمل الوان الثقافة التي ذكرها ابن الاثير ، ورأى انها غير ضرورية للاديب ، وهنا يعترض على استثناء الادغام منها ، وهو وان كان في اعتراضه هذا يبدو رقيقاً هيناً فانه في اعتراضه على عدم الحاجة الى الثقافة البيزنائية وما ذكره حكماً اليونان لا يدارى ثورته ارعنفة .

انه يتم ابن الاثير بالانسياق وراء شدة اعتداده بنفسه بحيث يتصدى للاعتراض على ما جاء في اقواله وهو غير مدرك لمرادهم بها ، فيضع نفسه في مأزق حرج ، وفي ذلك يقول : " هذه جنابة عجب الانسان بنفسه ، وذلك ان الانسان يدعو فرط اعتقاده في نفسه وشغفه بما يخطر له ان يتكلم على قم لا يعرف اقوالهم ، ولا يحصل معنى اصطلاحاتهم ، فضلا عن ان يبلغ مرتبتهم ويترقى في درجتهم الى ان ينقض عليهم فيقع هذا الموقع " (٣) وفي هذا القول تلميح ايضا الى وجود نوع من السطحية في تفكير ابن الاثير فضلا عن شدة اعجابها الذاتي .

ثم يحاول ابن ابي الحديد توضيح مراد حكماً اليونان بالشعر ، وينتهي الى

١ - المثل السائر ١ : ٧١

٢ - انظر الفلك الدائر : ٥٦

٣ - الفلك الدائر : ١١١

القول ان ابن الأثير يكون وأهما اذا اعتقد ان الشاعر وقت النظم يحتاج الى استعمال مقدمتين ونتيجة (١) وفي ذلك مغالطة لما ذكره زميله . فعبارة ابن الأثير في هذا الشأن هي " ولو انه فكر اولا في المقدمتين والنتيجة . ثم اتى بنظم او نثر بعد ذلك لما اتى بشي" ينتفع به . ولطال الخطب عليه " (٢) وهو يقصد التنبه على عدم جدوى القواعد المنطقية في الشعر . الا ان ظن ابن ابي الحديد ذهب الى النقيض من ذلك . على انه في كل ما اورده لم يأت بدليل واضح على احتياج الاديب للثقافة اليونانية . فجا" رده في هامش الموضوع لا صلبه .

ويتناول الصفي الموضوع نفسه من زاوية اخرى . فهو لا يطعن في ابن الأثير او في مدى ادراكه للثقافة اليونانية . وانما يعترض لإطلاقه الحكم بأن من ذكرهم من الشعراء والكتاب لم يتصلوا بتلك الثقافة . ولا يسعه إلا التساؤل عن المصدر الذي اعتمده ابن الأثير في حكمه ذاك فيقول له " من اين علمت هذا حتى تحكم به ؟ " (٣) على انه لا يعارضه فيما ذكره عن نفسه من عدم معرفته لعلم اليونان . لأنه هو نفسه المرجع الوحيد في ذلك . فالناس اخبر بنفوسهم .

ثم يأخذ في التدليل على اتصال بعض من ذكرهم ابن الأثير بالثقافة القديمة . فيقول ان أبا نواس كان يشتغل بالفقه حتى قيل فيه انه فقيه غلب عليه الشعر

١ - الفلك الدائر : ١٦٢

٢ - المثل السائر : ٢ : ٥

٣ - نصره الثائر : ١٨٤

" ومع ذلك فلم يظهر عنه فقه كما لم يظهر عنه اشتغال بعلم اليونان ، وعدم
الدليل لا يدل على عدم المدلول . " (١) ثم ان بعض اشعاره توحى بمعرفته
للفلسفة والمنطق ، فهو يقول في بعضها :

أباح العراقي النبيذ وشربه	وقال حرامان المدامه والسكر
وقال الحجازى الشرايان واحدا	فحلّت لنا من بين قوليهما الخمر
سأخذ من قوليهما طرفيهما	واشربها لا فارق الوازر السؤر

وفي هذه الابيات دليل على احاطته بالمنطق ، فقد استنتج تحليل الخمر من
مقدمتي كلام الفقيه العراقي والحجازى . (٢)

واما المتبى فإن في قوله " انا وابو تمام حكيمان ، وإنما الشاعر البحترى "
وغيرها من الاقوال ما يشير الى اطلاعه على تلك العلم . وقد قال في مدح
ابن العميد :

من مبلغ الأعراب أنى بعدها	جالست رسطاليس والإسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه	متبديا متلكا متحضرا (٣)

فهذان البيتان يدلان بوضوح على اطلاع المتبى على أقوال حكما اليونان من
ناحية ، وعلى كون ابن العميد متمرسا في تلك العلم من ناحية اخرى ، اذ يبيعد

١ - نصره الثائر : ١٨٤

٢ - انظر المصدر نفسه : ١٨٥

٣ - انظر نصره الثائر : ١٨٦

ان يصدر مثل هذا الوصف عن شاعر في مدوحه دون ادراك تام منه لما يعنيه بذلك .

ثم إن في ترجمة ابن خلكان لابن العميد ما يزيد وصف المتنبي السابق له فقد جاء في هذه الترجمة " وكان متوسعا في علم الفلسفة والنجم " (١)

ومن هذا كله يتبين خطأ ابن الأثير في اعتقاده ان من ذكرهم من الكتاب والشعراء لم يكن لهم علاقة بثقافة اليونان او علومهم ، وهو ما عناء الصفيدي في استشهاده المتقدم ، وان كان هذا لا يحدد موقفه من تلك القضية ، على انه يحيل القارئ على ابن ابي الحديد منوها انه قد اجاب ابن الأثير " عن دعواه بأن الانسان لا يحتاج الى المنطق ولا الى هذه العلوم . " (٢)

واما من حيث تأييده لابن الأثير فيما ارده من الوان الثقافة الضرورية للكتاب فانه لا يقتصر على التأييد فحسب ، وإنما يضيف الى ما ذكر فنونا اخرى مثل الاثار المنقولة عن الصحابة ، وما دار بين الخلفاء الراشدين وعالمهم ، وتواضع الخلفاء والوزراء والكتاب ، وحفظ ما امكن من التاريخ واسماء الرجال والحساب ، والوقوف على ترسل الكتاب ومراعاة ما قصدوه في كل فن ، من التهاني والتعازي والفتوحات ووصايا تقاليدهم وتواضعهم واوامرهم ونواهيهم فيها ، وافتتاحات ادعيتهم في كل ما يتشعب من طرق الكتابة وكيفية البدايات والمراجعات في الهدايا والشفاعات والأوصاف .

١ - نصره الثائر : ١٨٦

٢ - المصدر نفسه : ١٨٧

وكتب الاخوان وما يجرى هذا المجرى . " (١)

وبعد ان يورد هذه التفصيلات يعود فيجملها بقوله " وهى الجملة فالكاتب يحتاج الى كل شي " وفي ذلك تأكيد لما ذهب اليه ابن الاثير من ان الاديب " يحتاج الى التشبث بكل فن من الفنون . " (٢)

ويختم الصفدى نقاشه لمجمل القضية بتأكيده ثانية على ضرورة الثقافة للاديب حتى لو اقتصر في ذلك على معرفة اشياء عامة من العلم او الفن كمصطلحه فقط . (٣) ومنه يتضح انه وابن الاثير متفقان تماما في موقفهما من الثقافة واهميتها في خلق الناظم او الناثر ، وهما في ذلك يختلفان عن زميلهما الثالث ابن ابي الحديد الذى لا يجد للثقافة المذكورة مثل هذه الأهمية ، فهي عنده ليست ضرورة حتمية ، وإنما عامل ثانوى متم يمكن الاستغناء عنه اذا توفر الطبع في الأديب . ووجوب توفر الطبع الاصيل او الفطرة السليمة في كل من الشاعر والكاتب والخطيب هو من المسائل القليلة التي لا يختلف بشأنها النقاد الثلاثة اولا ، بل يتم التسليم بها دون نقاش او جدل ، ولكن وجهات نظرهم تتباين فيما يختص بالثقافة عامة وبالبيروانية خاصة ، وقد مر معنا كيف عارض كل من ابن ابي الحديد والصفدى زميلهما الثالث في آرائه حول ما يلزم من تلك الثقافة للاديب وما لا يلزم

١ - نصره الناثر ، ٦٤

٢ = المثل الناثر ١ ، ٧٣

٣ - انظر نصره الناثر ، ٦٥

ولعل لهذا الاختلاف علاقة بنوع ثقافة كل منهم وطبعه ، فابن الاثير - باعترافه - لم يتصل بالثقافة اليونانية ، ولا ندري هل اثر جهله بها في موقفه منها، أم انه كان بطبعه ينفر من العلم العقلية ، فهو ينطلق في حكمه بعدم الحاجة الى المنطق والفلسفة من تجربته الذاتية .

واما ابن الحديد المعتزلي فانه لا بد وان يكون على معرفة وثيقة بتلك الثقافة، فهو أيضا ينطلق من تجربته الذاتية في بسط وجهة نظره منها وفي نقاشه عامة .

ويبدو ان الصفدى في عدم تحديده لموقف صريح من الثقافة المذكورة ، سواء لها أو عليها ، كان بين عاملين : تقديره لها بسبب اطلاعه على بعض جوانبها ، وطبيعته الفنية التي يصعب انسجامها مع اجواء العلم المنطقية ، فجاؤه رده مقتصرًا على الاستدلال على معرفة بعض الشعراء والكتاب للثقافة اليونانية .

العلاقة بين الشعر والنثر

غير متوقع من ابن الأثير الناقد المعتد بفنه الكتابي ألا يتطرق الى البحث في العلاقة بين الشعر والنثر ، لذا نراه يفرد فصلا في آخر " المثل السائر " يتحدث فيه عن كل من الصناعتين معبرا بوضوح عن تفضيله للنثر ، مؤكدا ان المنشور أشرف من المنظم لاسباب منها : أ - ان اعجاز القرآن متصل به ، وهذا سبب ديني له اهميته . ب - وكذلك ان اسباب النظم اكثر ، ولذا فقد زاد المجيدون من الشعراء على المجيدون من الكتاب " وما ذلك الا لوعورة المسلك في النثر وبعده مناله " (١) ج - ويتعلق السبب الثالث بوظيفة كل من النثر والشعر في الحياة ، ففيما يختص بالنثر فانه لا غنى للدولة عن كاتب يدون أخبارها ويخلد ذكراها وينشر مآثرها ، وعلى ذلك فان الكاتب هو " احد دعامتي الدولة ، فإن كل دولة لا تقم الا على دعامتين من السيف والقلم ، وربما لا يفتر الملك في ملكه الى السيف إلا مرة او مرتين ، واما القلم فانه يفتر إليه على الأيام وكثيرا ما يستغنى به عن السيف " (٢)

-
- ١ - المثل السائر ٢ : ٥ . ذكر المؤلف في الجامع الكبير : ٢٣ - ٢٥ اسبابا اربعة في تفضيل المنشور على المنظم ثلاثة منها كما وردت هنا ، والرابع في ان النثر ينوب مناب النظم ولا يعكس . وقابل هذا بما اورده المرزوقي في شرح الحماسة ١ : ١٦ - ١٧ من تفضيل النثر على النظم .
- ٢ - المثل السائر ٢ : ٥ .

فالقلم - أى الكاتب - سلاح الدولة الدائم في الحرب أو في السلم . وفي هذا القول تكريس للكاتب وتعزيز لمكانته .

ويورد ابن الأثير كلاماً لأبي اسحاق الصابي في الفرق بين الشعر والنثر ، ذكر فيه ان الغموض في المعنى من مميزات الشعر الجيد ، كما ان الوضوح والبيان من سمات جيد النثر ، ومن ثم فإن احسن النثر ما وضع معناه وفهم لاول وهلة ، وفضل الشعر ما لم يتوصل الى فهمه إلا بعد تأمل وتفكير ، وقال كذلك ان الشعر بني على حدود مفررة واوزان مقدرة وقد " فصلت ابياته فكان كل بيت منها قائماً بذاته وغير محتاج الى غيره الا ما جاء على وجه التضمين وهو عيب " (١) فبات من اللازم ان يتم المعنى في البيت الواحد ، ومن هنا كان لا بد للمعنى ان يدق ويلطف . وأما النثر فانه مبني على اسس اخرى اذ انه كلام واحد لا يتجزأ ولا ينقسم إلا فقرات طويلة ، مما يتيح المجال لتوضيح المعنى فيه .

ثم يميز بين الشاعر والكاتب من حيث الموضوع او الغرض الذي يطرقه كل منهما . فذكر ان اغراض اولهما لا تتعدى وصف الديار والاثار والشوق والحنين والغزل والطلب والاستجداء والمدح والهجاء ، وأما مواضع الكاتب فلا تكون الا في سداد ثغر أو اصلاح فساد أو تحريض على جهاد أو مناقشة قضية أو التهنئة أو التعزية

١ - المثل السائر ٤ : ٧ ، قال صاحب شرح الحامسة ١ : ١٨ " ان مبني الشعر قائم على اوزان مقدرة وحدود مقسمة ، وعلى ان يقوم كل بيت بنفسه غير مختفر الى غيره الا ما يكون مضمناً بأخيه وهو عيب فيه " .

وما شابه ذلك . (١) فهما مختلفان تماما في اغراضهما فضلا عن الأسلوب وطريقة
التناول .

وينتهي ابن الاثير من ايراد اقوال الصابي هذه ليبدأ في مناقشته ،
فبيدأ أولا تعجبه " من مثل ذلك الرجل الموصوف بذلاقة اللسان وبلاغة
البيان كيف يصدر عنه هذا القول الناكب عن الصواب الذي هو في باب ونهى النظر
في باب " (٢) . ثم يأخذ في تنفيذ اقواله ، فيرى ان جعل الصابي من الوضوح
والغموض مقياسا لجودة كل من النثر والشعر ، دعوى لا مستند لها " بل الأحسن
في الأمرين معا انما هو الوضوح والبيان " (٣) بحيث تكون الألفاظ المفردة -
دون التركيب او الصيغة - مفهومة في النثر والنظم على حد سواء .

ولا يقبل بتعليل الصابي غموض الشعر بالتفيد بالبيت الواحد " فهب ان الشعر
كان كل بيت منه قائما بذاته ، فلم كان مع ذلك غامضا ، وهب أن الكلام المنثور كان
واحدا لا يتجزأ فلم كان واضحا " (٤) ويذهب إلى أن المسجوع في النثر كل فقرة
منه بمقام بيت من الشعر فيقال عن حكم الصابي في ذلك .

١ - انظر المثل السائر ٤ : ٧ وذكر المرزوقي في شرح الحماسة ١ : ٢٠ قولا

مشابها في اغراض النثر والناظم .

٢ - المثل السائر ٤ : ٨

٣ - المصدر نفسه

٤ - المصدر نفسه .

ويرى ان ما ذكره هذا من اختلاف اغراض الشاعر والكاتب " تحكم محض لا يستند الى شبهة فضلا عن بينة " (١) فهو لا يجد فرقا بينهما في هذا المقام . لانهما قد يكتبان في نفس الأغراض ، ويستشهد برسائل الاخوانيات ويؤكد انها بمنزلة الغزل والنسيب من الشعر . كما يستشهد بأقوال بعض الشعراء في اغراض يعتبرها الصابي خاصة بالنثر ومنها قول المتنبى في الإصلاح بين كافور الإخشيدي ومولاه ومطلع القصيدة :

حسم الصلح ما انتهته الأعادى .

وكذلك قصيدة البحترى في غزو البحر ومطلعها : ألم تر تغليس الربيع المبكر (٢) فكل الفروق التي ذكرها الصابي لا يأخذ منها ابن الاثير وهي عنده ليست بشيء خاصة وان لديه فروقه الثلاثة التالية : اختلاف النظم عن النثر في الصيغة . وكذلك اختلاف لغة الشعر عن النثر ، فان هناك من الألفاظ ما يسوغ استعمالها نظما وتعاب نثرا مثل قول ابي تمام :

هي العرمس الوجناء وابن ملهمة وجأش على ما يحدث الدهر خافض (٣)
وقول المتنبى :

ومهمه جهته على قدمي تعجز عنه العرامس الذليل (٤)

١ - المثل السائر ٤ : ٨

٢ - انظر المثل السائر ٤ : ١٠

٣ - العرمس : الناقة الصلبة الشديدة ، وايضا الصخرة . (لسان العرب ٦ : ١٣٨ مادة عرمس)

٤ - انظر المثل السائر ٤ : ١١

فقد ساغ في الشعر استعمال لفظي " العرس والمهمة " ، ولكن لو ادرجتا في رسالة او خطبة لعد استعمالهما معييا ، وعلى هذا فان " كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنثور من الالفاظ يسوغ استعماله في الكلام المنظم ، وليس كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنظم يسوغ في الكلام المنثور " (١) .

واخيرا هناك فرق يتعلق بمقدرة الكاتب والشاعر على الإجابة - كل في ميدانه - اذا طال موضوه وتعددت معانيه ، فيرى ابن الأثير ان الشاعر اذا نظم مائتي بيت او اكثر لا يجيد إلا في جز قليل ، في حين ان الكاتب قد يكتب رسالة تشتمل على اكثر من ثلاثمائة سطر ، ويجيد فيها كلها ، وهو يؤكد هذا الامر لانه رآه وسمعه وقاله . (٢) اي انه يجعل من تجربته الذاتية دليلا على صحة فرقه هذا ، وبذلك يحول دون منازعة أحد له في قوله .

ولا يقف عند حدود الفروق بين النثر والشعر في اللغة العربية فحسب ، بل يتعداه الى فرق محتمل بين الشعر العربي والشعر الفارسي عامة ، فيشير الى افضلية الثاني على الاول من حيث استعماله على نوع من القوائد الطويلة ذات الاغراض المتعددة والمتنوعة والتي هي من نوع الملاحم . يقول " وعلى هذا فإني وجدت العجم يفضلون العرب في هذه النكتة المشار اليها ، فان شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من اوله الى آخره شعرا ، وهو شرح قصص واحوال ، ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم ، كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بشاه نامه .

١ - المثل السائر ١ : ٢٢٩

٢ - انظر المثل السائر ١٤ ، ١١

وهو ستون الف بيت من الشعر ، يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القسم ،
وقد اجمع القوم وفصحاؤهم على انه ليس في لغتهم افصح منه ، وهذا لا يوجد
في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها واغراضها ، وعلى ان لغة العجم
بالنسبة اليها كقطرة من بحر " (١) . وهذا الفرق ينهي ابن الاثير كلامه
في القضية كلها .

ويقتصر الصفدى على هذا الفرق وحده - دون بقية اقوال ابن الاثير -

في نقاشه للقضية ، غير انه ينطلق من العبارة الاخيرة للقول السابق بعد ان اثبتها
في كتابه على هذا النحو " وعلى ان لغة العرب بالنسبة اليها كقطرة من بحر " (٢)
ولا ندري هل كان ذلك مقصودا ليسوغ له الرد على ابن الاثير واتهامه بالشعوبية ،
ام بسبب خطأ في نقل العبارة من المثل السائر ، مهما كان الامر ، فان الصفدى
يتهم زميله صراحة بالشعوبية ، (٣) ثم ينفي خلو اللسان العربي من هذا النوع
من القوائد ، ودليله على ذلك ان بعضهم قد نظم تاريخ السعوى نظماً
في غاية الحسن ، كما نظم البعض كتاب " كليله ودمنه " في عشرة الاف بيت ،
ثم ان ابن الهبارية (٤) نظم كتابه " الصادح والباغم " في الف بيت .

١ - المثل السائر ٤ : ١٢

٢ - نصره التائر : ٣٨٤

٣ - انظر في ذلك نصره التائر : ٣٨٥

٤ - هو محمد بن محمد صالح العباس ، كان شاعراً مجيداً كثيراً الهجاء ت بكرمان سنة ٥٠٦

وقد نظم " الصادح والباغم " على غرار كليله ودمنه ، وهو اراجيز نظمها في

عشر سنين ويقول ابن خلكان انه " اجاد فيه كل الاجادة " (انظر في ذلك وفيما

الاعيان ٤ : ٤٥٣ وانظر ترجمته في الزاوي ١ : ١٣٠ ، والنجم ٥ : ٢١ ، والشذرات ٤ : ٢٤)

" كل بيت منها قصر مشيد ، ونكتة ما عليها في الحسن مزيد ، يشتمل على الحكايات والنوادر والأمثال والحكم وكلها في غاية الفصاحة والبلاغة ليس فيها لو ولا ليت . " (١)
وأما من نظم الف بيت وما دونه فكثير جدا ، في القراءات والنحو والعروض والفقهاء والطب وغيره من العلم ، وهو باستدلاله هذا إنما يحاول دحض قول ابن الأثير في أن اللغة العربية تخلو من القصائد الطويلة جدا ذات الأغراض المتعددة (الملاحم) هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى اثبات أن الشاعر قد يجيد القول في جميع منظومته ، وأن تعدت هذه الثلاثمائة بيت .

وينتقل الصفدي من الجزء إلى الكل ، فيحاول اثبات الأفضلية المطلقة للغة العربية عامة على الفارسية ، وذلك باستشهاده بتفضيل العجم أنفسهم للغة العربية ، فيأتي على ذكر بعض أئمة اللغة العربية وعلمائها مثل أبي علي الفارسي ، وأبي حاتم السجستاني ، والزمخشري من أحبوا اللغة العربية واجتهدوا في تحصيلها وألفوا فيها المؤلفات القيمة " ومن المستحيل أن يكون هؤلاء القم اجتهدوا هذا الاجتهاد في العربية وألفوا مدة العمر ، وهي ما لا يخلف من شيء هو دون غيره . والاولى بهم وبكل عاقل الاشتغال بالأحسن والأصح والأبلغ والأحكم ، ولو علم هؤلاء القم أن اللغة الأعجمية لها أفعال التفضيل ، ما عرجوا على العربية إلا ريثما عرفوها ثم عاجوا إلى لغتهم . " (٢) وهو يقصد أن يقول أن اللغة العربية بخصائصها الفريدة ومميزاتها التي تتفوق بها على غيرها ، جعلت هؤلاء الأعاجم يهملون

١ - نصره الثائر : ٣٨٦

٢ - نصره الثائر : ٣٨٧

لغتهم الاصلية ويتكونها الى لغة دخيلة على عنصرهم وعرقهم ، فأحبوها وتبحروا فيها بحيث ارتفع شأنهم فيها لا في لغتهم؛ بل ان منهم من صرح بأفضلية الجنس العربي على الاعجمي ، فهذا هو الزمخشري يقول : " فرقك بين الرُّبِّب والعجم^٨ " ويقول " العرب نبيح صلب المعاجم ، والغرب مثل للاعاجم " (١)
وبذلك ينقل الصفدى التفضيل من اللغة الى العرق فيرى ان العرب يفضلون العجم لا باللغة فحسب وانما بالعرق والعنصر ايضا ، وهو خلاصة رده على ما فهمه من شعوبية ابن الاثير .

على انه يلتفت ثانية الى شاهنامة الفردوسي فيصح بأن الحكم على جميع ابياتها بختي الفصاحة والبلاغة دعوى تفتقر الى برهان ، اذ ليس في قدرة احد من البشر في اية لغة كانت ان " يأتي بستين الف كلمة أو ستة آلاف كلمة تكون في غاية الفصاحة في الألفاظ والبلاغة في المعنى حتى انها لا تعاب بوجه . " (٢)

ويختتم نقاشه برد مختصر يسوغ فيه قلة توفر الجيد من الشعر في القصائد العربية الطوال ، فيقول ان الشاعر - في ذلك - ملزم بالتميز بالوزن والقافية ،

١ - نصره الثائر : ٣٨٢ ، والنبيح : شجر من اشجار الجبال تتخذ منه القسي .
انظر (لسان العرب ٨ : ٣٤٥ ، مادة نبيح) . والغرب : من الشجر . والغرب
بسكون الراء : شجرة ضخمة شاكّة خضراء حجازية . انظر (لسان العرب ١ : ٦٤٤
مادة غرب) .

٢ - نصره الثائر : ٣٨٨

وهو ما يضيِّق عليه كثيرا في تناوله لموضوعه ، ولو فرض على الناثر ان يأتي برسالة طويلة مسجوعة على حرف واحد ، لكان هو والشاعر سوا من حيث عدم القدرة على الاجادة في الكثير . (١)

ومعه يبدو ان الصفدى لا يفضل ايا من الناظم او الناثر على الآخر ، او ان ذلك لا يعنيه كثيرا ، في ضوء ما بدا منه من الاهتمام في رده على ما اعتقده من شعوبية ابن الاثير . وهي مسألة لا يبدو لها اثر في نقاش زميله ابن ابي الحديد لبعض ما ورد من آراء في القضية كلها . فيمكن التكهن بأنه لم يحدث مع ابن ابي الحديد اى التباس في فهم عبارة ابن الاثير الاخيرة في حديثه عن الشاهنامه وتبعتها الأدبية ، ومن ثم فإنه لا يقف عندها كما وقف الصفدى ، وانما يختار الوقوف عندما ارده ابن الاثير في ابي اسحاق الصابي واقواله في الفرق بين الشعر والنثر ، فيستهل نقاشه بالتهكم على ابن الاثير لكونه اعاد طرح سؤال الصابي بعد ان اتى على ذكر جواب الاخير عليه . يقول : " ان من اطرف الاشياء انك تحكي جواب ابي اسحاق من اوله الى آخره ، ثم تعيد السؤال الأول بعينه الذى قد حكى جوابه ومن يحكى ذلك الجواب لا يحسن له ان يقول في الاعتراض عليه : وهب ان الشعر كان كل بيت قائما بذاته ، فلم كان مع ذلك قائما . وهب ان الكلام المنثور كان واحدا لا يتجزأ فلم كان مع ذلك واضحا ؟ " (٢) ثم يتطوع لإعادة الجواب بطريقته الخاصة ، فيذكر ان وحدة البيت

١ - نصره الناثر : ٣١٠

٢ - الفلك الدائر : ٣٠٤

قيدت الشاعر واضطرته الى ايراد المعنى تاما ضمن حدود البيت الواحد ، ولكنه قد تزيد معاني البيت عن الفاظه وقد تنقص ، والمستحسن زيادتها ، فاذا كانت المعاني كثيرة وكانت الألفاظ لا تنفي بالتعبير عنها " احتج بالضرورة الى ان يكون الشعر يتضمن ضروريا من الإشارة وانواعا من الابداعات والتشبيهات فكان فيه غموض " (١) وهذا الغموض له شروط معينة منها ألا يكون معقدا " كأشكال اقليدس والهجسطي والكلام في الجزئ ، بل ان يكون بحيث اذا ورد على الازهان بلغت منه معاني غير مبتذلة ، وحكما غير مطروقة ، فلا يجوز ان يكون الشعر الذي يتضمن الركن ليس بالاحسن " (٢) وكلام آخر يرى ابن ابي الحديد ان افضل الشعر هو المعنوي الذي يتضمن حكمة ، لانه يتطلب اعمال الفكر لا في صياغته فحسب وانما في فهمه كذلك ، وهو ما ينطبق على شعر ابي تمام ومن لف لفه . ثم يؤكد اخيرا ان غموض مثل هذا الشعر المعنوي هو ما عناه الصابي بكلامه (٣) .

ولا يقبل ان يجعل السجع نظيرا للشعر ، فيسرى عليه حكم الأخير من حيث الغموض والوضوح لان السجع ليس شرطا في النثر بينما الوزن المحدد شرط في الشعر ، حتى ولو التزم السجع في القطعة النثرية ، فان للكاتب حرية التصرف بالوزن بحيث يمكنه المراوحة بين السجعات طولا وقصرا ، واما القصيدة " فان صاحبها عند ابتدائها

١ - الفلك الدائر : ٢٠٥

٢ - المصدر نفسه

٣ - انظر المصدر نفسه : ٢٠٦

يلتزم عروضاً واحدة ولو زاد فيها حرفاً واحداً أو نقصه لكان شعره فاسداً " (١) من هنا كان السجع مباحاً للشعر فلا يصح أن يشملها حكم واحد .

ثم ينتقل إلى الفروق بين الشعر والنثر ، فيوضح أن ما ذكره الصابي في هذا المقام لم يقصد به توضيح الفرق بينهما ، بل تحليل كون الشاعر دون الكاتب منزلة وأن تحليله هذا صحيح . ثم يورد كلاماً يفهم منه أنه تبعاً لسمو أغراض النثر على الشعر ، ارتقت منزلة الكاتب وسمت . (٢) فمن الأغراض الأساسية في الشعر الطلب والاستجداء ، وقد استجدي بالشعر امرؤ القيس ، الملك وغيره من أبناء الخلفاء ، وإن كان استجداءهم في سبيل الجاه لا المال ، وأما الكتابة فإنها لم تبين على هذا ، وإنما على أغراض ذات طبيعة خلقية رفيعة مثل " سداد الشغور ، وإصلاح الأمور ، والدعاء إلى الألفة ، والنهي عن الفرقة ، والاستعداد لحرب ، والإعلام بفتح . ولم يوضع الشعر لذلك " (٣) ويشير إلى ما نظمته المتنبى والبحترى وغيرها من الشعراء في الأغراض المذكورة فيؤكد أنه لا ينبغي وجود مثلها في الشعر ، ولكن ذلك لا يكون أصلاً فيه بل عارضاً وطارئاً . (٤)

١ - الفلك الدائر : ٣٠٦

٢ - قال المرزوقي في شرح الحماسة ١ : ١٦ " وإذا كان شرف الصانع بمقدار شرف صناعته ، وكان النظم متأخراً عن رتبة النثر وجب أن يكون الشاعر أيضاً متخلفاً عن غاية البليغ " .

٣ - الفلك الدائر : ٣٠٨

٤ - انظر المصدر نفسه .

ثم يعرض لما ذهب اليه ابن الاثير من ان اغراض الشعر والنثر واحدة ،
فيقف عند قوله - ان رسائل الاخوانيات يذكر فيها الحنين والشوق فهي نسي
المنثور كالنسيب في المنظم - ويرفضه موضحا ان افتتاح قصائد المدح بالنسيب
والغزل امر مستحب ، ولكن لم يحدث ان صدر كتاب " في فتح او استجداد او
تعريض او تخذيل في صدره رسالة اخوانية تتضمن الحنين والبكاء " (١) عليه
لا تماثل بين رسائل الاخوانيات والنسيب ، فكما يختلف الشعر والنثر في سائر الاغراض ،
يختلف الغرض هنا .

ويقول اخيرا ان هناك فروقا اخرى تضاف الى ما ذكره ابن الاثير في تفريقه
بين الشعر والنثر ، منها انه يجوز للشاعر ان يمدح نفسه ، وليس للكاتب ذلك ،
وان للشاعر دون الكاتب ان يبالغ ويوغل حتى يدخل في الاحالة ، وان له ايضا ان
يخاطب الملك بالكاف ويدعوه باسمه وينسبه الى امه ، وان الشعر يحسن
فيه الكذب ولا يمتحن في الكتابة . (٢) فهو لا يعارض ابن الاثير في تفريقه
بين الشعر والنثر ، ولكنه رأى ان ما اورده لا يشمل جميع وجوه الاختلاف بينهما ،

١ - الفلك الدائر : ٣٠٦

٢ - انظر المصدر نفسه : ٣١٠ . وقال ابن رشيقي في العمدة ١ : ٢٢ - ٢٥
" ومن فضل الشعر ان الشاعر يخاطب الملك باسمه وينسبه الى امه ويخاطبه
بالكاف كما يخاطب اهل السوق فلا ينكر ذلك عليه ومن فضائله ان الكذبي الذي
اجتمع الناس على تبحه حسن فيه وقيل ليس لاحد من الناس ان يطرى
نفسه ويمدحها في غير منافرة الا ان يكون شاعرا ، فان ذلك جائز له نسي
الشعر غير معيب عليه " .

فحاول اضافة ما يمكن اضافته من فروق . كما انه لا يعارضه في تفضيل النثر على الشعر ، بل انه يجعل من اغراض الاول علة كون الكاتب اعلى منزلة من الشاعر ، ناهبا الى ان هذا التعليل هو ما عناه ابو اسحاق الصابي وفي كلامه في الشعر والنثر ، وليس البحث في الفرق بينهما كما فهم ابن الاثير وقد اعترض هذا ايضا على ما جاء في كلام الصابي من حيث غموض المعنى في الشعر ووضوحه في النثر ، ورفض ان يكون الغموض سببه تقييد الشاعر بالببيت الواحد بل انه رفض فكرة الغموض كلية . ونادى بوضوح المعنى في الشعر كما في النثر كما جعل من السجعتين نظيرا للببيت الشعري . وقد عارضه في ذلك كل من ابن ابي الحديد والصفدى ، وهارواه ايضا فيما ذهب اليه من ان الشاعر لا يستطيع الاجادة الا في جزء قليل من منظومة طويلة جدا . وأوجدا المبررات والاعذار للشاعر . وانفرد الصفدى بايراد ادلة او امثلة يدحض بها رأى ابن الاثير . واخيرا عرض هذا لإحدى خصائص الشعر العربي ، وهي خلوة من القصائد الملحمة وبذلك بات متخلفا عن الشعر الفارسي الذي يتوفر فيه عدد من النوع المذكور كمنظومة الشاهنامه ، فاحتج عليه الصفدى احتجاجا شديدا . اتهمه فيه بالشعوية غير ان احتجاج الأخير قام على فهم مقلوب لعبارة ابن الاثير في الموضوع المتقدم " وعلى ان لغة العجم بالنسبة اليها كقطرة من بحر " بينما لم يورد ابن ابي الحديد أى رد على هذه المسألة ، مما يستتج معه انه لم يجد في اقوال ابن الاثير ما يستدعي الاحتجاج او الاتهام .

القسم الثاني
قضايا نقدية خاصة

- ٤ - قضية اللفظ
- ٥ - قضية المعنى
- ٦ - العلاقة بين اللفظ والمعنى
- ٧ - تداول المعاني (أو مشكلة السرقات)

قضية اللفظ

لا يختلف ابن الاثير عن غيره من النقاد العرب من حيث الاهتمام بقضية اللفظ والمعنى التي هي احدى القضايا الاساسية في النقد العربي ، كما انه لا يختلف عنهم في الفصل بين اللفظ والمعنى في تناوله لهما ، وان قام هذا الفصل في معظمه على اغراض تعليمية هدفها التعرف بأسس الفصاحة والبلاغة ومواطنهما في المنظم والمنتثر . وهذا ما يتكشف عنه بحثه المستفيض في كل من الصناعة اللفظية ، والصناعة المعنوية ، وقد تحدث في الاولى عن خصائص اللفظ واصافه مفردا ومركبا ، كما تحدث في الثانية عن المعاني الذهنية وما يرتبط بها من صور شعرية . ولانه من الصعب الفصل تماما بين اللفظ والمعنى ، فان بحث ابن الاثير لبعض المسائل المتفرعة عن القضية الام كان يأتي في الايتين معا ، وهو ما سنتبينه اتنا الحديث عن بعض آرائه في كل من اللفظ والمعنى والعلاقة بينهما .

ويتناول ابن الاثير في حديثه عن اللفظ الخصائص الذاتية للالفاظ ، وما قد تثيره في نفس المتلقي من انفعالات واحاسيس متباينة . ويكشف في حديثه هذا عن تأثر عميق باللفظ ، ولا سيما العذب الجميل السائغ منه ، فهو يحس لدى سماع مثل هذا اللفظ او النطق به بمزيج من الغبطة والطرب والنشوة ، وفي ذلك يقول

" وكنت اذا مررت بنظري في ديوان من الدواوين ويلوح لي فيه مثل هذه الألفاظ
أجد لها نشوة كشوة الخمر وطربا كطرب الحان " (١) ومثل هذه الالفاظ مما ترقص
الأسماع له وبين على صفحات القلوب . (٢)

اما عذوبة هذه الألفاظ وجمالها وحسنها فإنها مستمدة جميعا من خصائص
ذاتية ثابتة لا تتغير بتغير العصور ، ولا يرجع فيها الى العرف العربي ، فهذا
امر " لا يؤخذ بالتقليد من العرب لانه شيء ليس للتقليد فيه مجال ، وانما
هو شيء له خصائص وهيئات وعلامات إذا وجدت علم حسنه من قبحه " (٣)

ويقوده هذا الرأي الى مناقشة ما اورد ابن سنان الخفاجي من اوصاف
للفظ المفرد ، مثل تباعد مخارج الحروف وتقاربها ، وعدد حروفه ، والابتدال
وعدمه والجريان على العرف العربي ، (٤) فيرفض بعض هذه الاوصاف

١ - المثل السائر ١ : ٩٨

٢ - انظر المصدر نفسه : ٢٤٨

٣ - المصدر نفسه : ٢٢٢

٤ - اورد ابن سنان شروطا ثمانية لحسن اللفظ هي : ١ - تأليف اللفظ في
حروف متباعدة المخارج ، ٢ - ان يكون لتأليف اللفظة في السمع حسنا
ومزية على غيرها وان تساويا في التأليف في الحروف المتباعدة ، ٣ - وان
لا تكون الكلمة وحشية او متوحرة ٤ - وان لا تكون ساقطة او عامية
مبتذلة ، ٥ - وان تكون جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة ،
٦ - وان لا تكون قد عبر بها عن امر آخر يكره ذكره ، ٧ - وان تكون
معتدلة غير كثيرة الحروف ، ٨ - وان تكون مصغرة في موضع عبر بها فيه
عن شيء لطيف او خفي او قليل او ما يجري مجرى ذلك (انظر —
الفصاحة ، ٦٠ وما بعدها) .

ويتقبل البعض الآخر .

فما يرفضه جعل تباعد مخارج الحروف شرطا مسبقا في استحسان اللفظ " لأنه لو اراد الناظم او الناثر ان يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ وهل هي متباعدة او متقاربة لطال الخطب في ذلك وهو " (١) ومن ثم فان حاسة السمع هي التي تحكم في حسن اللفظ او قبحه ، ولو ان ما تستحسنه هذه الحاسة يكون في الغالب متباعد المخارج ، وما تستقبحه يكون متقارب المخارج ، غير ان استحسان اللفظ او استقباحه يسبق اعتبار مخارج حروفه ولا يتلوها . ولكن هناك شواذ لهذه القاعدة ، فقد يجيء في متقارب المخارج ما هو حسن عذب مثل لفظتي - جيش وشجيرة = - كما قد يأتي في المتباعد الفاظ قبيحة مثل - ملح - ، وما يلبث ابن الاثير ان يتخذ من هذه اللفظة دليلا آخر على عدم اعتبار مخارج الحروف شرطا لحسن اللفظ ، حين ينوه بأن مقلوبها (علم) من الألفاظ الحسنة ، رغم ان الحروف في اللفظتين لم تتغير . (٢)

وينفرد ابن ابي الحديد في مناقشة هذا الرأي فيقول " ليس بمنكر ان يعلم المعلول قبل العلة والمشروط قبل الشرط " (٣) فكتيرا ما يستحسن المرء شيئا قبل ان يعتبر سبب الحسن او علة فيه ، غير ان الاستحسان الفوري

١ - المثل السائر ١ : ٢٢٢

٢ - انظر المثل السائر ١ : ٢٢٥ - ٢٢٦

٣ - الفلك الدائر ١٢٣

لا يطعن في تعليل الحسن ، ثم يلجأ ابن ابي الحديد الى المنطق في تحليل الموضوع وتعليه ، فيذكر ان ابن الاثير قد اقر بأن اللفظ القبيح لا يكون الا متقارب مخارج الحروف ، كما ان الحسن لا يكون الا متباعدة وان انكر ان يكون التباعده والتقارب علة الحسن والقبح في اللفظ ، ولكن اذا " كان تقارب المخارج والاستقباح متلازمين لا يفترقان فلا بد من امر اوجب ملازمتها فيمكنك ان تقول ان الاستقباح اوجب تقارب المخارج فيما هو متقارب المخارج وهو امر ذاتي لا " يتوقف على الاستقباح " (١) ومن ثم اذا كان لا بد من سبب للتلازم ها هنا فانه يمكن في مخارج الحروف . (٢)

ثم يعقب على ما استثناء ابن الاثير من قاعدة استحسان اللفظ واستقباحه وفقا لمخارج الحروف فيقول " ان ابن سنان لم يدع الاطراد المطلق ، وانما قال ان الأكثر الأقلب استقباح الالفاظ المتقاربة المخارج اذا لم توجد فيها علة اخرى توجب

١ - الفلك الدائر : ١٧٣

٢ - انظر الفلك الدائر : ١٧٣ وقال ابن الاثير في " الجامع الكبير " : ٤٠ " فمن اى وجه تكسب اللفظة الجودة والحسن اذا تركيبت من حروف متباعدة المخارج ؟ ... الجواب عن ذلك انا نقول : انها اكتسبت حسنا عند تركيب حروف متباعدة المخارج ... لان النطق اذا اتى على مخارج حروف اللفظة وهي متباعدة ليجمعها ويؤلفها ، كان له في ذلك مهلة وأناة لان بين المخرج الى المخرج فسحة وبعدا فتجيء الحروف عند ذلك متمكنة في مواضعها غير قلقة ولا مكدودة " .

استقباحها والشاذ لا يعتد به (١) ويستدرك فينبه على ان ابن الاثير قد اعترف بأن كل لفظه متقاربة المخارج تكون مستقبحة وان لم يحلل الاستقباح بذلك ، وعلى ذلك فان ما نسبه هذا الى ابن سنان ينطبق على ما اعترف هو به من تلازم الامرين المذكورين (٢) . وهو يعني من كل ذلك ان ما جاء به ابن الاثير في هذا الموضوع لا يخرج عما اورده ابن سنان وان اظهر الأول رفضه لما اتى به الثاني .

ويتخذ موقفا مماثلا من رفض ابن الاثير اعتبار قلة الحروف شرطا في حسن اللفظة كما نص ابن سنان ، وقد مثل هذا على قبح اللفظ بسبب كثرة حروفه بلفظة سويداواتها في بيت المتبني :

ان الكرام بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها

واعترض ابن الاثير على هذا التمثيل وذهب الى ان اللفظة تلك اقل عددا في الحروف من كلمات وردت في القرآن مثل (فسيفيكم الله) و (ليستحلفنهم) فهاتان اللفظتان حسنتان فصيحتان رغم كثرة عدد حروفهما . فالعبرة اذا في نظام تألف الحروف مع بعضها لا كثرتها (٣) والدليل هو قبح لفظة - مستشزرات - فان قبحها ناجم عن توالي بعض حروفها وهي التاء والشين والزاي وليس بسبب كثرة

١ - الفلك الدائر : ١٧٤

٢ - انظر المصدر نفسه

٣ - انظر رأى ابن الاثير المناقض لرأيه هذا في الجامع الكبير : ٥٨ - ٥٩

تلك الحروف ، سيما وانها تظل قبيحة في الانفراد رغم التقليل من حروفها . (١)

ويقف ابن ابي الحديد من هذا كله عند تمثيل زميله على الفصاحة بكلمتي

(نسيكهم) و (ليستخلفنهم) ويربط بينهما وبين ما ذكره هذا في باب

المعاظلة اللفظية من ان تكرير حروف اللفظ يقبحه ، فيوضح ان مثل هذا التكرير

يقع في الألفاظ القرآنية ايضا مثل (بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك

وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم) . ويعقب بقوله " فهذه ميمات كثيرة

يتلو بعضها بعضا ، فاما ان يكون استعمالها في القرآن غير مستحسن ، أو يكون

مستحسنا ، فان لم يكن مستحسنا مع انها قد استعملت ، فاختر لابن سنان ان تكون

الكلمة الطويلة ، كقوله : ليستخلفنهم غير مستحسنة وقد استعملت ، وان كانت

المغالطة قبيحة إلا في القرآن الكريم فاختر لابن سنان ان يكون كثرة حروف الكلمة

قبيحة إلا في القرآن الكريم . (٢) وهو يقصد ان يقول ان ابن سنان لم يخرج

في قواعده وشروطه ومواصفاته عما ورد في القرآن ، ومن ثم لا داعي للطعن فيه

وفي اقواله ، وفي ذلك تأكيد لموقف ابن سنان وتشبيته له . ويبدو انه يكتفي برديته

هذين فهو لا يعرض بشيء لاقوال ابن الاثير الاخرى في اللفظة المفردة . وقد عرض

الاخير لجريان اللفظة على العرف العربي ورفض ان يكون من شروط حسن اللفظة وذهب

١ - المثل السائر ١ : ٢٦٤ - ٢٦٦

٢ - الفلك الدائر : ١٧٧

الى ان هذا القول " يقدر في معرفة مستعملها بما ينقله من الالفاظ ، فكيف
يعد ذلك من جملة الاوصاف الحسنة ؟ " (١)

ولكن يبدو انه يؤيد ابن سنان في كراهته للوحشي من الالفاظ وتأكيده
على وجوب اسقاطها من الاستعمال الادبي ، وهو لا يقتصر على التأييد وانما
يسهب في الحديث عنه ، فيوضح اولاً ان لفظة وحشي اخذت من الوحش ، وهذا
لا يعني كون الوحش قبيحا مطلقا ، فان من الوحش ما هو مقبول او حسن الهيئة ،
غير ان الصفة المشتركة بين النوعين انما هي الغرابة ، وعلى ذلك فان الوحشي
من الالفاظ ما كان غريباً غير مألوف الاستعمال ، وهذا الغريب قسماً : " ما
تداول استعماله الاول دون الاخر ويختلف في استعماله بالغيبة الى الزمن واهله " (٢)
وهو ما لا يحاب استعماله عند العرب لانه كان مألوفاً عندهم ، ولكن استعماله معيب
في العصور المتأخرة ، ومن هذه الالفاظ ما ورد في القرآن وفي الحديث النبوي
واصطلح على تسميته بغريب القرآن وغريب الحديث . ويقوده حديثه عن غريب
القرآن الى مهاجمة الفلاسفة والمتفلسفين بسبب مجادلة بعضهم له في فصاحة لفظه -
ضيبي - في الآية (تلك اذا قسمة ضيبي) ، وينتهي من ذلك الى توضيح المراد
من ايراد هذه اللفظة ، وهو التلاؤم مع بقية الفاظ السورة المسجوعة على حرف
الياء ، فانه لو وضعت بدلا منها كلمة جائرة او ظالمة على فصاحتها ، لما وافقنا

١ - المثل السائر ١ : ٢٢٧

٢ - المصدر نفسه ١ : ٢٢٩

في الجرس بقية الألفاظ . (١) وهو يعني ان الانسجام او الائتلاف الموسيقي للمسورة يحتم استعمال لفظة - ضيزى - وان لم تكن في فصاحة ما في معناها من الكلمات الاخرى، ثم يأتي على ذكر المواطن التي يسوغ فيها استعمال هذا النوع من الغريب، فيرى انه مقبول في النظم دون النثر، ويمثل على ذلك بلفظة - مشمخر - فهي مقبولة في الشعر، مكروهة في النثر، ورغم ذلك لم يحجم الخطيب ابن نباته (٢) عن ايرادها في احدى خطبه حين قال في وصف احوال يوم القيامة (اقطر وبالها واشمخر نكالها فما طالت ولا ساغت) (٣) ومثلها لفظة - شربئة - فهي مما يسوغ استعماله في النظم لا في النثر . (٤)

ويعرف القسم الثاني من الوحشي بأنه : الغريب القبيح الذي يكرهه السمع ويشغل على اللسان النطق به ، وهو احرى بأن يدعى الوحشي الغليظ او المتوعر " وليس وراءه في القبح درجة اخرى ، ولا يستعمله الا اجهل الناس ممن لم يخطر بباله شيء من معرفة هذا الفن اصلاً " (٥) ومن هذا القسم لفظة (جحيش) في البيت :

١ - المثل السائر ١ : ٢٣٠

٢ - هو عبد الرحيم بن محمد بن اسماعيل صاحب الخطب المنبرية ، مهر بالادب ، واجتمع بالمتنبي في خدمة سيف الدولة . كانت معظم خطبه في الحض على الجهاد . توفي بحلب سنة ٣٧٤ هـ انظر ترجمته في وفيات الاعيان ٣ : ١٥٦ ، وغير الذهبي ٢ :

٣٦٧ ، والشذرات ٣ : ٨٣

٣ - المثل السائر ١ : ٢٣٨

٤ - المصدر نفسه ١ : ٢٣٧

٥ - المصدر نفسه ١ : ٢٣٤

يظل بمومة ويمسى بغيرها جحيشا ويصروى ظهور المسالك (١)

وينتهي من ذلك كله الى تقرير قاعدة عامة لاستعمال الغريب فيقول
"والعرب اذن لا تلام على استعمال الغريب الحسن من الالفاظ وانما تلام على
الغريب القبيح ، واما الحضري فانه يلام على استعمال القسمين معا وهو في احدهما
اشد ملامة من الاخرى" (٢) وفي ذلك اشارة الى تغير الذوق الادبي لدى
الانسان العربي بتغير عصره وبيئته .

ولربما كان في موقف الصفدى من بعض ما تقدم دليل على صحة ما ذهب اليه
ابن الاثير من تغير الذوق وفقا لتغير ظروف معينة ، فان الاول لا يجد لفظة -
جحيش - قبيحة منكرة ، ويراهما الطف واخف على السمع من لفظة - شرنبشة -
التي سوغ زميله استعمالها في الشعر دونها ، فاللفظة الثانية لو وردت " في
النيل كدرته واحالت فراته العذب الى الملح الاهاج وغيرته ، ولو كان خلا في
وجنة الشمس هجنتها والخت محاسنها التي انارت الايام وزينتها " (٣) فيبدو
ان الصفدى بمبالغته هذه في نم لفظة شرنبشة اراد ان يجعل من ذوق زميله
ذوقا فاسدا لا يؤخذ بحكمه .

١ - المثل السائر ١ : ٢٢٦

٢ - المثل السائر ١ : ٢٣٧ ، وانظر الجامع الكبير : ٤٦ فقد ذكر المؤلف مثل
هذا القول هناك .

٣ - نصره الثائر : ١٢٨

وهو يعترض أيضا على ذوق زميله حين يؤكد ان كلمة - اشخر - ليست
ما يعاب استعماله في النثر ، وقد جاءت هنا مناسبة للموضوع الذي هو وصف
اهوال القيامة فهذا " امر مهول ويحتاج الى الفاظ فخمة تهول السمع
وتسيل الدمع وتغشعر لها الجلود وتنفطر لها الكبود " (١) ويتطرق من ذلك
الى ايراد الفاظ تناسب وصف النار والجنة مشيرا الى وجوب مناسبة اللفظ لموضوعه
ويبدى عجبه من عدم تنبه ابن الاثير الى هذا الامر . (٢)

ويقف عند كلمة ضيزى ، فلا يعبا بما دار حول فصاحتها من جدل ، وانما
يبرز خطأ زميله في قوله ان هذه اللفظة اتى بها في سورتها لتلائم بقية
الفاظ السورة المسجوعة على حرف اليا ، فيقول ان الفاظ السورة كتبت بحرف
اليا نظرا الى اصل الكلمات فيها والتي هي مشتقة من فعل ناقص يائي لا وارى ،
مثل ماوى ، فهى من ياوى ، وكذلك هوى ، من يهوى وهكذا ، غير انها جميعا
من حيث اللفظ تكون مسجوعة على الالف . ويحاول التخفيف من وقع كلامه أو من
اثره تجاه زميله فيقول " وما اظن بأن ابن الاثير رحمه الله انه جهل هذا ،
ولكنها غفلة ليس الا " . (٣)

١ - نصره الثائر ١٣٨

٢ - نصره الثائر : ١٤٠ وتجدر الاشارة هنا الى ان ابن الاثير قد تنبه الى هذه
الناحية حين قال : " الالفاظ تنقسم في الاستعمال الى جزلة ورقيقة ولكل منهما
موضوع يحسن استعماله فيه ، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفسي
قوارع التهديد والتخويف واشباه ذلك . واما الرقيق منها فانه يستعمل في وصف
الاشواق وذكر ايام البعاد ، وفي استجلاب المودات وملاينة الاستعطاف واشباه ذلك "

المثل السائر ١ : ٢٤٠

٣ - نصره الثائر : ١٣٧

وفي هذا كله لم يتطرق الى مناقشة ابن الأثير في اعتراضه على اوصاف اللفظ ، كما لم يبحث هو نفسه في جوهر القضية ، وانما اقتصر على مناقشة الامثلة فقط ، وقريب منه منهاجه في مناقشة بعض ما ذكره ابن الاثير في الالفاظ المركبة .

وقد اشار هذا الى ما يسبغه التركيب على اللفظ من فصاحة نابغة من توائم الالفاظ وانسجانها وتآلفها فقال " وذاك انه يحدث عنه من فوائد التأليفات والامتزاجات ما يخيل للسامع ان هذه الالفاظ ليست تلك التي كانت مفردة " (١) والالفاظ المركبة عنده ثمانية اقسام ، ومنها الموازنة وتختص بالمشور ، وتكرير الحروف ويختص بالمنظم والمنقور (٢) .

فأما الموازنة فهي " ان تكون الفاظ الفواصل من الكلام المشور متساوية في الوزن وان يكون صدر البيت الشعري وغيره متساوي الالفاظ وزنا " (٣) وهذا النوع يكثر في القرآن ، والشواهد على ذلك كثيرة فيه . وقد جاء منه في المنظم ثاني البيتين التاليين :

ان يقتلوك فقد ثلثت عروشهم	بعثية بن الحارث بن شهاب
بأشدهم بأسا على اصحابه	وأعزهم نقدا على الاصحاب (٤)

-
- ١ - المثل السائر ١ : ٢٧٠
 - ٢ - المصدر نفسه ١ : ٢٧١
 - ٣ - المصدر نفسه ١ : ٢٧٧ ، في الجامع الكبير : ٢٧٠ يقصر ابن الاثير الموازنة على الكلام المشور .
 - ٤ - المصدر نفسه ١ : ٢٨٠

ويتلقف ابن ابي الحديد هذا التمثيل على الموازنة في الشعر فيندد به مشيرا الى ان ابن الاثير قد خص الموازنة بالمنقور اثنا تعداده لاقسام الالفاظ المركبة ولكنه " هنا يذكر ان في الشعر موازنة ، وذلك نقض لما قدمه " (١)
وبذلك يبرز تناقض زميله في بعض اقواله ، وان لم يعارضه في حده للموازنة والامثلة القرآنية عليها ، وكذلك في بحثه لتكرير الحروف .

ورغم ان ابن الاثير لم يورد في اقسام الالفاظ المركبة قسما خاصا باسم المعاطلة اللفظية ، فانه يعود فيفرد لها بابا مستقلا ويجعلها خمسة اقسام هي :
ما يختص بتكرير الحروف ، وما يختص بالادوات ، وتتابع الفاظ على صيغة الفعل ،
وورود صفات متعددة على نحو واحد ، وما يتضمن مضافات كثيرة (٢) ، ويشرح كل قسم مع التمثيل ، مع بعض من التعليق ولا سيما في تكرير الحروف ، فانه يورد البيت :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

ويعقب عليه بقوله : " فهذه القافات والراءات كأنها في تتابعها سلسلة ، ولا خفا^١ بما في ذلك من الثقل " (٣) ثم يقرب به قول الحريري في بعض مقاماته :

وازور من كان له زائرا وهاف عافى العرف عرفانه

١ - الفلك الدائر : ١١٠

٢ - انظر المثل السائر ١ : ٣٩٨ وما بعدها

٣ - المصدر نفسه ١ : ٤٠١ ، وله تعليق مماثل في الجامع الكبير : ٢٧٣

ويؤكد ان هذا البيت من التكرير الثقيل المشار اليه ، ويتطرق من ذلك الى التنديد بالحريري لتأليفه رسالتين على حرفي السين والشين ، وتكريره في اولاهما حرف السين في كل لفظة ، كما كرر حرف الشين في كل لفظة من الثانية " فجا" تا كأنهما رقي العقارب او خذروفه العزائم " (١)

ويمثل على توارد صفات متعددة على نحو واحد بيت ابي تمام :

تامكه نهده مداخله ملمومه محزله أجده

ثم يندد به قائلا انه من " المعاظلة التي قلع الاسنان دون ايرادها " (٢) وفي هذا يبدو نفوله من التكلف والتعقيد في اللفظ والذي يؤثر على الوضوح والبيان والسهولة في الصياغة اللفظية ، وهو ما نلمسه في حديثه عن المنافسة بين الالفاظ في السبك ، أي عدم لياقة الالفاظ بالموضع الذي ترد فيه .

ويصف ابن الاثير هذا الضرب والذي تقدم ذكره بأنهما " اصلا سبك

الالفاظ وما عداها فرع عليه ، واذا لم يكن النائر او الناظم عارفا بهما فان مقاتله تبدو كثيرة " (٣) ومن هذا الضرب ما يوجد في اللفظة الواحدة ، ومنه

١ - المثل السائر ١ : ٤٠١

٢ - المصدر نفسه ١ : ٤٠٨

٣ - المثل السائر ١ : ٤٠٦ قال الجاحظ في البيان ١ : ٦٦ - ٦٧ " اذا كان الشعر مستكرها وكانت الفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مائلا لبعض ، كان بينها من التنافر ما بين اولاد العلات واجود الشعر ما رأيت متلاحم الاجزا سهل المخارج فتعلم بذلك انه قد انفرغ انفرادا واحدا وسبك سبكا واحدا فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان " .

ما يوجد في الألفاظ المتعددة في الشعر والنثر على حد سواء ، فأما النوع الأول
فيمكن تبديل لفظه دون اخلال بالتركيب او الوزن ، وأما الثاني فلا يمكن تبديله
في الشعر بسبب الوزن ، ولكنه يمكن في النثر . وما جاء في النوع الأول البيت :

فلا يبرم الامر الذي هو حال ولا يحلل الامر الذي هو يبرم

فهنا لفظه حال نائرة عن موضعها ، ولو استبدلت بلفظة ناقض لباتت " قارة
في مكانها غير قلقة او نائرة " (١) . وما جاء في النوع الثاني قول القائل :

شفيحك فاشكر في الحوائج انه يصونك من مكروها وهو يخلق

وقد جاءت المنافرة هنا في صدر البيت مما قبجه وافقده حسن السبك (٢) ،
ولا يختلف ذلك عما يحدث من وصل همزة القطع ، فهذه وان كانت من جائزات
الشعر الا انها غير مستحسنة في النثر ، واما قطع همزة الوصل فيصفه ابن الاثير
بأنه اقبح من الاول لانه اثقل على اللسان ، وما جاء في وصل همزة القطع
قول ابي تمام :

فأصبح بلقائي الزمان من اجله بأعظام مولود ورافة والد

فهنا وصلت همزة اجله وهي قطع ، وهذا مما يفتح استعماله (٣) ، وان كان

١ - المثل السائر ١ : ٤١٠

٢ - انظر المصدر نفسه ١ : ٤١٢

٣ - المثل السائر ١ : ٤١٣

جائزا للضرورة الشعرية . ومنه يتضح اهتمام ابن الاثير بأن يكون اللفظ سهلا
سلسا ومنظما في عبارته . وكذلك رفضه لتعلق ذلك بمقياس الصحة او الجواز
في الاستعمال .

ويتخذ الصغدي من ذلك كله موقفا يتراوح بين التأييد والمعارضة . فهو
يرى ان المنافرة بين الالفاظ داخلية في المعاطلة اللفظية وليست قسما او ضربا
مستقلا ويرى ان قطع همزة الوصل مستفح . وبذلك يؤيد وجهة نظر ابن الاثير
في هذا الموضوع . ولكنه يعترض على عدم استحسان وصل همزة القطع . ويعلل ذلك
بقوله انه في الوصل ينقل الاثقل الى الاخف فيحسن . وهو عكس ما يحدث
في القطع اذ ينقل الاخف فيه الى الاثقل فيقبح . وعلى ذلك يرفض رأى زميله
في بيت ابي تمام المتقدم ويؤكد ان وصل الهمزة فيه " من باب النقل . وقراء
التجويد يعرفون ذلك ولا يسمونه وصل الهمز بل نقل الحركة من المتحرك الى
الساكن كقوله تعالى - ولو انهم صبروا " (١) وهي قاعدة مطردة في القرآن
جميعه . ومن ثم فانه يعجب من زميله لمنعه هذا الوصل وجعله اياه من باب
المعاطلة اللفظية الجائزة في الشعر فقط . (٢)

ويبدو انه يؤيد زميله في تشيله على المنافرة . اذ يكتفي من ذلك كله
بالقول ان البيت المتقدم المتضمن لفظة حائل هو من ردى شعر المتنبى . ويتطرق

١ - نصره الشاعر : ١٨٢

٢ - انظر نصره الشاعر : ١٨٣

من ذلك الى وصف شعر المتنبى وتصنيفه بين جيد وروى وان جاء ذلك في معرض الدفاع عنه (١) . ويشير الى تنديد ابن الاثير ببيت ابي تمام :

تامكه نهده مداخله الخ

حين جعله من باب المعاطلة اللفظية بسبب توارد الصفات فيه على نحو واحد ، فيعترض على هذا التنديد ، ويرى ان ثقل البيت ناجم عن اضافة - الها - الى كل وصف وليس في تعدد الصفات نفسها ، ويضي فيقول انه اذا شك احد في هذا القول فليجعل الحس حكما في ذلك . (٢)

ويعترض كذلك على جعل ابن الاثير بيت الحريري من نوع البيت المعروف :

وقبر حرب - الخ - وقد مثل بهما الاول على تكرير الحروف في المعاطلة اللفظية (٣) وينوه بان جميع علماء البلاغة لم يقرنوا البيتين المذكورين ببعضهما ، فان بيت الحريري لا يحتوى سوى الجناس فقط ، ولا يدخل ذلك في المعاطلة اللفظية ، والجناس صناعة فكيف يعدها زميله عيبا ، ولكونه هذا " من تعسفه وتعنته " (٤) ثم يوضح ان ثقل بيت (وقبر حرب) ليس بسبب تكرار الحروف فحسب وانما بسبب تقديمها على بعضها مع التكرار بحيث لا يستطيع احد انشاد البيت ثلاث مرات دون التلعثم فيه . (٥)

١ - انظر نصره الثائر : ١٧٠ وما بعدها

٢ - المصدر نفسه : ١٦٩

٣ - انظر في ذلك المثل السائر ١ : ٤٠١

٤ - نصره الثائر : ١٦٦

٥ - قابل هذا بقول الجاحظ في البيان ١ : ٦٥ في البيت نفسه " ولما رأى من لا علم له ان احدا

لا يستطيع ان ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد ، فلا يتتبع ولا يتلجلج ، ويقال لهم

ان ذلك انما اعتراه اذ كان من اشعار الجن صدقوا بذلك " .

واما بيت الحريري فان حروف جناسه تكرر دون ان تتقدم او تتأخر عن موضعها
من الالفاظ .

ويختم اعتراضه بقوله انه لا ينكر ان كثرة التجنيس في البيت او الفقرة
يؤدي الى نوع من الثقل ، ولكنه ما دفعه الى الاعتراض على ابن الاثير هو جعله
قول الحريري " من باب البيت الذي كأنه رقي العقرب او بعض العزائم الروحانية " (١)
ومذلك يغفل تعليق الاول على رسالتي الثاني المؤلفتين على حرف السين والشين ،
ولا يبدي موافقة او اعتراضا على ما جاء في التعليق المذكور .

على ان اعتراضه على مجمل ما اورد ابن الاثير يأتي في الامثلة وليس في
النظرية ، ما يمكن معه القول بأن الصفدي يتفق مع زميله في النظرية دون التطبيق ،
وهو ما لمناه في موقفه ما اعترض به ابن الاثير على ابن سنان في اوصاف اللفظة
المفردة .

وخلاصة ما هنالك ان ابن الاثير رفض ان يكون تباعد مخارج الحروف وتقاربها
سببا في استحسان اللفظ واستتاجه ، كما رفض ان يبني استقباح اللفظ على كثرة
حروفه ، وذهب الى ان للاستقباح او الاستحسان علاقة بترتيب حروف اللفظ ونوعها
لا بعددها . ورفض ايضا اعتبار الجريان على العرف العربي من الاوصاف الحسنة
للفظ ، ولكنه أيد تحاشي استعمال الوحشي القبيح من الالفاظ ، وانتهى الى وضع
قاعدة عامة لاستعمال الغريب الحسن منه .

وفي الالفاظ المركبة ركز على وجوب مراعاة التلاؤم والتناسق والتناسب
وحسن الايقاع في التركيب اللفظي ، وذلك من خلال بحثه في اقسام الالفاظ
المركبة ومنها الموازنة والمعاطلة اللفظية والتناظر بين الالفاظ في السبك .

وجاء موقف ابن ابي الحديد مناقضا لموقف زميله فيما يتعلق بأوصاف
اللفظة المفردة وشروطها ، فقد تصدى لمؤازرة ابن سنان والدفاع عن آرائه
واقواله من جهة ، ولمناقشة ابن الاثير في بعض امثله ، ومحاولة اظهار تناقضه
في بعض اقواله من جهة اخرى .

قضية المعنى

يشغل الحديث عن المعنى حيزا كبيرا من كتاب "المثل السائر" ، ويبدو فيه احتفال ابن الاثير البالغ بالمعنى وانحيازه التام له ، ولعل لهذا الاهتمام ، وذاك التحيز علاقة بطريقة ابن الاثير في النشر والتي تعتمد كثيرا على حل المنظم ، مما يستدعي التركيز على المعاني وتفصيلها اينما وجدت .

وفي هذا الحديث يعرض ابن الاثير للخصائص الذاتية للمعنى ومنها الطرافة والوضوح والبعد عن التعقيد ، وكذلك لما يكتسبه المعنى من صفات في سياق الكلام ومنها التناسب والترتيب وارتباط المعاني بعضها ببعض ، والتنوع والتفوية ، ولم يغفل - في اثناء ذلك - الاشارة الى علاقة المعنى بالنحو ، وبالصورة الشعرية ايضا .

ولكن هاجسه القوي في ذلك كله هو الطرافة او الابتداع والغرابة في المعنى فهو يركز تركيزا شديدا على هاتين الصفتين ، ويمضي في تتبعهما في المعاني وفي ملاحظتهما بالحاح ملحوظ ذاهبا الى ان باب الابتداع لم يخلق في وجه من يجتهد في بلوغه ، وانه لا تزال " في زوايا الافكار خبايا وفي ابكار الخواطر سبايا " (١)

وفكرته عن الابتداع واضحة فهو ما "يبتدعه مؤلف الكلام من غير ان يقتدى فيه
بمن سبقه ، وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ويتنبه له عند الامور
الطارئة" (١) وهو نوعان : ما يمتدى فيه الى المعنى المخترع بسهولة بسبب شاهد
حال حاضرة ، وما يستخرج منه من غير شاهد حال متصورة وهو اعز طلبا من الاول "وليس
يقوم به الا الفذ" (٢) لانه يعتمد الذهن والفكر المجرد ، وهذا النوع هو المفضل
لدى ابن الاثير ومن ثم فانه لا يعجب بقول ابي نواس :

تبار علينا الراح في عسجدية	حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها	مها ثورتها بالعشي الفوارس
فللراح ما زرت عليه جيوبها	وللما ما دارت عليه القلانس

١ - المثل السائر ٢ : ٢ ، وقال في الجامع الكبير : ٦٨ " اعلم ان المعاني على
ضربين : احدهما يبتدعه صاحب الصناعة من غير ان يكون له فيه المام يقتدى به أو رسم
قائمة في امثلة يعمل عليها ، وهذا الضرب لما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ، ويتنبه له
عند الامور الطارئة . والاخر ما يحتديه على مثال تقدم ورسم سبق " قابل هذا بقول العسكري
في الصناعتين : ٦٩ " والمعاني على ضربين : ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير ان يكون
له امام يقتدى به فيه أو رسم قائمة في امثلة مماثلة يعمل عليها وهذا الضرب ربما يقع
عليه عند الخطوب الحادثة ويتنبه له عند الامور النازلة الطارئة ، والاخر ما يحتديه على مثال
تقدم ورسم فرط " .

٢ - المثل السائر ٢ : ٢٠

بل انه يضيق ذرعا بعلماء العربية وفي مقدمتهم الجاحظ لاعجابهم بالمعنى في الابيات هذه ، ويرى انهم قد بالغوا في اعجابهم فيحتج قائلا : " ولا اعلم انا ما اقول لهم ، ولا بي سوى ان اقول : قد تجاوز بهم حد الاكثار وفصاحة هذا الشعر عندي هي الموصوفة لا هذا المعنى ، فانه لا كبير كلفة فيه ، لأن ابا نواس ، رأى كأسا من الذهب ذات تصاوير فحكاها في شعره ، والذي عندي في هذا انه من المعاني المشاهدة " . (١) فالمعنى هنا " لا كبير كلفة فيه " وبكلام آخر لا غرابة او طرافة ، لانه يعتمد على صورة رآها ابو نواس فوصفها ، ولكن ابن الاثير لا يعني كثيرا بالصورة الشعرية لأنه المقدم عنده هو المعنى ، والمعنى المبتدع الغريب بصفة خاصة ، ولا سيما اذا استخرج من غير شاهد حال " . كما في الأبيات :

بين الغوير وبين شطي بارق	بأبي فزال غارلته مقلتي
صهبا كالمسك الفتيق لناشق	عاطيته والليل يسحب ذيله
وذو ابتاه حمائل في عاتقي	وضمته ضم الكمي لسيفه
زحزحته شيئا وكان معانقي	حتى اذا مالت به سنة الكرى
كي لا ينام على وساد خافق	أبعدته عن اضلع تشتاقه

وهو لا يستطيع كتم تأثره الشديد واعجابه البالغ بالمعنى في هذا الشعر لأنه من الحسن والملاحاة بالمكان الاقصى ، ولقد خفت معانيه على القلوب حتى كادت ترقص

رقصا والبيت الاخير منه هو الموصوف بالابداع ، وبه وأمثاله أنرت الأبصار بفضل الأسماع . (١)

ويبدو ان الصفدى لا يشاركه في تذوقه هذا ، بل انه يعارضه فيه ذاهبا الى ان المعنى في الابيات هذه مما عابه الناس وخاصة ما جاء في البيت الاخير منها وقد نسبوا هذا القول الى الجفاء ، لانه لا يمكن ان يصدر مثل ذلك عن محب واله فالمعنى هنا فاسد وصوابه في مثل " ابعدت عنه أضلعا تشتاقيه . "

ويورد الصفدى - في معرض الدعم لقوله - بعض نظم قيل في المعنى الاخير ويختم اعتراضه بقوله " فانظر الى ما استحسنته ومدحه وفضله كيف اورد الناس عليه وعابوه ولعمري انه نقد حسن ومأخذ دقيق وايراد متوجه " (٢) وفي هذا تلميح الى مخالفة ابن الاثير لذوق جمهور الأدباء سواء ممن عاصره او تقدم عليه ، كما هو الشأن في موقفه من استحسانهم لابيات ابي نواس السينية المتقدمة ، وهو ما نفهمه من انكار الصفدى الشديد للموقف المذكور حين يقول " كفى بهذا الرجل - رحمه الله - ان يقول مثل هذا وما اعرف كتابا من أمهات كتب الادب ، الا وقد تضمن ذكر هذه الابيات والثناء عليها ، وحسبك بكلام يثنى عليه ابو عثمان عمرو الجاحظ ، وهو من احذق ائمة الادب ، واعرفهم بما يقول ، وابصرهم بمدارك العقول وقوله في مثل هذا حجة ، وما قرره في الابيات هو المحجة . " (٣) فهذا انكار لعدم اخذ ابن الاثير بأقوال نفر لهم مكانتهم في عالم الادب والنقد ، بل ان احدهم وهو الجاحظ حجة فيه ، وفي هذا الانكار اتهام

١ - المثل السائر ٢ : ٣٠

٢ - نصره الثائر : ٢١٩

٣ - نصره الثائر : ١٩٤

خفي لابن الأثير بالخروج بذوقه عن العرف الذي يراعيه الصفدي في هذا المقام .
وهو لا يكتفي بما أبداه ، بل يستطرد الى التدليل على قيمة الجاحظ الأدبية
والعلمية حين يورد قولا للقاضي الفاضل يعترف فيه بفضل الأخير وفضل مؤلفاته
عليه ولى الكتاب المتأخرين عامة ، وحين ينوء بشغف القاضي بذكر الأديب المعني -
وذلك في كتاباته ومؤلفاته ، ويمعن في تدليله ، فيجعل من الجاحظ ببيانه احدى
العلامات المميزة لفضل الأمة الاسلامية على غيرها من الأمم ، قارنا إياه بعمر بن
الخطاب في سياسته . وبعد اقوال اخرى في تفریط الجاحظ ، يعود فيلتفت الى
أبيات ابي نواس ويشير الى أن معناها مأخوذ من قول امرئ القيس :

فلما استطابوا صب في الصحن نصفه وشجت بما غير طرق ولا كدر

الا ان ابا نواس تسلق على هذا المعنى " واخفاه بما شغل به الكلام من ذكره
الصور المنقوشة إلا أنها سرقة ملوحة " (١) ويتبع ذلك بنماذج شعرية مما قيل
في وصف الخمر وكأسها ، ويختتمها بأبيات من نظمه (٢) . وهو بايراده لتلك
النماذج يعبر ضمنا عن موافقته لابن الأثير في استجاداته للمعاني المبتدعة المبتكرة ،
حيث انه لا يناقشه في نظريته عن المعنى المبتدع عامة ، كما لا يناقشه في
ذلك ابن ابي الحديد الذي لا يعرض لهذا الموضوع بشيء مطلقا ، وهو نفس
موقفه من عدم استحسان ابن الأثير للتعقيد المعنوي .

١ - نصره الثائر : ١٩٦

٢ - المصدر نفسه : ١٩٦ - ٢٠١

فابن الاثير وان الح على المعنى الغريب المبتدع لا يحبذ الاغراق في الغرابة

الى درجة التعقيد والتعمية ، وهو ما ينطبق على المعاطلة المعنوية ومنها :

وما مثله في الناس إلا ملكا
ابو امه حي ابوه يقاربه

فهو يرى ان هذا النوع من تعقيد المعنى ينعدم معه المقصود من الكلام اذ المقصود منه * انما هو الايضاح والابانة وافهام المعنى ، فاذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به ، ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات في الفارسية والرومية وغيرها * (١) . وفي هذا تركيز على وجوب ايضاح المعنى ، وتجنب المنغلق منه الذي هو اشبه بلغة غريبة لا يقدر الانسان العربي على فهمها .

ويبدو ان الصفدى ايضا يؤمن على هذا الرأى ، فاننا لا نعتز له على رد في

هذا الموضوع ولا فيما اورده ابن الاثير في موضوع التناسب بين المعاني .

فقد تحدث ابن الاثير طويلا عن التناسب بين المعاني من حيث مقابلة الشيء

بضده أو بغير ضده (٢) ، والمؤاخاة بين المعاني وهو " ان يذكر المعنى مع اخيه

١ - المثل السائر : ٢ : ٢٢٩ ، في الجامع الكبير : ٢٣١ يشير ابن الاثير الى ان

الغاني مثل بالبيت نفسه على المعاطلة المعنوية . ومثل الجرجاني في اسرار

البلاغة : ٢٠ بالبيت هذا على تعسف اللفظ .

٢ - المثل السائر ٣ : ١٥٢ - ١٥٣ ، في شرح النهج ٢ : ١٥٠ - ١٥٢ ينقل ابن الحديد

آراء ابن الاثير في المقابلة مع الامثلة ويعترض على بعضها مؤكدا انه لا مقابلة الا بين الاضداد

وما يجرى مجراها .

لا مع الاجنبي ، مثاله ان تذكر وصفا من الأوصاف وتقرنه بما يقرب منه ويلتزم به ،
فان ذكرته مع ما يبعد منه كان ذلك قدحا في الصناعة وان كان جائزا . (١)
ومن التناسب ايضا صحة التفسير وهو غير ما يقصده المتكلمون من قسمة عقلية ،
وانما هو " ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير ان يترك منها قسم واحد ،
واذا ذكرت قام كل قسم منها بنفسه ولم يشارك غيره . " (٢)

ومنه اخيرا ترتيب التفسير وهو ان يؤتى في الكلام بمران مختلفة ، فاذا رجع
اليها بالتفسير قدم المتقدم وآخر المتأخر . (٣) وعلى كل نوع من انواع التناسب هذا
اورد ابن الاثير الحديد من الأمثلة سواء من الآيات القرآنية او الاشعار . ويقف ابن
ابي الحديد من هذا كله عند امثلة ترتيب التفسير ، فلا يحترض منها الا على البيت :

فتى وقف الايام بالسخط والرضا على بذل عرف او على حد منصل

اذ يصرح بأن ابن الاثير قد سها في ادخال البيت هذا في جملة امثله " لأن

١ - المثل السائر ٣ : ١٥٤

٢ - المصدر نفسه ٣ : ١٦٢ ، وجاء في نقد الشعر : ٧٠ عن صحة التقسيم " وهو
ان يبتدىء الشاعر فيقطع اسما فيستوفيها ولا يخادر قسما منها " .

٣ - المثل السائر ٣ : ١٧٤ - ١٧٥

الشاعر لما فسر قدم بذل العرف وهو المراد بالرضا وآخر حد المنصل وهو المراد بالسخط ، وهما في صدر البيت على خلاف هذا الترتيب . (١) فهنا لا تتناسب في تفسير المعنى ولا ترتيب ولهذا نظير في قوله تعالى " يمم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم " ومن هذا نستطيع القول ان ابن ابي الحديد يؤيد ابن الاثير في وجوب مراعاة ترتيب التفسير لا سيما وانه لا ينقض شيئا مما ذكره الآخر في هذا المعنى .

ويتصل بالتناسب ترتيب المعنى ومنه التدرج ، وقد رأى ابن الاثير انه ينبغي في الصفتين او الصفات المتواردة على شيء واحد ان يتدرج في ذكرها من الأدنى الى الأعلى في مقام المدح ، ويعكس الترتيب في مقام الذم (٢) ، ومثل على الصفتين بالآية : (ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها) موضحا ان وجود المواخذة على الصغيرة يوجب وجود المواخذة على الكبيرة (٣) ، ولكنه لم يلبث ان ناقض نفسه فذكر انه وفقا للقياس الذي وضعه لترتيب المعنى عامة - وهو ان " استعمال العام في حالة النفي ابلغ من استعماله في حالة الاثبات " (٤) - ينبغي ان يتقدم ذكر الكبيرة على الصغيرة في الآية المذكورة ، ولكن لما كان " القرآن الكريم احق ان يتبع وأجدر ان يقاس عليه

١ - الفلك الدائر : ٣٠١

٢ - المثل السائر : ٢ : ٢١٠

٣ - المصدر نفسه ٢ : ٢١٣

٤ - المثل السائر ٢ : ٢٠٦

لا على غيره * (١) فانه يقر بتراجعه عن قوله ومقياسه في هذا الموضع خاصة ، لا في الصفات المتعددة ، وقد مثل على التدرج من الادنى للأعلى منها بقول البحترى :

كالفسي المعطفات بل الاسم مبرية بل الاوتار

كما مثل على اغفال هذا التدرج من قبل بعض الشعراء بقول المتنبي :

يا بدر يا بحر يا غمامة يا ليث الشرى يا حمام يا رجل

ووضح ان قانون التدرج يتطلب ان يكون ترتيب البيت على الوجه التالي :

يا رجل يا ليث يا غمامة يا بحر يا حمام ، لان الحمام اعظم الجميع (٢)

ويستقطب هذا الحديث اهتمام كل من ابن ابي الحديد والصفدى ، ولكنهما

لا يعرضان بشيء لمقياس ابن الاثير في التدرج ، وانما يحصران مناقشتها في الأمثلة

التي اوردها عليه . فيرفض ابن ابي الحديد تأويل الآية المتقدمة على الوجه الذي

ذكره زميله ، ويؤكد ان المقصود بكلمتي (الصغيرة والكبيرة) الاحصاء والعد ، لا المواخذة ،

ويدلل على قوله بالاشارة الى الكلام السابق لهذا الجزء من الآية وهو (وضع الكتاب فترى

المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا .) فهو يدل على تخوف المجرمين من احصاء

ذنوبهم وعدها ، ويؤكد ذلك تنمة الآية (إلا احصاها) وهو نص صريح على

١ - المثل السائر ٢ : ٢١٠

٢ - المصدر نفسه ٣ : ٢١٥

الاحصاء والعدد . (١) ثم يتبع قوله هذا بتفسير فقهي منطقي ينتهي منه الى القول بأن المقصود بالآية هو بيان علم الله بكبائر الذنوب وضغائرها مهما كانت ، ومن ثم فليست احداها اولى بالتقديم من الأخرى . (٢) اى ان تلك الآية يحتمل فيها مراعاة التدرج ، وان لم ير ابن الأثير ذلك .

ولا يوافق ابن ابي الحديد الأخير في موقفه من بيت المتبي المتقدم ، فهو يرى ان المتبي كان حسن القصد في نظمه لبيته على هذا النحو ، اذ وصف فيه مدوحه بحفتين جليلتين هما السخاء والشجاعة ، وابتدأ بالجر لانه دون الغمامة مكانة حيث انها اصل نشأته بما تسقطه عليه من اطار ، ويضي ابن ابي الحديد في تعليقه فيقول ان البيت ختم بلفظة - الرجل - لانه جامع للاوصاف المذكورة معا رغم انه انسان من البشر ، وهنا موضع العجب والإعجاب ، واما علة تقديم السخاء على الشجاعة فلأن الناس يفضلون الأولى على الثانية لأن انتفاعهم بها اكثر ، ومثل هذا المعنى يخفى فيما لو أتى المتبي ببيته متدرجا كما رسم له ابن الأثير (٣) . ومن ذلك يمكننا ان نستنتج ان ابن ابي الحديد لا يعترض على نظرية ابن الأثير في التدرج ، حيث ان معارضته قامت على ما اورده زميله من تأويل لأمثته .

وباتي الصفدى فييدى إعجابيه بتأويل ابن ابي الحديد لبيت المتبي الآنف

-
- ١ - الفلك الدائر : ٢٢٦
 - ٢ - المصدر نفسه : ٢٢٦ - ٢٤٠
 - ٣ - المصدر نفسه : ٢٤٦

الذكر مشيراً الى ان المعنى وفقاً لهذا التأويل يكون مطابقاً لبدأ التدرج من الأدنى الى الأعلى في مقام المدح ، ثم يورد تأويلاً آخر منقولاً عن بعضهم ، ولكنه لا يلبث ان يتراجع عنه مصرحاً بأنه " ليس في قوة ما ذكره ابن أبي الحديد ولا حسنه " (١) وبلغت الى قول ابن الاثير ان الحمام أكبر من البحر ، فيقول ان الاخير لم يحلل قوله هذا ولم يوضح لم كان الحمام أكبر من البحر ، وعلى ذلك فانه - أي الصفدي - يقدم تعليقه وهو ان الموت عدم والبحر وجود ، والعدم أهم من الوجود فهو اعلى منه بهذا الاعتبار فيقدم عليه ، ونظير ذلك الآية (الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور) فقد قدم الظلمات لانها تعني عدم النور ، ويخلص من ذلك كله الى ابدأ تحفظه ازا" هذا التعليل ، حيث يشير انه بموجب ذلك قد يعتبر البعض بيت المتبني مخالفاً لقاعدة التدرج المذكورة .

ويختم مناقشته بالاستطراد الى التنويه بتمسك بعض الفقهاء من يفضلون الملائكة على الانبياء ، بقاعدة التدرج هذه كما فهموها من الآية (لن يستكبر المسبح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة ولا المقربون) (٢) وهو ما لا يعلم به لانه يأخذ بمذهب علماء السنة في هذا الموضوع .

وفي هذا الاستطراد من الهلافة الى الفقه ، نلح تأييد الصفدي لابن الاثير في مبدأ التدرج في المعنى ، رغم ان مناقشته جاءت تكلمة وتأييداً لابن الحديد في موقفه من امثلة الموضوع .

١ - نصره الثائر : ٢٨٨

٢ - المصدر نفسه

ونلمس بعضا من التأزر في مناقشة هذين الناقدين لما ادلى به ابن الاثير
في حديثه عن وحدة المعنى وترابطه . فقد دعا هذا الى ان يكون مفتاح الكلام
من الشعر والنثر دالا على المعنى في بقية " ان كان فتحا ففتحنا ، وان كان
هنا فهنا " وفائدته ان يعرف من مبدأ الكلام ما المراد به ولم هذا النوع " (١)
ووقف عند الرسائل السلطانية فأكد انه من الحذاقة ان تجعل التحييدات في مفتحتها
مناسبة لمعاني الرسائل تلك ، وان يجعل الدعاء في ابتداءات تلك الرسائل والرسائل
الاخوانية ايضا متضمنا من المعنى ما بنيت عليه تلك الكتب . ثم تطرق الى ابي اسحاق
الصايي فذكر انه لم يراع ما تقدم في كتبه السلطانية " فإذا أتى بتحييدة في كتاب
من هذه الكتب لا تكون مناسبة لمعنى ذلك الكتاب ، وانما تكون في واد والكتاب
في واد الا ما قل من كتبه " (٢) واستشهد على قوله هذا بايراد افتتاحية رسالة
للمذكور في فتح بغداد وهزيمة الاتراك ، وعقب عليها بقوله " وهذه التحييدة لا تناسب
الكتاب الذي افتتح بها ، ولكنها تصلح ان توضع في صدر مصنف من مصنفات اصول
الدين ككتاب الشامل للجويني (٣) او كتاب الاقتصار او ما جرى مجراها ، واما

- ١ - المثل السائر ٣ : ٩٦ ، قابل هذا بقوله في الجامع الكبير : ١٨٧ " وذلك ان يجعل
مطلع الكلام من الشعر والخطب والرسائل دالا على المعنى المقصود بذلك الشعر او تلك
الخطبة او تلك الرسائل "
- ٢ - المثل السائر ٣ : ١١٨
- ٣ - عبد الملك بن عبدالله بن يوسف ، الفقيه الشافعي ، درس وأفتى في كل من مكة والمدينة
فعرف بامام الحرمين ، بنى له نظام الملك المدرسة النظامية في نيسابور وتولى الخطابة
بها وفوضت اليه امور الاوقاف ، من تصانيفه - الشامل - في اصول الدين ، والارشاد
في الفقه . توفي قرب نيسابور سنة ٤٧٨ . (انظر ترجمته في وفيات الاعيان ٣ : ١١٧ ،
وطبقات الشافعية ٣ : ٢٤١ وعبير الذهبي ٣ : ٢٩١ ، وشذرات الذهب ٣ : ٢٥٨)

ان توضع في صدر كتاب فتح فلا " (١) . ومثل على نظراته ببعض من افتتاحيات رسائله الى جانب بعض من المطالع لعدد من الشعراء .

وهرض لنوع آخر من ارتباط المعاني هو التخلص وهو " ان يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فبينما هو فيه ان اخذ في معنى آخر غيره وجعل الاول سببا اليه فيكون بعضه أخذا برفاق بعض ، من غير ان يقطع كلامه ويستأنف كلاما آخره ، بل يكون جميع كلامه كأنما افترقا " (٢) وتطرق من استشاده على حسن التخلص الى ابي العلاء محمد الغانمي (٣) ، فذكر ان هذا انكر وجود التخلص في القرآن ، وهو قول فاسد ، لأن في القرآن الكثير من هذا النوع ، كما في سورتي ابراهيم والاعراف وغيرها " وبالله العجب كيف يزعم الغانمي ان القرآن خال من التخلص ، ألم يكفه سورة يوسف عليه السلام فإنها قصة برأسها وهي مضمنة شرح حاله مع اخوته من اول امره الى آخره ، وفيها عدة تخلصات في الخروج من معنى السى معنى " (٤) .

ويبدو ان هذا التعريف بالغانمي وما سبقه من تعريف بالصابي كان حافزا لكل من ابن ابي الحديد والصفدي للتوجه بالرد على ابن الاثير ، فنرى اولهما

-
- ١ - المثل السائر ٣ : ١٠٩
 - ٢ - المصدر نفسه ٣ : ١٢١ ، ويتكرر هذا الكلام في الجامع الكبير : ١٨١
 - ٣ - لم اشتر على ترجمة خاصة به ، ولا ادري ان كان هوام حفيده المقصود بالترجمة التالية (الغانمي) ، هو جد الاديب محمد بن غانم الغانمي كان من فضلا عصره وشعره مشهور وهو من شعراء نظام الملك . ولد سنة ٤٦٤) الباب في تهذيب الانساب ٢ : ١٦٦
 - ٤ - المثل السائر ٣ : ١٢٢ ، وانظر حديث ابن الاثير عن التخلص في الجامع الكبير ١٨٢ - ١٨٣

يتصدى للدفاع عن الصابي دون مناقشة ابن الاثير في تعريفه للتخلص وامثله عليه
اي في النظرية وتطبيقها ، فيورد كلاما مفصلا يؤكد فيه ان الصابي لم يخل
افتتاحيته من الاشارة الى معنى الرسالة العام ، وبعد ان يسرد الحادثة التاريخية
التي صدر الكتاب فيها ، يأخذ في ربط احوال تلك الواقعة بسجلات الافتتاحية
المذكورة ، مبرهنا بذلك على ان مفتاح الرسالة تلك ملائم في المعنى لبقيتها ،
وغير مناف لمعناها ومغزاها (١) ، ومن ثم يكون الصابي قد حافظ على ترايبط
المعنى في رسالته ، وفي هذا البرهان تأييد ضمني لنظرة ابن الاثير في ضرورة
مراعاة حسن التخلص في الموضوع الواحد .

ويقف ابن ابي الحديد عند تعليق زميله على مفتاح الرسالة المذكورة فيوضح
انه لا وجه للجمع في التمثيل بين كتابي الشامل والاقطار (٢) لتفاوتهما في
غزارة المادة والمواضيع " والاقطار مقدمه في نحو خمسة كراريس والشامل كتاب
كبير في اكثر من خمسة مجلدات " (٣) ونظير هذا التمثيل بكتاب لغوي صغير كقصص
تعلب ، وكتاب كبير كتهذيب اللغة ، وبانعدام التناسب بين الكتابين اللذين استشهد
بهما ابن الاثير يستدل ابن ابي الحديد ان زميله " قد سمع بالكتابين اللذين
سماها ولم يبرهما عيانا " (٤) وفي ذلك تلميح من طرف خفي الى ان ابن الاثير
لا يلتزم الدقة العلمية في معلوماته احيانا .

-
- ١ - الفلك الدائر : ٢٦٨ - ٢٦٩
 - ٢ - يذكر ابن ابي الحديد ان هذا الكتاب للغزالي ، ولكنني لم اجد له ذكرا
في مصادر ترجمة المذكور التي وقعت الي .
 - ٣ - الفلك الدائر : ٢٦٩
 - ٤ - المصدر نفسه : ٣٠٠

غير اننا لا نعثر على رد لابن ابي الحديد على ما ذكره ابن الاثير
في التخلص ، ما يوصى الى موافقته له في هذا الموضوع . ويلمس الصفدى جانباً
من موضوع التخلص حين يقف عند تنديد ابن الاثير بأبي العلا الغاني ، فيبدي
اعتراضه على هذا التنديد ، غير انه يبيّن اعتراضه على خطأ في نقل اقسوال
ابن الاثير ما جعل بعضها يبدو وكأنه جزء من كلام الغاني ، ومن ثم فإن الصفدى
يقرر ان ما ذكره الغاني لا يخرج عما قاله ابن الاثير ، وينوه بعد ذلك بأن القرآن
جميعه متعلق بعضه ببعض الآخر ، وقد تكلم بعض المفسرين في كتبهم على تعلق
الآية بما بعدها . ويخلص من ذلك الى القول بأن ابن الاثير لم يفهم كلام الغاني
ولم يعلم قصده " وهو انه اراد التخلص الذي اصطلح عليه الشعراء ، وهو ان
يتخلص الشاعر في البيت الواحد من فزل او عتاب او وصف الى مديح . ومثل هذا
لم اعلم انه ورد في الآية الواحدة " (١) . وينهي اعتراضه بالتنديد بتخلصات
ابن الاثير لا سيما وانه اثبتها بعد تمثيله بنماذج مختارة من تخلصات المتسبي
وابي تمام والبحترى (٢) . وفي كل هذا لا يمس الصفدى من الموضوع سوى بعض
الجوانب الهامشية دون التعرض لصميم الموضوع .

١ - نصره الثائر : ٣٦٢ ، وقابل هذا بقوله في الغيث المسجم ١ ، ١١٢
" وقد جاء التخلص في القرآن الكريم في قوله تعالى (وأتل عليهم نبأ
ابراهيم اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون) الآيات الى قوله تعالى :
(فلو ان لنا كرة فنكون من المؤمنين) وهذا تخلص خلافاً لابي العلا
محمد بن غانم المعروف بالغاني ، فإنه انكر وقوع التخلص في الكلام وفي
القرآن الكريم كثير منه " .
٢ - انظر نصره الثائر : ٣٦٢

وهذا قريب من موقفه ما ذكره ابن الاثير عن المعنى في الافتتاحيات والمطالع ، فهو يقتصر من ذلك كله على الوقوف عند افتتاحيتين اوردهما ابن الاثير من انشائه في معرض التمثيل على موضوعه ، فيبدي استخفافه بالافتتاحية الأولى وما تضمنته ويذكر بأن مؤلفها عاب على الصابي وبعض الشعراء في الافتتاحيات ، ورغم ذلك فإنه لم يحجم عن ايراد مثل هذه الافتتاحية ، والتي لا تدل على معنى بقية الرسالة ، فهي تدل على مطلق الهناء ، بينما فرض للرسالة التهنية بمولود . ثم يقرنها بأمثلة من كلامه وكلام القاضي الفاضل في الموضوع ليشين القارئ ايها اجود واكثر تطبيقا لما نادى به ابن الأثير . (١)

ويتناول من افتتاحية الاخير الثانية عبارة (وصدق حينئذ قول القائل ان البحر عنصر السحاب) (٢) فيعترض على هذا القول ويرى أنه مخالف للحقيقة اذ كيف يمكن للبحر الملح الأجاج ان يكون عنصرا للسحاب بقطره العذب الفرات ؟ ثم يأخذ في التدليل على خطأ هذا القول فيورد بعضا من الآيات القرآنية التي تشير الى ان الرياح هي سبب نشأة السحاب وليس البحر ، ويورد ايضا بعض اقوال قيلت في علاقة السحاب بالرياح والبحر ، لينتهي منها الى التبيه " على ان المطر ليس من البحر ، وان البحر ليس بعنصر السحاب ، وغير ذلك يؤخذ من كتب هذا الفن في الطبيعيات " (٣) وواضح ان اعتراضه جاء مناقشة للحقيقة العلمية لعبارة ابن الاثير ، لا للافتتاحية نفسها ، على انه يختم اقواله في الموضوع بتقييم هام

١ - نصره الثائر : ٣٥١

٢ - المثل السائر ٣ : ١١٢

٣ - نصره الثائر : ٣٥٤

لافتتاحيات ابن الاثير ، فيذكر ان منها ما هو على بعض من الحسن ولكنها جميعا دون افتتاحيات القاضي الفاضل بكثير . (١) فهو في موقفه هذا كما في التخلص لا يعترض على جوهر الرأي او النظرة وانما على الجزئيات . ولكنه يغفل كلية ما ذكره ابن الاثير في تقوية المعنى ، ولعله اكتفى من ذلك بما اورده ابن ابي الحديد على بعض جوانب الموضوع .

وقد اشار ابن الاثير الى تقوية المعنى ضمن الحديث عن تكريره فأسهب القول فيه مع التمثيل ، وخلاصة رأيه ان التكرير يأتي تأكيدا للمعنى وتثبيتا للفرض المقصود منه . (٢) وما جاء في تمثيله على ذلك الآية (فصيام ثلاثة ايام في الحج وسبعة اذا رجعت تلك عشرة كاملة) وذهب الى ان " عشرة " تنوب مناب " ثلاثة وسبعة " مرتين فهي تأكيد لهما وان " كاملة " تأكيد ثالث ، والمراد بذلك كله " ايجاب صم الأيام السبعة عند الرجوع في الطريق على الفور لا عند الوصول الى البلد كما ذهب اليه بعض الفقهاء " (٣) وانفس اثر ذلك في جدل طويل اشعان فيه بالمنطق والنحو والبلاغة لاثبات صحة رأيه وفساد رأى اولئك الفقهاء ، وخلص منه الى اعادة القول بصواب رأيه وهو وجوب صم الايام السبعة فورا في الطريق (٤) اي ان التكرير هنا تأكيد لتنفيذ الامر فورا .

وهذا ما لا يقبل به ابن ابي الحديد الذي يرى ان تأويل التكرير هنا

-
- ١ - نصره الثائر ، ٣٥٥
 - ٢ - المثل السائر ٣ : ٤ ، ٤٩
 - ٣ - المصدر نفسه ٣ : ٣٠
 - ٤ - المصدر نفسه ٣ : ٣٠ - ٣٣

وعلى هذه الصورة تأويل ضعيف " لان فحوى كلامه انه يذهب الى ان الامر اذا ورد مجردا عن التكرير لم يدل على الفور . " (١) ثم يورد رأيا لبعضهم ينوه على تحليل منطقي ، يذهبون فيه الى ان الامر يقتضي الفورية سواء كرر أم لم يكرر ، ويصرح بأنه لا حيلة له في دفع هذا الرأي إلا انه يؤكد ان الآيئة المتقدمة لا تنمى معه لان المقصود بتلك عشرة كاملة " انما هو نعت الأمور به فقط " (٢) ويتبع ذلك بجدل ينقض فيه جدل ابن الاثير وعلى غرار أسلوبه الى حد ما ، بحيث يبقى التركيز منصبا على الامثلة وتأويلها او تخريجها نحويا (٣) ، دون البحث في اساس القضية او صلبها .

وقريب من هذا موقفه من تنوع المعنى . فقد تطرق ابن الاثير الى هذا الموضوع في بحثه المستفيض في السجع حين استحس ان يكون المعنى في كل من السجعتين المزدوجتين مختلفا عنه في الأخرى " فان كان المعنى فيهما —وا— فذلك هو التطويل بعينه ، واذا وردت سجتان تدلان على معنى واحد كانت احدهما كافية في الدلالة عليه " (٤) . واستطرد من ذلك الى التعريض ببعض كبار الكتاب لعدم التزامهم بذلك في سجعهم وأورد بعضا من كلام الصابي والصاحب ابن عباد مظهر عدم التنوع في معنى السجعتين المترادفتين منه (٥) ، وقرن ذلك ببعض من اسجعه .

-
- ١ - الفلك الدائر : ٢٨٦
 - ٢ - الفلك الدائر : ٢٨٧
 - ٣ - المصدر نفسه : ٢٨٨ - ٢٩٢
 - ٤ - المثل السائر ١ : ٢٧٨
 - ٥ - المصدر نفسه ١ : ٢٨٢

ويأتي رد ابن ابي الحديد دفاعا عن الصابي وتبريرا لطريقته في السجع ،
فيذكر انه في ذلك لم يخرج عن تقاليد الكتاب فان " هذه سنة الكتاب وهادتهم
ما زالوا عليها قديما وحديثا " (١) ولذلك تعليان : احدهما كون ذلك من باب
سعة العبارة والاعتدال على الالفاظ ، والآخر " ان السجعة الثانية تؤكد معنى الاولى ،
والتأكيد عمدة البيان والكتابة ولذلك احيوا فيها الاطالة " (٢) على ان اولئك
الكتاب انما ساروا في كتاباتهم على هدى من القرآن الكريم ، فهو على ايجازه واختصاره
يتضمن كثيرا من تكرير المعنى في آياته ومنه (قل اعوذ برب الناس ، ملك الناس ،
اله الناس) والتي هي بمعنى واحد . وعلى طريقة المتكلمين والحكما ، يأخذ
ابن ابي الحديد في تأويل معاني الآيات المتقدمة ، وكذلك اسجاع الصابي التي عابها
ابن الاثير ، ليستتج من ذلك كله ان في الاسجاع المذكورة فروقا دقيقة في المعنى
" ومثل هذه التدقيقات الخفية في التأويلات لا يتعذر تحصيلها على من عنده فقه
في موارد هذه الصناعة " (٣) . وفي هذا يبدو ابن ابي الحديد وكأنه لا يكتفي
بالاخذ بالتقليد والعادة ، وانما يحاول ايجاد المصوغات المقنعة لذلك ، متخذا من
القرآن الكريم من جهة ، ومن المنطق من جهة اخرى ، مرتكزا له في نقاشه وجدله ،
على انه ليس في اقواله ما يشير الى رفضه الكلي لنظرية ابن الاثير في تنوع معنى
السجعتين .

-
- ١ - الفلك الدائر : ١٧٩
 - ٢ - الفلك الدائر : ١٧٩
 - ٣ - المصدر نفسه

ويكاد ان يكون ايجابيا تماما في موقفه من نظرة ابن الاثير الى علاقة
المعنى بالنحو فابن الاثير وان كان يؤكد الاهمية الاساسية لعلم النحو في علم
البيان من الفشر والنظم حين يراه بمنزلة ابجد في تعليم الخط (١) ، لا يجد
لمجمل اقسام النحو اهمية فيما يتعلق بالمعنى ، فأكثرها - كالجزم والحال والتمييز
والاستثناء والمجرورات والمفعولات - غير ضرورية في اجمال المعنى الى الافهام ،
ودليله على ذلك " انك لو امرت رجلا بالقيام فقلت له - قم - باثبات الواو
ولم تجزم ، لما اختلف من فهم ذلك شيء ، واذا قلت : جا زيد راكب ، ولم
تبين اعرابا لما توقف الفهم على نصب الراكب " (٢) واما ما يحتاج اليه من
اقسام النحو في المعنى فهو قلة ومنه تقديم المفعول على الفاعل ، فقد يسبب
خلوها من العلاقة الإعرابية التباسا في فهم المعنى كما في " ضرب زيد عمرو "
بالوقف على الفاعل والمفعول ، فلا ريب انه في هذا الوضع لا بد وان يحصل
التباس في ايها الضارب وايها المضروب ، ومن هذا القبيل الآية " انما يخشى
الله من عباده العلماء " فهنا ايضا يذهب ابن الاثير الى ان المعنى يتوقف
على بيان علامة الاعراب في كل من الفاعل والمفعول (٣) ، وهو ما يناقضه فيه
زميله ابن ابي الحديد .

-
- ١ - المثل السائر ١ : ٤٤
 - ٢ - المثل السائر ١ : ٤٥ ، وقال في الجامع الكبير : ٢ " اما علم النحو فهو الذي يستقيم به معاني الكلام وتضمن عرى تأليفه عن الانحلال والانفصام ، ولولا ذلك لفسدت معانيه واختلت مبانيه فوجب حينئذ على المؤلف بهذا الدليل معرفة النحو اذا كان ضابطا لمعاني كلامه ، حافظا لها من الاختلالات " .
 - ٣ - المثل السائر ١ : ٤٥

فهو يرى ان تلك الآيـة معناها مفهم بالوقف وبدون اظهار العلامة الاعرابية فيها ، ويأتي بتعليل فقهي ومنطقي لما يراه فيقول " لاننا لو وقفنا على الفاعل والمفعول منها لم يحصل التباس لعلمنا ان الله لا يخشى احدا من العلماء ولا من غيرهم ، فالآيـة تدل بنفسها لا بعلاقة لفظية على انه تعالى مفعول وان العلماء فاعل " (١) . ومن ثم لا تصلح هذه الآيـة للتمثيل على وجوب التقيد بالاعراب طالبا لفهم المعنى ، خلافا لغيرها ما مثل به ابن الاثير على نظريته الآنفـة الذكر ، وهو ما نستنتجه من عدم تعرض ابن ابي الحديد لها بالنقض او النقاش ، كما نستنتج من اكتفائه برده المتقدم على جميع ما اورده زميله في بحثه لعلاقة المعنى بالنحو - انه يتشى معه فيما ذهب اليه .

ولكن الصفدى يتخذ موقفا مناقضا لموقف زميله هذين ، حين يبدى انكاره الشديد لما ارتآه ابن الاثير ، ويندد به بقوة مصرحا ان مثل هذا القول لا يصدر الا عن " عوام الناس ومن لم يتلبس بالمعرفة ومن لم يرح رائحة العلم " (٢) وان اية رسالة ادبية لا تراعى فيها قواعد الاعراب تكون موضع سخيرة من قبل المغفلين فضلا عن العقلاء . ثم يدعم تصريحه بايراد اقوال لبعض الصحابة والتابعين يحضون فيها على تعلم العربية واتقانها تلافيا للحن الذى هو " نسي الكلام القبح من آثار الجدرى في الوجه " . (٣) ولا يقتصر على ذلك بل انه ليعمد الى شي* من المبالغة في تأكيد اهمية النحو حين يجعله نظيرا للفروض

١ - الفلك الدائر : ٤٢

٢ - نصره الثائر : ٦٦

٣ - المصدر نفسه : ٦٧

الدينية ، ذاكرا ان بعضهم استدل على ان النحو فرض كفاية ، وان البعض الاخر ذهب الى ان الله لا يقبل الدماء اذا لم يكن معربا ، وليس هذا فقط ، بل ان التحديث مع الجهل بالنحو يضا هي في العقوبة الكذب المتعمد على النبي (١) .

ولا يخفف من موقفه الحاد هذا ما ذكره ابن الاثير من ان لبعض اقسام النحو ضرورة في توضيح المعنى - لانه يرى ان النحو بجميع اقسامه وضروره لا غنى عنه في هذا المقام ، ومن ثم فانه يضع قاعدة عامة لعلاقة النحو بالمعنى فيقول " لا يتوصل الى معرفة الغامض الا بعد معرفة الواضح ومن لم يعرف البين لم يعرف العويص ليتنقل في الفهم من الأدنى الى الأعلى " (٢) .
وبكلام آخر : النحو ضروري لتمكين الفهم من الاحاطة بالمعنى سواء كان الكلام واضحا بينا او غامضا مستغلفا . وفي هذا كله نرى الصفاي أميل الى التعميم - دون تحليل او تدليل - سواء في رفضه لرأى ابن الاثير ، او في وضعه هو نفسه لقاعدته المضادة .

ربما تقدم يمكننا القول ان النقاد الثلاثة - فيما عدا المسألة الاخيرة هذه - يتفقون في الافكار الاساسية الواردة في مجمل القضية . فقد تناول ابن الاثير المعنى من بعض خصائصه وجوانبه مثل : الطرافة والوضوح وعدم التعقيد والتناسب والتقوية والوحدة والتنوع ، ودعم ذلك كله بالامثلة والشواهد ان نظما او نثرا ، ولكن ردود زميليه دارت في معظمها حول بعض الامثلة ، فأبدي ابن ابي الحديد

١ - نصره القائل : ٦٧

٢ - المصدر نفسه .

اعتراضه على التأويل اللغوي والنحوي لقسم منها ، وهرض تأويله الخاص لها ،
كما في : التدرج في المعنى ، وفي التكرير ، وعلاقة المعنى بالنحو ، وتبني
موقفا دفاعيا عن الصابي الذي ندد به ابن الاثير اثناء الحديث عن التخلص
والافتتاحيات وتنوع المعنى في السجعتين ، ودعم الصفدى موقف زميله ابن ابي
الحديد من التدرج في المعنى ، ولكنه عرض بالنقد لبعض افتتاحيات ابن الاثير
من حيث المعنى وتناول الحقائق العلمية ، وأبرز خروج الاخير على الذوق العام
في تقييم بعض امثلة المعاني المبتدعة ، وختم اقواله برفض كلي لنظرية ابن الاثير
في علاقة النحو بالمعنى .

في العلاقة بين اللفظ والمعنى

يقول ابن الأثير : " اعلم أن العرب كما كانت تعتنى بالألفاظ فتصلحها وتهذبها فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها ، وأشرف قدرا في نفوسها ، فأول ذلك عنايتها بألفاظها لأنها لما كانت عنوان معانيها وطريقها إلى إظهار أغراضها أصلحها وزينوها وبالغوا في تحسينها ليكون ذلك أوقع لها في النفس وأذهب بها في الدلالة على المقصد فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها ورفقوا حواشيها وصللوا أطرافها ، فلا تظن أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ فقط ، بل هي خدمة منهم للمعاني " (١) .

ويكرر هذا القول ولكن بإيجاز في موضع آخر فيقول : " فالعرب إنما تحسن ألفاظها وتزخرنها عناية منها بالمعاني التي تحتها فالألفاظ إذا خدمت المعاني والمخدم لا شك أشرف من الخادم " (٢) .

ويفيد هذان النصان أمورا منها ما يراه ابن الأثير من أن المعنى أشرف من اللفظ وأجل قدرا لأنه مخدم واللفظ خادم له ، وأنه لا ينفرد بهذا التصور

-
- ١- المثل السائر ٢: ٦٥ وفي الجامع الكبير : ٢٠ قول معادل مع شيء من التفصيل
 - ٢- المصدر نفسه ٢: ٦٩ قال في الجامع الكبير : ٧٢ " فالعرب إنما تحلّي ألفاظها وتديبها وتوشئها وتزخرنها عناية منها بالمعاني التي تحتها أو توصلها بها إلى إدراك مطالبها ، فالألفاظ إذا خدمت المعاني ، والمخدم لا شك أشرف من الخادم " قابل هذا بقول الجرجاني في دلائل الإعجاز : ٤٤ " ولا سيما ما ذكرت من أنه لا يتصور أن تعرف اللفظ موضعا من غير أن تعرف معناه وأنت إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولا حقة بها " .

وأما يسير فيه على هدي من العرب فهو لا* اهتموا بتحسين اللفظ وزخرفته
خدمة للمعنى كي يأتي أوضح غاية وأقوى تأثيرا في النفس، فالمعنى هو
الغاية وما اللفظ إلا وسيلة لإدراكه .

غير أن ابن الأثير لا يغفل عن تأثير اللفظ والمعنى في بعضهما البعض
لذا نراه يقف عند بعض جوانب هذا التأثير مثل : ١- المناسبة بين اللفظ
والمعنى ٢- والمساواة بينهما ٣- وتوكيد اللفظ للمعنى ٤- وقوة اللفظ
لقوة المعنى ٥- وتغيير المعنى بتغيير الوضع اللفظي ٦- وأثر التكلف في
اللفظ على المعنى .

١- وقد عرض ابن الأثير لمناسبة اللفظ للمعنى في حديثه عن الجزل
والرقيق من الألفاظ حين نص على وجوب مراعاة اللفظ للمعنى أو الغرض الذي
يتطلبه " فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد
والتخويف وأشبه ذلك ، وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق ، وذكر
أيام البعاد وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشبه ذلك " (١) .
فوصف المواقف الجادة أو العارمة يتطلب لفظا جازلا ، والمعاني الوجدانية
تتطلب لفظا رقيقا ليحدث تناسب وتلازم بين اللفظ ومعناه . وقد يتأثر
المتلقى بهذا التلازم أو التآلف تأثيرا قويا ، فيحدث عنده نوع من التفاعل يرى
بموجبه الكلام وكأنه صور مجسدة " فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص

عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولبين أخلاق ولطافة مزاج^(١). وهذا نوع من التأثير الإيجابي للفظ على المعنى، ولكن قد يقابله تأثير سلبي على أولهما حين يؤدي المعنى إلى ابتذال اللفظ.

والمبتذل من الألفاظ - كما يقول ابن الأثير - هو ما غيرت العامة دلالة من معنى وضع له في أصل اللغة إلى معنى آخر^(٢)، ومنه ما يكره ذكره مثل لفظة الصم في بيت المتنبي:

أذاق الغواني حسنه ما أذقني وهف فجازاهن عني بالصم

فقد غيرت العامة المعنى الأصلي في اللغة للفظ الصم وهو القطع، إلى المعنى الشائع المتداول بينهم^(٣).

ومنه ما هو غير مستقيم أو مكروه مثل كلمة الظرف، فهذه اللفظة تتعلق بالنطق خاصة فغيرتها العامة عن أصلها اللغوي، وقد وصف أبو نواس بها الوجه كما وصف بها أبو تمام الخلق، وكلاهما مخطئ في ذلك^(٤) إلا أن هذا

١- المثل السائر ١: ٢٥٢.

٢- المصدر نفسه ١: ٢٥٤. وله كلام مشابه مع التمثيل بالببيت نفسه في الجامع الكبير: ٤٩.

٣- المصدر نفسه ١: ٢٥٥.

غلط لا يوجب في هذه اللفظة قبحا ، ولكنه جهل بمعرفة أصلها في وضع اللغة^(١) . وكأنني باين الأثير يريد أن يقول ، إنه لا يليق بالمعنى الشريف إلا اللفظ الشريف^(٢) ، وإنه إذا فقد التناسب أو التآلف بين اللفظ والمعنى لم يتأت للكلام أن يؤدي الغرض المطلوب على الوجه الصحيح ، وضعفت قوته على الإيحاء أو التأثير النفسي .

ويبدو أن هذا ما يذهب إليه أيضا كل من ابن أبي الحديد والصفدي ، إذ لا يرد لهما نقض لما تقدم به زميلهما ، ولكننا نجد لابن أبي الحديد اعتراضا على تخطئة أبي نواس وأبي تمام في استعمالهما للفظه الظرف على غير أصلها اللغوي . فهو يرى أن هذا الموضع مما اختلف فيه الناس حين ذهب بعضهم الى مثل قول ابن الأثير ، بينما قال البعض الآخر ان الظرف هو الكياسة * ومعلم ان الكياسة لا تكون راجعة الى النطق اللساني خاصة ، وهي كل الأحوال فأبو نواس لم يغلط لأن أداة الظرف وهي اللسان على

١- المثل السائر ١: ٢٥٦-٢٥٧ . وقال في الجامع الكبير: ٥٠ " وأما الضرب الثاني ٠٠٠ ففيه عيب واحد وهو انه وضع في كلام العرب لمعنى فجعلته العامة دألا على غيره ، إلا أنه ليس بمستقيح ولا مستكروه ، وذلك كتسميتهم الإنسان ظريفا إذا كان دمك الأخلاق ، وحسن الصورة واللباس ، وطيب الريح وما هذا سببه . والظريف في أصل اللغة بخلاف ذلك ٠٠٠٠ ، إذ الظرف يتعلق باللسان لا غير " .

٢- وهو قريب من عبارته في الجامع الكبير: ٢١ " فإنه جدير بالمعنى الشريف أن يكون لفظه شريفا " .

ما يريد جزء من أجزاء الوجه^(١) وكأنما يريد توضيح سلامة موقف أبي نواس من استعمال اللفظة هامة بالإشارة إلى جواز إطلاق اللفظ على الكل وإرادة الجزء منه .

ويرى كذلك أن قول أبي تمام " مذهب لا بأس به لأن تهذيب الأخلاق ورياضتها وتسهيل حزنها وتدميته مما يعين على حسن التوصلات المنطقية، ويؤثر في تلطيف الألفاظ وإصابة الأغراض بهما " . ويدل على رأيه بالإشارة إلى أن النبطي الجاني " لا يكاد يبلغ أغراضه بالكلام، ويحسن التوصل إلى إدراك ما يرويه بلسانه، بخلاف من قد خالط وجرب وراهن أخلاقه وهذب نفسه، فمن هذا الوجه جعل أبو تمام دماثة الخلق مؤثرة في الظرف، وإن كان عائدا إلى النطق اللساني خاصة^(٢) وكأنه يعني أن هناك علاقة تأثيرية بين الظرف ودماثة الخلق، يمكن معها إطلاق لفظة الظرف على الخلق، وإن كان الظرف خاصا بالنطق، فهو في النهاية يتمشى مع قول ابن الأثير في هذا المقام .

٢ - وعرض ابن الأثير للمساواة بين اللفظ والمعنى حين قال " وأما الذي يجب توحيه واعتماده فهو أن يسلك المذهب القويم في تركيب الألفاظ على المعاني بحيث لا تزيد هذه على هذه مع الإيضاح والإبانة^(٣) . وهو ما

١ - الفلك النائر : ١٢٥ .

٢ - المصدر نفسه : ١٢٦ .

٣ - المثل السائر ٢ : ٢٦٩ . وانظر العبارة بنصها تقريبا في الجامع الكبير :

يتوفر في الإيجاز حيث أنه " دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه " (١)
وتقع المساواة في ضرب من الإيجاز يسمى التقدير " وهو ما ساوى لفظه معناه " (٢)
ومثل الناقد عليه ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأخبار العرب وأقوال
الشعراء ومنها أبيات أبي نواس السينية والتي مطلعها :

" ودار ندامي عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس " (٣) .

ولكن قد يزيد المعنى على اللفظ فيعمد آنذاك الى حذف المفرد والجملة
من الكلام والإكفاء بدلالة الفحوى على المحذوف . وقد جعل ابن الأثير
حذف الجمل ضرباً أربعة هي (٤) : حذف السؤال المقدر ويسمى الاستئناس ،
والإكفاء بالسبب عن المسبب وبالعكس ، والإضرار على شريطة التفسير ، وما ليس
بواحد من الأنواع الثلاثة المتقدمة .

-
- ١- المثل السائر ٢ : ٢٢٠ .
 - ٢- المصدر نفسه : ٣٣٢ . قال قدامة في نقد الشعر : ٨٤ " ومن أنواع ائتلاف
اللفظ مع المعنى المساواة وهو أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى حتى لا يزيد
عليه ولا ينقص عنه وهذه هي البلاغة التي وصف بها بعض الكتاب رجلاً فقال :
كانت ألفاظه قوالب لمعانيه أي هي مساوية لها لا يفضل أحدهما على الآخر " .
وفي الصناعتين : ١٢٩ ما يتأثل قول قدامة هذا .
 - ٣- المثل السائر ٢ : ٢٤٦ .
 - ٤- المصدر نفسه ٢ : ٢٨١ - ٢٨٩ .

وجعل حذف المفردات أربعة عشر ضرباً (١) هي كل من : الفاعل ،
والفعل وجوابه ، والمفعول به ، والمضاف والمضاف إليه ، والموصوف والصفة ،
والشرط وجوابه ، والقسم وجوابه ، ولو وجوابها ، وجواب آما ولما ، وجواب إذا ،
والمبتدأ والخبر " ولا " مع ارادتها في الكلام ، والوار .

وأورد على كل ضرب مما تقدم ما يناسبه من الأمثلة والشواهد القرآنية
والنثرية والشعرية .

وتتعدم المساواة حين تزيد الألفاظ على المعاني ، وهو ما يعتبره ابن
الأثير من باب التطويل الذي لا حاجة إليه ، ومنه قول القائل :

" طلوع الشايا بالمطايا وسابق الى غاية من يبتدرها يقدم "

فلان ذكر - المطايا - في صدر البيت " فضلة لا حاجة إليه وهو تطويل بارد
فك " (٢) . أما إذا ورد في الشعر ألفاظ زائدة يقصد بها تصحيح الوزن
مثل - لعمري يا صاحبي ، فلا عيب فيها لأن الوزن قد يضطر الشعراء
إلى الاستعانة بها ، ولكنها إذا وردت في الكلام المنشور فلأنها إن وردت
حشوا ولم ترد لفائدة كانت عيباً " (٣) ، فهو بذلك يرى أن من عيوب الكلام
احتوائه على ألفاظ لا فائدة لها في معناه أو في تحسين هذا المعنى .

١- المثل السائر ٢: ٢٩٥-٣٢٩ . ولا ين الأثير كلام مماثل عن الإيجاز في

الجامع الكبير : ١٢٤-١٤٠ .

٢- المصدر نفسه ٢: ٢٧١ .

٣- المصدر نفسه ٢: ٢٧٣ .

وقد وقف كل من ابن أبي الحديد والصفدي عند أقوال ابن الأثير في الإيجاز والتطويل، وواقترعا في ردهما على مناقشة ما أورده من شرح أو تدليل أو تعليق على أمثله . ومن ذلك ما اعترض به ابن أبي الحديد على تنديد ابن الأثير بلفظة المطايا، وتدليله على زيادتها في بيت الشعر الواردة فيه . ^١ فحين ذهب إلى أنها ليست من باب التطويل، وللمبرهنة على ذلك خرجها على وجهين، فأشار في أولهما إلى أن الشاعر " كنى بالمطايا عن ساعيه وآثاره ومقاماته التي تقدم بها في معالي الأمور واكتسبها وسماها مطايا لأنها هي التي أوصلته إلى المعالي، كما يصل الإنسان بالمطية إلى مقصده " (١) .

ولجأ إلى المنطق في تخرجها على الوجه الثاني حين أشار إلى أن زميله قسم المعنى في البيت إلى قسمين، فجعل في أحدهما المطايا زائدة، وفي الثاني جعل الثنايا هي الزائدة، وانتهى من اشارته تلك إلى القول " فلأن استدلاله لا ينتج المطلوب، لأنه إنما كان ينتج المطلوب لو ثبت زيادة قوله بالمطايا على كلا القسمين، فأما إذا كان أحد القسمين لا يقتضي زيادتها، هل زيادة غيرها، فقد بطل قوله ودعواه أن ذكر المطايا فضلة لا حاجة إليها على كلا الوجهين " (٢) . فبهذا التحليل المنطقي يبين ابن أبي الحديد أن لفظة المطايا ليست من التطويل بشيء، وأن لها معناها ودلالاتها في البيت .

١ - الفلك الدائر : ٢٧٣ .

٢ - المصدر نفسه : ٢٧٥ .

وأما الصفدي فيتناول حكاية أوردها ابن الأثير كمثل على التطويل المعيب فينتقد به أولا للاستشهاد بها ، ثم يجعلها نظيرا لرواية الحديث في تطلب ضبط الزمان والمكان ، وهو ما يحتاج إليه بصفة خاصة في الوقائع الغريبة ، ومثل هذه الواقعة التي أوردها غريبة في الوقوع ، وهي بعيدة في الزمن ، واتفاقها غريب . . . ويحتاج مثل ذلك الى ضبط الزمان والمكان والعصر ومن حضر ذلك ، ليكون ذلك قرائن يتمسك بها السامع في الصدق ، والمحافظة على ذلك والنقل له أبعد من الكذب وأنفى للريب^(١) .

ثم يستشهد بمثال من كتاب الأغاني على فائدة التطويل في مواضع معينة .
ومنه نستنتج انه وزميله ابن أبي الحديد لا يحترضان على نظرية زميلهما الثالث ابن الأثير ، ومن ثم جاء اعتراضهما على جزء ضئيل من أمثله .

ونكاد لا نجد أي رد للصفدي على أقوال ابن الأثير في الإيجاز ، سوى تعليق عام أورده الأول على تمثيل الثاني في مساواة اللفظ لمعناه ، بأبيات أبي نواس السينية المتقدم ذكرها ، ويقول فيه مبينا تناقض موقف ابن الأثير من تلك الأبيات " هنا يحد هذه الأبيات في الطبقة العليا ، . . . ومن قبل أوردها وقال : إن الجاحظ أوردها وعظمها . وهنا وقاها حقها ، وهناك كابر نفسه ،

١- نصره الثائر : ٢٩٤ .

٢- يشير الصفدي الى قول ابن الأثير بعد أن أثبت رأي الجاحظ في الأبيات المذكورة : " ولعمري أن الجاحظ عرف فوصف وخبر فشكر والذي ذكره هو الحق " . أنظر المثل السائر ٢ : ٣٤٦ .

وهذا دليل على عدم الإنصاف" (١).

وهو باقتضاره المناقشة على مثل واحد، لا يتمشى مع ابن أبي الحديد الذي يقف عند عدد من أمثلة ابن الأثير على الإيجاز بالحذف، ومنها التمثيل على الإضرار على شريطة التفسير ببيت أبي تمام :

" يتجنب الآثام ثم يخافها
أو كما يروي في بعض النسخ :

" يتجنب الآثام خيفة فيها
فكأنما حسناته آثام" (٢)

وتأتي مناقشة ابن أبي الحديد في شرح زميله لمعنى البيت بصورته الأولى ورفضه الأخذ بالرواية الثانية، فيخالفه في شرحه، ويثبت ما فهمه هو من معنى البيت (٣)، كما يخالفه في موقفه من الرواية الثانية، ويخرج المعنى فيها على مذهب بعض المفسرين القائل بأن البيت محمول على القلب وتقديره: كأن آثامه حسنات، ويحدد تفسير المعنى المقلوب والتنويه بأن القلب يأتي في الكلام كثيرا وأن في القرآن شيء منه، يؤكد صحة الرواية الثانية بقوله "فالرواية التي أفسدها وزعم أنها لا تصح صحيحة غير منكورة" (٤).

-
- ١- نصره الثامر: ٢٩٦.
 - ٢- المثل السائر ٢: ٢٨٧-٢٨٨.
 - ٣- الفلك الدائر: ٢٧٦.
 - ٤- المصدر نفسه: ٢٧٧.

وواضح ان الإختلاف إنما هو في فهم معنى المثال ، لا في مدى مطابقتها للنظرية، وفي مناقشته لأمثلة ابن الأثير على حذف الجمل والمفردات ، يحتمل ابن أبي الحديد القواعد النحوية ، ويطبق ما جاء في تلك الأمثلة عليها ، فيرفض التمثيل على حذف الجمل بآيات معينة من سورة النحل (١) ويرى أنه لا حاجة إلى حذف وإضمار فيها ، لأنه يمكن تخريبها على وجهين في النحو ، يثبت بموجبه ان التقدير في الآيات يغني عن الحذف وهو ما فعله في هذا الموضع (٢) .

ومما مثل به ابن الأثير على حذف الفاعل الآية " كلا إذا بلغت التراقي " وقد استدل بها على جواز حذف الفاعل خلافا لما نص عليه ابن جني من عدم جواز ذلك (٣) . فيأتي ابن أبي الحديد ويؤيد الأخير في موقفه قائلا " إن البصريين كلهم قد منعوا حذف الفاعل لقاعدة مقررة عندهم وهي ان الفاعل ينزل منزلة جزء من الكلمة " (٤) . ثم يورد أريحا وجوه يستدل بها على تنزيل الفاعل منزلة جزء من الكلمة ، ومن ثم لا يجوز حذفه ويختم نقاشه بقوله " إن قوة العلم بالفاعل في بعض المواضع تقم مقام ذكره أو ذكر ما يدل عليه " (٥) .

-
- ١- أنظر في ذلك المثل السائر ٢: ٢٩٤ .
 - ٢- الفلك الدائر : ٢٧٨ .
 - ٣- أنظر المثل السائر ٢: ٢٩٦ .
 - ٤- الفلك الدائر : ٢٧٩ .
 - ٥- المصدر نفسه : ٢٨٠ .

وفي الآية تلك الفاعل معلوم دون ذكره وهي النفس . ويجدر الإشارة هنا إلى أن ابن الحديد أثبت في رده الآية (حتى توارت بالحجاب) بدلا من الآية موضع البحث ، والمرجح أن يكون ذلك سهواً سيما وأن تقدير الفاعل في الآيتين واحد وهو النفس .

ويضي في تناول أمثلة ابن الأثير من الوجهة النحوية ، فيقف عند قول الأخير إن الفعل قد يحذف لدلالة المفعول عليه كما في (أهلك والليل) بنصبها معاً^(١) فينقضه قائلاً : "ظاهر هذا الكلام أنه انتصب اللفظان بإضمار فعلين ، وهو خلاف ما تقوله النحاة لأنهما عندهم منصوبان بفعل واحد تقديره بادر أهلك والليل ومعناه بادر أهلك قبل الليل"^(٢) .

ويلين في موقفه من تمثيل زميله على حذف لو بقول الشاعر :

" لو كنت من مازن لم تستج إبلي بنو اللقيطة من زهل بن شيبانا
إذا لقام بنصري معشر خشن عن الحفيظة إن ذو لوثة لانساً"^(٣)

وذاك حين يقول : "إن هذه المسألة تثبني على أن العامل في البديل هو العامل في المبدل منه أم لا ؟ فإن لم يثبت ذلك لم يصح هذا الكلام ، لأنه جاز أن يكون قوله (إذا لقام بنصري) بدلا من قوله (لم تستج إبلي) لأنه في

١- المثل السائر ٢: ٢٩٨ .

٢- الفلك الدائر ٢٨٢ .

٣- أنظر في ذلك المثل السائر ٢: ٣٠٠ .

معناه ، والفعل يبدل من الفعل إذا كان في معناه ، وإذا لم يحتج في
البديل إلى تكرير الحامل لم يحتج هنا إلى تكرير لو ، فإن لم تثبت هذه
القاعدة فلأن ما ذكره صحيح لا ريب فيه ^(١) ، وبهذا يوضح أنه لعدم
تسكنه من الجنم في تخرج البيت الثاني على نحو آخر وفقا لقاعدة معلومة
في البديل ، فإنه لا يسعه سوى التسليم بصحة التمثيل على حذف لو .

ومن ذلك كله نرى ان ابن أبي الحديد يتكلم في مناقشته على القواعد
النحوية أو اللغوية ، وهو في ذلك يختلف عن ابن الأثير الذي يبدو أنه
لا يأخذ ذلك في اعتباره حين يتحدث عن الوجه البلاغي في مواضعه
ونظريات المختلفة ، غير أن الاختلاف جاء في الأمثلة لا في النظرية .

٣- وقريب من هذا موقف ابن أبي الحديد من ابن الأثير في تقوية
المعنى ، فقد جعل ابن الأثير من توكيد الألفاظ وتكرارها عاملا مؤثرا في
تقوية المعنى وتشبيته حين قال في توكيد الضميرين : " إذا كان المعنى
المقصود معلوما ثابتا في النفوس فانت بالخيار في توكيد أحد الضميرين فيه
بالآخر ، وأما إذا كان غير معلوم وهو مما يشك فيه فالأولى حينئذ أن يؤكد

أحد الضميرين بالآخر في الدلالة عليه لتقرره وتشبته " (١) . ومن ذلك تأكيد المتصل بالمتصل ، والمتصل بالمنفصل ، والمنفصل بالمنفصل ، ومما مثل به على النوع الأول الآية (ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا) (٢) وعلى الثاني الآية (قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى) (٣) وكما جاء من تمثيله على النوع الثالث قول أبي تمام :

" لا أنت أنت ولا الديار ديار خف الهوى وتولت الأوطار "

وقول المتنبى :

" قبيل أنت أنت وأنت منهم وجدك بشر الملك الهمام " (٤)

مع شرح المعنى البلاغي الذي يتضمنه كل مثال .

١- المثل السائر ٢: ١٩٢ . قال في الجامع الكبير : ١٥٥ " إذا كان المعنى المقصود ظاهرا معلوما قد ثبت في النفوس ، وورس في الألباب فأنست بالخيار بين أن تؤكد أحد الضميرين بالآخر في الدلالة عليه وبين أن تقتصر على أحدهما دون الآخر ، لأنك إن وكدت الكلام فيه فقد أعطيت المعنى حقه وإن لم تؤكد الكلام فيه فلأنه لا يحتاج إلى تأكيد لبيانه وظهوره . وإذا كان المعنى المقصود خافيا ليس بظاهر ولا معلوم فالأولى تأكيد أحد الضميرين فيه بالآخر ليقرره ويكسبه وضوحا وبيانا " .

٢- المثل السائر ٢: ١٩٣ .

٣- المصدر نفسه : ١٩٤ .

٤- المصدر نفسه : ١٩٧ .

وأما التكرار فقد أشار إليه في حديثه عن التكرير في اللفظ والمعنى وحده عنده " هو دلالة اللفظ على المعنى مردداً " (١) . وقد يأتي لمعنى وهو المفيد كما يأتي لغير معنى فيكون غير مفيد ، وأما فائدته فلأنه " يأتي في الكلام تأكيداً له وتشبيهاً من أمره ، وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشئ " الذي كررت فيه كلامك ، أما مبالغة في مدحه أو زمه أو غير ذلك " (٢) .
ومما جاء في هذا النوع الآية " يريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون " (٣) .

ومما مثل به على التكرير غير المفيد قول أبي نواس :

" أتمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً له يوم الترحل خامساً "

وقول المتنبّي :

" ولم أر مثل جيرانني ومثلي لمثلي عند مثلهم مقام " (٤) .

وقد وصف الأول بأنه بيت سخيف دال على الكمي الفاحش ، كما أن التكرير في الثاني " هو التكرير الفاحش الذي يؤثر في الكلام نقصاً " (٥) .

١- المثل السائر ٤:٣ .

٢- المصدر نفسه .

٣- المصدر نفسه ٥:٣ . وانظر في ذلك الجامع الكبير: ٢٠٤ .

٤- المصدر نفسه ٣:٢٤-٢٥ . في الجامع الكبير: ٢٠٤ يمثل ابن الأثير بيت

المتنبّي دون تحليق .

٥- المصدر نفسه ٢:٢٥ .

ويبدو أن ابن أبي الحديد لا يقوه على رأيه هذا فهو يرى ان التمثيل
ببيت المتنبى على التكرار غير المفيد تمثيل غير جيد ، لأنه لم يحدث فيه تكرار
في اللفظ والمعنى حيث ان المتنبى لم يذكر في صدر البيت سوى نفي روية
مثله ومثل جيرانه دون أن يبين في ماذا ، فلما اتبعه بعجز البيت أزال ذلك
الابهام ، وعلى ذلك لا يتكرر فيه اللفظ والمعنى " ولكن اول ألفاظه يحطى معنى
مجمل ، والثاني يحطى معنى مفصلا وهو شرح ذلك المجمل ، فلم يكن ذلك تكريرا
مشملا على اعادة اللفظ والمعنى معا " (١) . ومن ثم لا ينطبق هذا المثال
على التكرير المذكور ، غير أن ابن أبي الحديد يصرح باستحسانه للأمثلة التي
أوردها ابن الأثير على التكرار المفيد (٢) ، ثم يقف عند هذا الحد في تناوله
لقضية التكرار في اللفظ والمعنى ، مما يوحي بتأييده لما أورده زميله فيها .

ويتناول التوكيد بالضميرين تناولا نحويا يبدو في نقاشه لأمثلة ابن الأثير
في الموضوع ، حين يرى أن بيتي أبي تمام والمتنبى (لا أنت أنت) و (قبيل أنت
أنت) لا يصلحان للاستشهاد بهما على توكيد الضمائر " وذلك ان التوكيد ما
لو حذف وبقي المؤكد يبقى اللفظ دالا على المعنى إلا أنه غير مؤكد له . . .
ولو حذف أنت الثانية من بيت أبي تمام أو من بيت المتنبى لخرج الكلام عن
الافادة أصلا ، وكيف يفيد وهو مهتدا وخبر وقد حذف الخبر " (٣) . ويدلل على

-
- ١- الفلك الدائر : ٢٨٥ .
 - ٢- المصدر نفسه : ٢٨٤ .
 - ٣- المصدر نفسه : ٢٢٩ .

قوله هذا بشرحه للمراد من البيتين المذكورين وينتهي من ذلك الى التأكيد بأن المعنى فيهما غير التوكيد " وقد اشتبه على هذا المصنف لا محالة " (١) . ومن ثم فإن هذين البيتين خارجان عن باب التوكيد بالضميرين كما تخرج عنه الآية (لم أقل لك انك لن تستطيع معي صبرا) والتي مثل بها ابن الأثير على توكيد المتصل بالمتصل وفي ذلك يقول ابن أبي الحديد " ولكن تمثيله بهذه الآية على تأكيد الضمير المتصل فليس من هذا الباب أصلا وإنما عدى بالفعل منها الى المفعول بحرف الجر لا غير ، ولو كان هذا توكيدا للضمير لكان قولنا مرتت يزيد تأكيدا للضمير وهذا ما لا يقوله أحد " (٢) . ويخرج من ذلك كله بنتيجة هي انه كان غرض ابن الأثير البحث في علم البيان ، فإنه في توكيد الضميرين لم يخرج الكلام فيه إلا على الاصطلاح النحوي " فلما أراد أن يطبق الآيات والأشعار عليها وقع في الغلط " (٣) . وبهذا يشير الى التباين بين نظرية ابن الأثير وتطبيقه عليها دون التعرض للنظرية في حد ذاتها بشي " .

ويخالفه في ذلك الصفدي حين يقف عندما ذكره ابن الأثير من أن بحثه في توكيد الضميرين يختص بالفصاحة والبلاغة فيه ، وهو ما لم يتعرض له النحاة (٤)

-
- ١- الفلك الدائر : ٢٢٩ .
 - ٢- المصدر نفسه : ٢٣٠ .
 - ٣- المصدر نفسه : ٢٣١ .
 - ٤- انظر المثل السائر : ٢ : ١٩١ .

فيؤكد ان معظم نحو الأئمة النحويين المتقدمين هو معان وبيان وان أكثر ما
دون في علم المعاني مذكور في كتبهم ولكن عندما جاء عبد القاهر الجرجاني
جرد ما ليس بإعراب وجمعه ودونه مرتبا ومبينا فصار علما منفردا وتنبه علماء
البلاغة من بعده لهذا فساروا على نهجه^(١) ومن ثم قلن من لا يعرف النحو
جيدا لا يستطيع طرق الأبواب البلاغية في أبحاثه والدليل على ذلك الزمخشري
فهذا " لما كان عارفا بالنحو تيسر له في تفسيره ما لا تيسر لغيره وهاقتداره
على الإعراب والنظر في أسرار العربية وتعليل أحكامها أورد تلك الإشكالات
وأجاب عنها تلك الأجوبة المرفقة"^(٢) وأصبح بكتابه الكشاف مرجعا لعلماء
العربية والتفسير .

ويجعل الصفدي انفصال البلاغة عن النحو واللغة نظيرا لانفصال الفقه عن
الحديث فكما أفرد أبو حنيفة الفقه عن الحديث وتبعه في ذلك الفقهاء - بحيث
أصبح علما منفصلا - كذلك أفرد علم المعاني والبيان عن النحو وجعل علما
مستقلا بنفسه^(٣) . وهو يعنى بتوضيحه هذا ان صلة النحو بالبلاغة أوثق وأقوى
ما يراه ابن الأثير وان النحو والبلاغة متلازمان لا متباينان وخاصة في بعض
ما عرض له زميله هذا مثل توكيد الضميرين حيث كان مما مثل به على الموضوع
الآية (قالوا يا موسى أما أن تلقى ولما ان نكون نحن الملقين)^(٤) فقد التقط

-
- ١- نصره الثائر: ٢٨١-٢٨٢ .
 - ٢- المصدر نفسه : ٢٨٢ .
 - ٣- المصدر نفسه : ٢٨٤ .
 - ٤- المثل السائر: ٢: ١٩٢ .

الصفدي الآية هذه وبدأ في نقاشه للتمثيل بها بقوله : " ظهرت فائدة ما قررته أنا من أن المعاني والبيان جزء من النحو ، وإذا خرجا عن القواعد النحوية ، خبط قائلهما خبط عشواء " والدليل على ذلك أنه قرر في القاعدة التي له ان المعنى اذا كان ثابتا في النفس ، فأنت مخير في تأكيد أحد الضميرين بالآخر " (١) ، ثم نفى ان تكون هذه القاعدة مطلقا لأن التأكيد هو التكرار ومن شرط هذا ان يتم المعنى بدونه والأمثلة على ذلك كثيرة ، على أنه قد يتكرر الضمير ولا يجوز حذفه كما في قوله تعالى (وقتنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) لأن أحد الضميرين متدرج وجها في فعل الأمر اسكن . ولتحليل ذلك أورد الصفدي أقوال بعض كبار النحاة ومنهم ابن مالك صاحب الألفية ، وخلص من ذلك كله الى القول بأن هذا لا ينطبق على الآية المذكورة آنفا . ثم طرأ بعض التراجع على موقفه حين صرح بأن آيته التي أتى بها ليست من باب التوكيد ، وإنما يستشهد بها على عدم جواز العطف على الضمير المستتر ، ولكن هذا كله لم يضعه من القول ان عبارة ابن الأثير في تقرير قاعدته لا تفي بالقصد و " تحتاج الى ان تكون محكمة غير موهمة " (٢) ، ولأ تعرضت للنقص والاعتراض . فهنا أيضا أحال الصفدي ما مثل به زميله على القواعد النحوية غير عابى بقصده البلاغي .

١- نصره الثائر : ٢٨٥ .

٢- المصدر نفسه : ٢٨٦ .

ولكنه يفارق النحو في مناقشته لتمثيل ابن الأثير على التكرير في اللفظ
والمعنى ، فهو يقتصر على الوقوف عند بيت أبي نواس :

” أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً له يوم الترحل خامس ”

فيرفض ما ذكره زميله من أن مراد الشاعر هو الإقامة أربعة أيام ، وأن
التكرير في البيت عيب فأحسن^(١) ، ويشير إلى أن بعض المتأدبين ذهب إلى
كون الإقامة أسبوعاً ثم يؤكد أن البيت كما ورد يراء صاحب الذوق أحسن من
القول : أقمنا بها أسبوعاً على إيجاز القول هذا . ويستدرك فيقول إنه حتى
لو سلم بقول ابن الأثير من جهة الإقامة ، فإن التكرار في البيت قصد به معنى
لا يوجد إلا فيه ” وهو أن المقام في هذه الحالة مقام وصف لأيام قطعها في
لذة فأخذ يحدد أفراداً غير جملة ويقول : أقمنا بها يوماً ويوماً كالمتلذذ
بهيئة كل يوم استحضرها في ذهنه وهذا أمر متعارف في الخير والشر ”^(٢)
ومن هذا قول الشاعر :

” سقى الله نجداً والسلام على نجد ، ويا حبذا نجد على النأي والبعد ” .

١- انظر في ذلك المثل السائر ٢: ٣٤٦ .
٢- نصره الثائر : ٣١٥ . وقال في الغيث المسجم ١: ١٧١ ” قلت أبو نواس أجل قدرا
من أن يأتي بهذه العبارة لغير معنى طائل وهو له في مثل هذا مقاصد
جلية يراعيها ومذاهب يسلكها وأما معنى البيت فإن المفهوم منه أن المقام سبعة
أيام لأنه قال وثالثاً ويوماً أي آخر له اليوم الذي رحلنا فيه خامس . وابن الأثير
لو أمعن الفكر في هذا ربما كان يظهر له ” .

حيث كرر الشاعر لفظه نجد تلذذاً بذكرها وتحرقاً بالشوق اليها (١).

فالاختلاف هنا ناجم عن كيفية تذوق كل من الناقدين للبيت ، وحسب هذا التذوق حكماً على سلامة التكرير فيه أو فساده ، غير أنه يمكن القول انه في اشارة الصفدي إلى ما يضيفه التكرير الى معنى البيت ، تأكيد على اتفائه مع ابن الأثير في ان التكرار يقوى المعنى ويثبته .

٤- ويبدو انه يتفق معه أيضا فيما أورده هذا من آراء ونظرات حول قوة اللفظ لقوة المعنى ، فإنه لا يورد عليه شيئا في هذا الموضوع .

وقد نوه ابن الأثير في هذا الباب بتأثير تغير وزن اللفظ او صيغته على المعنى فقال " أعلم ان اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل الى وزن آخر اكرر منه فلا بد من ان يتضمن من المعنى اكرر مما تضمنه أولا ، لأن الألفاظ أدلة على المعاني ، وأمثلة للإبانة عنها ، فلذا زيد في الألفاظ أوجهت القسمة زيادة المعاني ، وهذا لا نزاع فيه لبيانه ، وهذا النوع لا يستعمل إلا في مقام المبالغة " (٢) .

١- نصره الشاعر : ٣١٥ .

٢- المثل السائر ٢ : ٢٥٠ .

غير أن الزيادة في الألفاظ لا توجب زيادة في المعاني إلا إذا تضمنت معنى الفعلية ، كإسم الفاعل ، والمفعول ، والفعل نفسه ، فالفعل خشن دون اخشوشن ، وكذلك اقتدر أبلغ وأقوى في المعنى من قدر ، كما أن وزن فعال يدل على كثرة صدور الفعل خلافا لفاعل الذي لا يدل على الكثرة ، ومن ذلك ثواب وحقار ، فإنهما يفيدان كثرة التوبة والمغفرة وتكررها من الفاعل (١) . ولكن قد يأتي هذا الوزن في مقام النفي فينعكس المعنى إلى ضده ، ومن ذلك لفظة حَيَّاه ، فقد وردت منفية في البيت :

” ومخش حرب مقدم متعرض للموت غير مكذب حَيَّاه ”

وقصد الشاعر بها المبالغة في وصف شجاعة الرجل ، فنعكس النفي قصده بحيث أصبحت تدل على الجبن لأنه إذا ” كان هذا الرجل غير حَيَّاه كان حائدا أي وجدت منه الحيدودة مرة واحدة ، وإذا وجدت منه مرة كان ذلك جهنا ولم يكن شجاعا والأولى أن كان يقال : غير مكذب حائدا ” (٢) .

وأما من حيث تغيير صيغة اللفظ فلان ابن الأثير يرى أن ” قوة اللفظ لقوة المعنى لا تستقيم إلا في نقل صيغة إلى صيغة أكثر منها ، كقول الثلاثي إلى الرماحي ” (٣) ، ومن ذلك صيغة فعل مثل قتل الرماحية المنقولة عن الثلاثي قتل ،

١- المثل السائر ٢: ٢٥٢ .

٢- المصدر نفسه ٢: ٢٥٤ .

٣- المصدر نفسه ٢: ٢٥٥ .

فإن الفائدة من هذا النقل هي التأكيد وكذلك يقال في لفظة كَلِمَ بمعنى جرح^(١)، وأما صيغة فعل الرباعية أصلاً مثل (رتل) فلأنها لا تفيد التأكيد لأن المراد بها أن تكون القراءة على هيئة التأني والتدبر، وعلى ذلك فإنه يحترض على جمهور علماء العربية لجعلهم لفظة (علم) أبلغ في معنى العلم من (عالم) وهما رباعيتان لا زيادة لإحدهما على الأخرى، بل إنه ليخالفهم مخالفة تامة حين يرى أن عالماً هي الأبلغ لكونها اسم فاعل من فعل (علم) المتعدي، بينما علم اسم فاعل من فعل (علم) الذي هو على وزن اللانم مثل شرف، وكرم، وينتهي من ذلك كله إلى القول وشبههم خفي "ولربما كان ما ذهبوا إليه لأمر خفي عني، ولم أطلع عليه"^(٢).

ويقف ابن أبي الحديد عند هذا القول فيوضح أن العرب لم ينصوا على أن فعلاً للمبالغة ولكنهم نهبوا عليه باستعمالهم آياه خبراً عن الجماعة وأجراً صَفَّته على المذكر والمؤنث وما جاء منه خبراً الآية (ان رحمة الله قريب من المحسنين) وما جاء منه وصفاً لمؤنث ومذكر قول الشاعر:

"جلون العيون النجل ثم رمينا بأعين أعداءه وهن صديقي"^(٣)

١- المثل السائر ٢: ٢٥٥/٢٥٦

٢- المصدر نفسه ٢: ٢٥٧ في الجامع الكبير: ١٩٤-١٩٥ يبحث ابن الأثير

بلاغة فاعل وفعيل، مؤكداً أن فاعلاً أبلغ من فعيل.

٣- الفلك الدائر: ٢٧١.

ويحلل ذلك من الوجهة النحوية فيقول ان فعلا في هذا الموضع أشبه
بفعل لأنه صفة مثله وثالثه حرف مد ، وقد اخبر بفعل عن الجماعة في الآية
(فلأنهم عدّوا لي إلّا رب العالمين) فهنا عدّوا على صيغة فعل وهي تستعمل
أيضا مع المؤنث والمذكر فيقال : امرأة شكور ورجل شكور ، وفي الموضعين استعملت
للمبالغة والكثرة . أما السبب في هذا الاستعمال فيرجع الى ان فعول على وزن
(فعول) المصدر مثل دخول - وليس بينهما سوى الفتحة والضمة على أولهما .
ويحد أن يستشهد بقول ابن جنى في هذا الموضع ، يختم نقاشه بقوله ان مجيء
فعل من أفعال الغرائز لا ينافي وقوه للمبالغة (١) .

ويكتفي مما ذكره ابن الأثير في قوة اللفظ لقوة المعنى بالوقوف عند بعض
الأمثلة ، ومنها لفظه "حياد" فيعرض على شرح زميله لمعناها ويتخذ من القياس
مرتكزا له في نقاشه حين يقول : " فعلى هذا القياس يكون قوله تعالسى : (وما
ربك بظالم للعبيد) يقتضي أن يكون دالا على نفي تكّره الظلم ، ويكون مفهوما
ذلك وفحواه انه يظلم العباد ظلما قليلا ، كما كان فحوى بيت الشاعر أن هذا
المرثي يجبن نادرا (٢) . وكذلك يكون معنى قول النبي (صلح) في علي بن
أبي طالب (كزار غير فرار) انه لا يكثر الفرار بل يقرّ أحيانا في النادر ، ولم
يعرف عن علي الفرار مطلقا في الحرب .

١- الفلك الدائر : ٢٧١-٢٧٢ .

٢- المصدر نفسه : ٢٦٢ .

ثم يوضح هدف العرب من استعمال صيغة فعال في النفي والإيجاب وكيف أن ابن الأثير لم يتنبه للفرق بين الاستعمالين فيقول : " واعلم أن العرب إذا استعملت هذه اللفظة في النفي فإنهم لا يحنون بها إلا ما يحنون بلفظة فاعل فقط ، ولو شئت أن أذكر من ذلك الأمثلة الكثيرة لذكرتها ، فأما فـ في الإثبات فإنهم قل أن يستعملوها إلا في الكثرة والتكرير كما ذكره هذا الرجل ، وكان الواجب أن يتصفح كلامهم ويفرق بين استعمالهم لها نفيًا واستعمالهم لها إثباتًا " (١) .

وهذا يبدي موافقته على جانب مما أورده زميله في استعمال صيغة فعال ويرفض جانبها آخر منه وهو مما يختص بشرح المثال المتقدم .

ونرى له مثل هذا الموقف المتراجح بين الموافقة والمخالفة في مناقشته لقول ابن الأثير أن صيغة فعل من الثلاثي تعطي معنى التكثير والقوة ، فهو يعترض على هذه القاعدة ويرأها غير مطردة ، فقد يأتي الثلاثي بالتخفيف والتشديد دون اختلاف في المعنى كما في (قصر من الصلاة وقصر منها) ، ولا يبدي اعتراضًا على قول زميله أن الفعل المشدد الرباعي أصلاً لا يدل على الكثرة كما في (كلم) ولكنه يرى أن التمثيل بلفظة (رتل) لا ينطبق على القاعدة هذه لأن لها صيغة ثلاثية (٢) .

١- الفلك الدائر : ٢٦٨ .

٢- المصدر نفسه : ٢٦٩-٢٧٠ .

٥- وينفرد ابن أبي الحديد أيضا في الرد على ابن الأثير في رأيه حول تغير المعنى بتغير الوضع اللفظي في الكلام ، وقد أشار الأخير الى هذا في حديثه عن التقديم والتأخير . فذهب إلى أن تقديم اللفظ أحيانا يجعل المعنى أبلغ ، ومن ذلك تقديم المفعول على الفعل ، والخبر على المبتدأ ، والظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل ، إذ يتضمن الكلام حينئذ معنى الإختصاص^(١) ، وقد يأتي تقديم المفعول على الفعل لتغيير معنى الإختصاص كما في كثير من الآيات القرآنية ، فإن التقديم فيها يرد مراعاة لحسن نظم الكلام " وذاك أن يكون نظمه لا يحسن إلا بالتقديم ، وإذا آخر المقدم ذهب ذلك الحسن ، وهذا الوجه أبلغ وأؤكد من الإختصاص^(٢) . وهذا يخالف ابن الأثير الزمخشري في قوله إن التقديم في الآية (إياك نعبد وإياك نستعين) قصد به الإختصاص ، ذاهبا إلى أن المقصود به مراعاة "حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون ، ولو قال : نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة وزال ذلك الحسن ، وهذا غير خافي على أحد من الناس فضلا عن أرباب علم البيان^(٣) .

١- المثل السائر ٢: ٢١٧ . قال في الجامع الكبير: ١٠٩ " اعلم ان التقديم والتأخير . . على ضربين : أحدهما يكون التقديم هو الأولى والأبلغ لموضع الإختصاص ، والآخر يكون التأخير هو الأولى والأبلغ ؛ إما الفائدة تقتضي ذلك ، وإما خوفا من فساد المعنى واختلاله) .

٢- المثل السائر ٢: ٢١٨ .

٣- المصدر نفسه : ٢١٩ .

وأما في قوله تعالى (أرغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم) فقد قدم خبر
المبتدأ عليه لأنه كان أهم عنده " وفي ذلك ضرب من التعجب والإنكار لرغبة
إبراهيم عن آلهته وأن آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها وهذا بخلاف ما لو
قال : أنت راغب عن آلهتي " (١) .

ورأى أيضا ان تقديم الظرف أولى من تأخيره في حالة الكلام المثبت وفائدته
إسناد الكلام الواقع بعده الى صاحب الظرف خاصة كما في قوله تعالى (إن علينا
لإياهم ثم ان علينا حسابهم) ، وأما تقديمه في حالة النفي كما في الآية (لا
فيها غول ولا هم عنها يشرفون) فإنه يفيد تفضيل المنفي عنه على غيره (٢) .

ورأى أخيرا ان تقديم الحال في (جاء راكبا زيد) يشير الى عدم احتمال
كون زيد غير ذلك أي غير راكب ، ويجري الاستثناء هذا المجرى في مثل (ما
قام إلا زيدا أحد) (٣) .

قلنا ينفرد ابن أبي الحديد أيضا في الرد على هذه المسألة وهو لا
يناقش ابن الأثير في القول إن تقديم اللفظ في التركيب يؤثر على المعنى ،
لأنما يفند شرحه للمعنى الحاصل بعد التقديم ، فيرفض أن يكون تقديم المفعول

١- الظل السائر ٢: ٢٢٢ .

٢- المصدر نفسه : ٢٢٦ .

٣- المصدر نفسه . وله كلام مماثل في الجامع الكبير : ١٠٩ - ١١٢ .

على الفعل دالاً على الإختصاص كقاعدة مطردة ، فإن من الإختصاص ما يفهم من سياق الكلام أو القرينة كما في الآية (بل الله فاعبد) إذ تقدمها من الكلام المنزل ما يصح بالإختصاص ، ولو قال في هذا السياق (بل اعبد الله) لأفاد الإختصاص لا محالة ، فلا تأثير هاهنا في الإختصاص المعلوم ، لا لتقديم المفعول ولا لتأخيره (١) .

ولكنه يأخذ بقول الزمخشري بالإختصاص في الآية (إياك نعبد وإياك نستعين) حين يقول " ان كان تقديم المفعول يقتضي الإختصاص كما يراه الزمخشري وجماعة من أهل العربية ، فلا مانع من أن يكون المراد من قوله ... كلاً الأمرين : الإختصاص والسجع ولا منافاة بين هذين المطلبين " (٢) .

ويرفض أن تكون الآية (أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم) من باب تقديم الخبر على المبتدأ " لأن قوله (أراغب) اسم فاعل معتمد على همزة الإستفهام فيكون قوله (أنت) في موضع رفع بالفاعلية إلا على القول الضعيف المتروك " (٣) . وقد أورد قوله هذا ضمن جدل طويل ناقش فيه معنى الآية المتقدمة ومعظم أمثلة ابن الأثير في الموضوع ، مرتكراً على القواعد النحوية في نقاشه هذا .

١ - الفلك الدائر : ٢٤٧ .

٢ - المصدر نفسه : ٢٤٧-٢٤٨ .

٣ - المصدر نفسه : ٢٥٥ .

وأما فيما يختص بتقديم الظرف فإنه يرى انه لا يفيد الإختصاص مطلقا ،
وأن في الآية التي مثل بها زميله على ذلك ، أفادت القرينة الكلامية الإختصاص
لا مجرد الصيغة^(١) . ويرفض تفسير زميله لتقديم الظرف في حالة النفي كما
في الآية (لا فيها غول) فيقول : " وليس تفسير هذا الرجل لقوله تعالى (لا
فيها غول) بأن المراد تفضيلها على الخمر التي فيها غول بأولى من أن
تعكس القضية عليه ، ويفسر نحو قوله تعالى (لا لغو فيها) بأنه يدل على
تفضيلها على خمر الدنيا التي فيها اللغو والتأثم فيجعل حرف النفي إذا
باشر المنفي وتأخر الظرف دالا على الأفضلية ، وإذا تقدم الظرف دالا على
النفي المطلق على مناقضة ما ذكره ، فإنه لأفضل بين القولين إلا مجرد التسمي
والتحكيم .^(٢)

كما يرفض ان يكون تقديم الحال يفيد الاختصاص ويرى أن " هذا لغو من
القول " ^(٣) . ويرى انه لا فرق في الاختصاص بين تقديم المستثنى وتأخيره
ولكن إن " كان هذا الرجل بذوقه وحسه قد تفتن لإختصاص زائد على هذا
المعنى عند تقديم المستثنى لا يؤخذ عند تأخيره ، فهذا الرجل قد أدرك ما
غفل عنه الأولون والآخرون ، ورزق حسا وذوقا وقف بهما على ما لم يقف عليه غيره ،

١- الفلك الدائر : ٢٥٨ .

٢- المصدر نفسه : ٢٦٠ - ٢٦١ .

٣- المصدر نفسه : ٢٦١ .

ولا كلام لنا مع من هو بهذه الصفة ، وإنما نتحدث مع أمثالنا وأشكالنا ، وأما من ترقى إلى طبقة أخرى فلان أمره يجل عن ذلك^(١) .

ومنه يتضح أن ابن أبي الحديد لا يكفي برفض معظم أقوال ابن الأثير في التقديم اللفظي وأثره على المعنى ، وإنما يتناول موقفه مجتازاً بتعليق متهم ساخر ، يوصي فيه إلى خروج زميله على آراء الأولين والآخرين ، وتفرد به بآراء يصعب معها التصدي لمناقشته .

ويبدو أن الصفي وجد في رد زميله ابن أبي الحديد ما يخفيه عن التصدي للموضوع نفسه ، فلان لا نسمع له صوتاً يتردد في ذلك ، ولكنه خلافاً لزميله يتصدى بالرد على ابن الأثير في حديثه عن علاقة تكلف اللفظ بالمعنى .

٦ - وقد أظهر ابن الأثير نفوره من التكلف في اللفظ وأعمال الصنعة فيه وعلى الخصوص حين يؤدي ذلك إلى ركافة المعنى وهلهلته ، ومثل لهذا النوع من التكلف بما فعله الحريري من إيراد رسالتين تتعاقب في إحداها الكلمات المعجمة والمهملة ، وتتعاقب في الأخرى الحروف المعجمة والمهملة^(٢) ، وكذلك

١ - الفلك الدائر : ٢٦٢ .

٢ - أنظر نص الرسالة الأولى في مقامات الحريري : ٦٢ ضمن المقامة السادسة المرافية أو الخيفا . وتسمى الثانية الرقطة ونصها في المقامة السادسة والعشرين : ٢٥٦ من المصدر نفسه .

بنظم شاعر لقصيدة كل بيت منها أول للبيت الذي يليه ، وعقب على هذا كله بقوله " وهذا الكلام المصوغ مما أتى به الحريري في رسالته وأورده ذلك الشاعر في شعره لا يتضمن فصاحة ولا بلاغة ، وإنما يأتي ومعانيه غثة باردة ، وسبب ذلك أنها تستكره استكراها وتوضع في غير مواضعها ، وكذلك ألفاظه فلإنها تجرد مكرهة أيضا غير ملائمة لأخواتها" (١) . كما أشار الى نظم شاعر مغربي لقصيدة على شكل شجرة بحيث يقرأ كل بيت منها بطرق مختلفة تبعا لشعب تلك الشجرة ، وعقب عليه قائلا " وكل ذلك الشعر وإن كان له معنى إلا أنه ضرب من الهذيان ، والأولى به وبأمثاله ان يلحق بالشعبذة والمعالجة والمصارعة لا بدرجة الفصاحة والبلاغة" (٢) ، وهو قول ينم عن مدى إنكاره واستهجانه لأية محاولة أدبية يتعمد فيها التكلف والتصنع في الألفاظ والصيغة لما يجره ذلك على المعنى من ضعف وإسفاف .

ويقف الصفدي من هذا كله عند تنديد ابن الأثير برسالتي الحريري ، فيقرر ما فعله بقوله : " إن الحريري - رحمه الله تعالى - لم يأت بما أتى به من هذه الأنواع ، وأدعى أن هذا هو الفصاحة والبلاغة ، وإنما أتى بذلك ليستوعب أنواع الأدب ، ويبين للأديب ما يلزمه معرفته ، وكل ذلك دليل القدرة والتمكن" (٣) .

-
- ١- المثل السائر ٣ : ٢١١ .
 - ٢- المصدر نفسه .
 - ٣- نصره الثائر : ٣٦٩ .

ولكنه يستدرك فيشير إلى أن أتباع مثل هذا النمط في جميع المقامات غير مستحسن، وإن كان لا نفا ببعضها، كما أنه مكروه ومستثقل في الترسُّل والخطب لتنافيه مع أغراض الترسُّل والتي لا يليق بها التكلّف. ثم يوضح رأيه في استخدام التكلّف والتعمية عامة، حين يذكر " أنه وإن كانت هذه الأنواع في المقامات فينبغي أن تكون كاللمع اليسيرة فإنها إذا كثرت سمجت " (١).

ويمضي في حديثه عن التكلّف، فينتوه بأنه قد يأتي الشاعر المجيد بنوع من التكلّف لا أثر فيه للكلفة كما في قول القائل :

" لبق أقبل فيه هيف كل ما أملك إن غنى حبه " (٢)

وبعد لإيراد أمثلة شعرية أخرى على هذا النوع من التكلّف يذهب إلى أن أقل هذه التكاليف استئثالا ما كان كلفه مهلا، بل إنه ليجدّه غير مستثقل بالصورة " بل هو خفيف عذب في السمع والقلب كقول الحريري :

" أعدد لحسادك حدّ السلاح وأورد الآمل وردّ السماح " (٣)

ومن ذلك أيضا خطبة للقاضي الفاضل وضعها لدخول العام الجديد وهي

١- نصره الشاعر : ٣٦٩ - ٣٧٠ .

٢- المصدر نفسه : ٣٧٠ .

٣- المصدر نفسه : ٣٧١ .

مهملة كلها وفي غاية الحسن فكما يؤتى بهذا النوع نظما يؤتى به نشوا
ويستساغ في كليهما . وينتهي من ذلك كله الى التعريض بابن الأثير
فيقول " وأما ابن الأثير فكانه يظن ان الأدب عبارة عن الترسل فقط ولم
يعلم انه جزء منه وان كان جزءا كبيرا ونوعا جليلا " (١) .

ما تقدم يمكننا أن نتبين وجهة نظر الصفي في هذا الموضوع ،
لانه لا يرى للتكلف تأثيرا سينا مطردا على المعنى ، فهو وان كان مكروها
في النشر والخطب ، إلا ان بعضه يتناسب وبعض الأنواع الأدبية مثل المقامات
بل ان منه نوعا لا يحثبه الصفي تكلفا مطلقا . ومن ثم يبدو الصفي وكأنه
من يذهبون الى تأنيق اللفظ وزخرفته وان أدى ذلك الى توهين المعنى ،
خلافًا لزميله ابن الأثير الذي يرفض أي تكلف أو تصنع أو تعقيد في اللفظ .

ويظل الناقد الثالث ابن أبي الحديد خارج الموضوع نهائيا ، وتظل
دوافعه لاتخاذ مثل هذا الموقف السلبي مجهولة ، ولكن لا يبعد ان يكون
من بينها تضامنه مع زميله ابن الأثير في موقفه المعادي للتكلف .

ولكن ، فيما عدا هذا الموضوع - يمكننا القول ان النقاد الثلاثة يتفقون في
المبدأ ، وتتباين وجهات نظرهم في التفاصيل . وقد رأينا ان ابن الأثير

جعل العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة الخادم بالمخدم ، وتطرق من ذلك إلى بعض جوانب الموضوع مما له تأثير على اللفظ والمعنى ، ومنها : التآلف بينهما من حيث التناسب ، والمساواة ، والتوكيد ، والتقوية ، وتغيير المعنى بتغيير ترتيب اللفظ في الصيغة ، وأخيرا تأثير التكلف اللفظي على المعنى . غير ان مناقشة زميلنا لهذا كله حامت حول الأمثلة ، من حيث المفهوم ، أو مدى المطابقة للقاعدة او النظرية . وقد تقارب الإثنان الى حد ما في تناولهما للشواهد حين جعلنا من معظمها مسائل نحوية لا بلاغية كما نص عليه ابن الأثير .

مشكلة السرقات

ينطلق ابن الأثير في حديثه عن السرقات الشعرية من اعتقاد تام بأنه لا فرق بين أخذ الناثر من الناظم أو أخذ الشاعر من الشاعر، وعلى ذلك فهو يرى أنه كما ساغ للأول الاستعانة في إنشائه بمعاني المنظوم، يسوغ للثاني أخذ ما يحتاجه من التراث الشعري شريطة أن يعتمد في ذلك "التورية والاختفاء" بحيث يكون ذلك أخفى من سفاد الخراب^(١). ولكن الحذاقة في هذا الأخذ لا تقتصر على المهارة في الإخفاء، فلا بد من إضافة نوع من الطرافة والغرابة يبدو معها وكأنه جديد مبتكر لم يسبق إليه أحد. وهذا لا يعني تسليم ابن الأثير بقول القائل إنه لم يبق لمتأخر معنى مبتدع بعد أن سبقه الأولون إلى كل معنى^(٢). إنه يرى لتطور الظروف المعيشية والحضارية والسياسية أثرا كبيرا في نمو المعاني وتشعبها واحتوائها للمزيد من الابتداع والغرابة المعنوية، ومن ثم فإن "باب الابتداع

١- المثل السائر ٣: ٢١٨ وقال ابن طباطبا في هذا المعنى: ٧٧ من كتاب عيار الشعر: "ويحتاج من سلك هذه السبيل إلى الطرافة الحيلة وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها وتلبسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها ويفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق إليها". وانظر ما أورده العسكري في الصناعيتين: ١١٨ في المعنى نفسه.

٢- أنظر المثل السائر ٣: ٢١٦. وقال في الاستدراك: ٦ "ان اطلاق قول القائل بأن المتقدم أفضل من المتأخر، أو أن أولئك اخترعوا المعاني وابتدأوها فلن هذا قول غير متجه" وقابل هذا بقول ابن طباطبا في عيار الشعر: ٨ "والحفة على شعراء زماننا في أشعارهم أشد منها على من كان قبلهم لأنهم سبقوا إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح".

للمعاني مفتوح الى يوم القيامة ومن الذي يحجر على الخواطر وهي قاذفة بما
لا نهاية له؟^(١)

إلا أن الخواطر قد تتوارد على معان ظاهرة وتتساوى في إيرادها فلا
يحزى فيها الابتداع للأول دون الآخر ومن هذه المعاني قول القائل في الغزل:

" عفت الديار وما عفت آثارهن من القلوب "

وقولهم " إن الطيف وجود بما يبخل به صاحبه " وكذلك " ان عطاءه كالبحر والسحاب
وما أشبه ذلك.^(٢)

فالأخذ من المعاني الشائعة المتداولة لا يعد سرقة^(٣) وإنما يطلق اسم
السرقة في معنى مبتدع بخصوص مثل قول أبي تمام :

-
- ١- المثل السائر ٣: ٢١٩ .
 - ٢- قال في الاستدراك: ٦ "ومن المعاني قسم قد تساوى فيه جميع الشعراء ولا بد
لهم من التوارد عليه . . . مثل قولهم في المديح: إنه بحر أو سحاب إذا وصفوه
بالسخاء وأنه أسد إذا وصفوه بالشجاعة . . . وأشبه ذلك . . . وقال الأمدى في
الموازنة: ٥٣ في الحديث عن تداول المعاني " ان كان غير منكر لشاعرين متناسبين
من أهلي بلدين متقاربين أن يتفقا على كثير من المعاني ولا سيما ما تقدم الناس
فيه وتتردد في الأشعار ذكره وجرى في الطباع والاعتیاد من الشاعر وغير الشاعر
استعماله " . . . وعقد القاضي الجرجاني في الوساطة فصلا في تداول المعاني وعرض
فيه للمعاني المشتركة والخاصة . أنظر الوساطة: ١٨٣ وما بعدها .
 - ٣- قال أبو هلال العسكري في الصناعتين: ١٩٧ " وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون
على تداول المعاني بينهم فليس على أحد فيه عيب إلا إذا أخذه بلفظة كله
أو أخذه فأفسده وقصر فيه عن تقدمه " .

" لا تتكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا في الندى والياس
فاله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس "

وقد جاء أبو تمام بهذا التشبيه في مناسبة معينة فكان معنى مبتدعا خاصا به
" فمن أتى من بعده بهذا المعنى أو بجزء منه فإنه يكون سارقا له " (١) ولكن
هل ثمة دليل يهتدى به في السرقات الشعرية؟ إن ابن الأثير لا يعدم حيلة
في ذلك فهو يذهب الى أن من أدل الدلائل على السرقة ان يورد الشاعر
المتأخر شيئا من ألفاظ المتقدم في معنى من المعاني ولو لفظة واحدة (٢) .
فاستعارة اللفظ بل اللفظة الواحدة لدليل دامخ على السرقة مهما تحايل الشاعر
على إخفائها من جهة المعنى .

ويقسم ابن الأثير السرقة الى خمسة أقسام رئيسية هي النسخ : وهو أخذ
اللفظ والمعنى برمتهم من غير زيادة عليه ، والسليخ : وهو أخذ بعض المعنى
والمنسخ : وهو إحالة المعنى الى ما دونه ، والرابع : أخذ المعنى مع الزيادة
عليه ، وأما الأخير : فهو عكس المعنى الى ضده (٣) . وتتفرع هذه الأقسام فروعها
عدة فيصبح مجمل أنواعها ستة عشر ضربا ، ويتناولها ابن الأثير بشيء من التفصيل
مشيرا إلى أنواع منها يرى أنها تكاد تخرج عن باب السرقة لحسنها ، ومنها
عكس المعنى بطريقة تصح السرقة معها خفية جدا لا تكاد تدرك ، وأولى بهذا

١- المثل السائر ٣ : ٢٢٠ ، وانظر قول ابن الأثير في معنى هذين البيتين في
الاستدراك : ١٢ .

٢- المصدر نفسه ٣ : ٢٢٢ .

٣- المصدر نفسه . في الجامع الكبير : ٢٤٢ يقتصر ابن الأثير على ذكر النسخ
والسليخ والمنسخ ، وانظر بحثه في الأقسام الخمسة للسرقات في الاستدراك : ٦١
وما بعدها .

الضرب أن يسمى ابتداءاً لا سرقة^(١) ومن السرقات الحسنة : أخذ المعنى وسبكه في عبارة أحسن (من العبارة الأولى فهذا) هو الحمود الذي يخرج به حسنه عن باب السرقة" وكأنه يوسى" الى أن المعنى المسبوق إليه يصبح من حق الشاعر المحدث إذا أخذه فأخفاه في حذاقة أو تفوق في صياغته ونظمه على من أخذه منه^(٢) .

(٤) ويقف وقفة طويلة عند ضرب من السلخ يسميه "اتحاد الطريق واختلاف المقصد" أي اتفاق الشعارين في التوارد على معنى أو غرض واحد واختلافهما في كيفية تناوله وصياغته والهدف من بحثه في هذا الضرب هو المفاضلة أو الموازنة بين شاعرين ، لا في بيتين منفردين وإنما في قصيدتين متكاملتين ، وقد طبق نظريته هذه على قصيدتين للمتنبى والبحترى في وصف الأسد^(٥) ، وخرج من المفاضلة

١- المثل السائر ٣: ٢٤٥ . وقريب منه قوله في الاستدراك: ٦٥ " وهذا حسن ، لا بل هو أحسن المآخذ والطفها " .

٢- المصدر نفسه ٣: ٢٥٤ . وفي الاستدراك: ٦٨ يذكر هذا النوع دون تعليق .

٣- نظير هذا قول ابن طباطبا في عيار الشعر: ٧٦ " وإذا تناول الشاعر المعاني التي قد سبق إليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يجب بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه " . وقول أبي هلال العسكري في الصناعتين : ١١٧ " ومن أخذه فكساه لفظاً من عنده أجود من لفظه كان هو أولى به ممن تقدمه " .

٤- المثل السائر ٣: ٢٦٥ . وفي الاستدراك: ٧٠-٧٣ يذكر هذا الضرب ويفاضل بين البحترى والشريف الرضي في وصف الذئب .

٥- انظر المثل السائر ٣: ٢٨٥ - ٢٨٦ . قابل هذا بما ورد في الموازنة ١: ٧ " ولكي أقارن بين قصيدة وقصيدة إذا اتفقتا في الوزن والقافية وأعراب القافية ، وبين معنى ومعنى ، ثم أقول أيهما أشعر في تلك القصيدة وفي ذلك المعنى ، ثم أحكم أنت حينئذ على جملة ما لكل واحد منهما إذا أحطت علماً بالجيد والردي " .

بينهما بأن البحثري "وان كان أفضل من المتبني في صوغ الألفاظ وطلاوة السبك، فالمتبني أفضل منه في الغوص على المعاني" (١). وإذا استرجعنا في أذهاننا أن ابن الأثير يؤثر المعنى على اللفظ، استطعنا القول أن حكمه جاء في جانب المتبني .

ولا يقتصر على المفاضلة بين المعنيين المتفقين، وإنما يرى إمكانية التفضيل بين المختلفين، وإن كان هذا أصعب من الأول (٢)، وعلى ذلك فإنه يرفض ما ذهب إليه البعض من منع المفاضلة بين المعنيين المختلفين "فإنه لو كان ما ذهب إليه هؤلاء من منع المفاضلة حقاً لوجب أن تسقط التفرقة بين جيد الكلام ورديته، وحسنه وقبحه وهذا محال" (٣). فالمحول كله على الأصل الذي تقع المفاضلة فيه سواء اتفقت المعاني أم اختلفت، ويختم كلامه في هذا الموضوع بالإشارة إلى تأليفه لمقالة مفردة ضمنها الحكم بين المعنيين المختلفين، وأقام الدليل على ما نصر عليه، إلا أنه لم يوردها في المثل السائر لأنه ألفها بعد تداول الناس للكتابة (٤). وفي هذه الإشارة تأكيد لنظريته في المفاضلة بين المعاني المختلفة .

-
- ١- المثل السائر ٣: ٢٨٧ .
 - ٢- المصدر نفسه ٣: ٢٦٦، ويؤكد رأيه في الاستدراك : ٥٨ .
 - ٣- المصدر نفسه : ٢٧٠ .
 - ٤- المصدر نفسه : ٣٨٩ . قال في الاستدراك : ٦٠ "وقد صنفت كتاباً وسميته "بالرسالة في المعاني المبتدعة" وأشارت فيه إلى المفاضلة بين الكلامين المختلفي المعنى وحققت القول في ذلك فليؤخذ من هناك" .

غير أن الآراء هذه لا تجد صدى لدى ابن أبي الحديد فهو يخفل أمرها كلية ولا ندري هل يعود ذلك الى أنه يوافق على ما جاء فيها أم لأنه يراها قضية معادة كثر تداولها وتكرر القول فيها فليس ثمة كبير أهمية في تناولها من جديد، أو ان ضيق وقته لم يتح له الوقوف عندها (١).

ربما كان أول هذه الأسباب أرجحها لا سيما وأن للصفدي من مجمل القضية موقفا يقرب الى حد ما من موقف زميله ذاك فهو لا يعرض لما ذكره ابن الأثير إلا من حيث التمثيل على الموضوع وجاءت مناقشته في موضعين اثنين فقط .

أما أولهما فيأتي تعقيبا على تعليق للأخير أبدى فيه عجبه وانكاره من عدم اكتشاف أهل الشام ومصر ان المعنى في بيت ابن الخياط (٢) :

"أغار إذا آتست في الحى أنه كؤارا عليه أن تكون لحيه"

ماخوذ من بيت المتبني :

"لو قلت للذئف المشوق فديته ما به لأغزته بفدائه"

١- ذكر ابن أبي الحديد انه أتم تصنيف الفلك الدائر في خمسة عشر يوما فقط . (انظر الفلك الدائر : ٣٤) .

٢- أحمد بن محمد بن علي التخلبي الدمشقي الكاتب وكان من الشعراء المجيد بن وطاف البلاد مادحا . ولد وتوفي بدمشق سنة ٥١٧ هـ وله ديوان مطبوع بدمشق ١٩٥٨ . (انظر في ترجمته : وفيات الأعيان ١ : ١٤٥ ، والنوادي ٨ : ٦٧ ، وجزر الذهب ٤ : ٣١ وغيرها)

وأن المعنى في بيت عمارة البيهني^(١) :

" وهل درى البيت أني بعد فرقته ما سرت من حرم إلا إلى حرم "
 مأخوذ من بيت أبي تمام في مدح بعض الخلفاء وقد حج :
 " يا من رأى حرماً يسعى إلى حرم طوبى لمستلم يأتي وملتمسزم^(٢) "

ففي تحقيقه يعلل الصفدي خفا السرقة في مثل البيهني المذكورين بأن الأصل يكون ركيكا وساقطا من الاستعمال فيأتي بعض الشعراء ويبرز معنى الأصل ويسبكه سبكا أرشق وألطف مما كان عليه فيحلو ويتداوله الناس وغير عابئين بالبحث عن أصله ومن ثم ينتسب البيت الأصل .

وهو لا يجد الأدباء ملومين لعدم تتبعهم السرقات في الشعر لأنه ليس في استطاعة كل أديب استخراج أي معنى مما يمر به دون أن يتروى ويحقق فيه وخاصة فيما كان عذبا سائغا ولا شك أن قول ابن الخياط أعذب من قول المتشبي ولهذا اشتهر وكذا قول عمارة أحسن وأرق من قول أبي تمام ولهذا ساغ واشتهر واستعمل مثلا على تأخر زمانه وتقدم زمان أبي تمام خصوصا عجز بيت عمارة فإنه ذاع وضاع وملأ الأنواء والأسماع^(٣) .

١- عمارة بن علي بن زيدان الحكمي البيهني فقيه شافعي شاعر أديب . ولد في اليمن واستوطن مصر ومدح الفاطميين ورتاهم . اشترك في مؤامرة ضد صلاح الدين فأسره (وقيل صلبه) سنة ٥٦٩ هـ (أنظر في ترجمته الروضتين ١ : ٥٧٢ هـ ومفج الكروب ١ : ٢١٢ / ٢٣٨ والوفيات ٣ : ٤٣١ وغيرها) .

٢- المثل السائر ٣ : ٢٢٣-٢٢٤ .

٣- نصره الشاعر : ٣٧٦ .

إذا ليس لتقدم الشاعر زماناً أو شهرته ورسوخ قدمه في ميدانه أثر في ذبوع نتاجه ودورانه على السنة الناس، بل العمدة في ذلك إنما هو عدوثة اللفظ وجمال السبك، واللذان إذا توفرا في نظم شاعر متأخر عملاً على اشتهاار شعره، وتسويغ أخذه للمعنى من المتقدم .

ولعلنا أدركنا من قول الصفدي هذا أنه يسلّم بما أورده ابن الأثير من أقوال في تسويغ السرقة الشعرية، وهو ما يؤكد موقفه من تمثيل ابن الأثير على أحد ضروب السلب وهو أخذ المعنى وصياغته بإيجاز^(١)، وقد مثل الأخير عليه بقول بشار بن برد :

"من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج"
والذي أخذ معناه تلميذ هذا - سلم الخاسر^(٢) - وضعه قوله :

"من راقب الناس مات غصاً وفاز باللذة الجسور"
وعلى ابن الأثير على ذلك بقوله ان الفرق بين البيتين لفظتان فقط^(٣) .

ولكن الصفدي لا يرضى بهذا الفرق ويرى فيه عدم إنصاف لسلم الخاسر لأن "اللفظة تصدق على الحرفين، مثل : من وعن وما . . . وغير ذلك، بل على

١- المثل السائر ٣: ٢٥٧ .
٢- هو سالم بن عمرو بن حماد، شاعر ماجن سمي الخاسر لأنه باع مصحفاً واشترى بثمنه ظنبوراً، مدح المهدي والهادي والرشيد والخلفاء العباسيين، وكذلك وزراءهم البرامكة توفي ببغداد سنة ١٨٦ . (أنظر ترجمته في الأغاني ١٩: ٢١٤، وتاريخ بغداد ٩: ١٣٦، ومعجم الأدباء ١١: ٢٣٦، والوفيات ٢: ٣٥٠) .

٣- المثل السائر ٣: ٢٥٨ .

الحرف الواحد كباء الجر ولامه ، والأحسن في هذا أن يقال بينهما تسعة أحرف .
فلأن الأول أربعة وأربعون حرفاً ، والثاني خمسة وثلاثون حرفاً^(١) ويشير إلى الفرق
في الحروف أيضاً بين بيتين لأبي العتاهية وأبي تمام . ثم يتبع ذلك بأمثلة عديدة
على أخذ المعنى واختصاره ، بعضها من نظم سلم الخاسر ، والبعض الآخر لشعراء
مختلفين^(٢) .

وهكذا يأتي اعتراض الصفدي متسماً بالشكلية والإعتماد على جزئيات صغيرة لا
كبير أهمية لها في التدليل على مقدرة الشاعر في أخذ المعنى واختصار لفظه .
غير أن ما أورده من أمثلة على هذا الضرب من السرقة يوحى بموافقته على مجمل
آراء ابن الأثير في الموضوع ، وبذلك ينسجم مع موقفه الأول كما بيناه .

وما تقدم يمكننا القول أن نظرية ابن الأثير في السرقات الشعرية لم يتعرض
لها بنقصر أو نقاش كل من ابن أبي الحديد والصفدي ، ورغم أن الصفدي ناقش
تعليقين أوردهما ابن الأثير على بعض أمثله ، إلا أن مناقشته تلك جاءت في أمور
هامشية لا تمس النظرية في أساسها .

وقد ذهب ابن الأثير إلى أنه لا ينبغي عيب الآخذين عن السابقين لأنه لا
يوجد من لم يتأثر بأحد ، وإنما المدار كله على كيفية الآخذ وإخفائه أو تحسينه .

١- نصره الثائر ، ٣٨٠ .
٢- المصدر نفسه ، ٣٨١-٣٨٢ .

ورفض الأخذ بقول القائل إن باب المعاني أغلق على السابقين من الشعراء
دون المحدثين . وأشار الى جملة من المعاني المشتركة التي لا يختص بها
شاعر دون آخر مثل: إن الطيف يجود بما يبخل به صاحبه وإن الواشي لو
علم بجزار الطيف لساءه ، وكقولهم في المديح : إن عطاءه كالبحر والسحابه
وأنه لا ينزع عطاءه اليوم عطاء الغد ، وكقولهم في المراثي : ان هذا الزم
أول حادثه وان الذاهب لم يكن واحدا وإنما كان قبيلة ، وما شابه ذلك (١) .
فهذه المعاني لا يعتبر تواردها الشعراء عليها سرقة والسرقة لا تصح إلا في
المعاني المخصوصة المبتدعة . ونص أخيرا على إمكانية المفاضلة بين المعاني
سواء اتفقت أم اختلفت .

القسم الثالث
مناقشات مفردة

مناقشات مفردة

١ - ابن الاثير الناقد الاديب في ميزان نفسه وميزان الآخرين

لعل من اظهر ما يميز ابن الاثير عن غيره من النقاد توفره على ابراز دور الناقد القدير في "تعليم البيان" من خلال تطبيق آرائه النقدية على نماذج من نثره اولا ثم من نثر الآخرين او شعرهم . الا انه في احيان كثيرة لم يكن ليتوقف عند حد ايراد المثل فحسب وانما يمزجه بما يحسن له من آراء واقوال في نفسه وترسله او في غيره من النقاد . فقد يقول ملحا الى ما يعتقده في نفسه من تبحر في علم الفصاحة والبلاغة " وهذه نكت تخفي على من ليس له قدم راسخة في علم الفصاحة والبلاغة" (١) او يقول " فان هذه الاسرار البلاغية لا يتنبه لها الا العارفون بها" (٢) وليس هذا فقط بل انه فصيح طبعاً كما يوحي بذلك قوله في تعقيب له على موضع نبه عليه في التكرير - " وهذا لا يتنبه لاستعماله الا الفصحاء اما طبعاً واما علماً" (٣)

غير انه اذا عمد الى التلميح في بعض اقواله عن نفسه فاناه في حديثه عن ترسله ومعانيه لا يحرف مواراة او مداراة . وما اورد في هذا الشأن قوله : " وهذا معنى انفردت

١ - المثل السابق ٢ : ٢٤٣

٢ - المصدر نفسه ٢ : ٣٦٢

٣ - المصدر نفسه ٣ : ١٨

بابتداعه ولم يأت به احد ممن تقدمني^(١) وقوله * وهذا معنى ابتدعته ابتداعا ولم اسمعه
لاحد من قبلي^(٢) وكذلك * وهذا فصل في هذا المعنى قلما يوتى بمثله^(٣) وقوله
في فصل من انشائه يبدو انه حظى باعجاب القراء * وهذا الفصل بجملته مما توأفقه
الناس واغروا بحفظه^(٤) هذا الى جانب تصريحه بان معانيه المبتدعة والمختوعة
تفوق عددا معاني ابي تمام الذي كان * اكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعاني وقد
عدت معانيه فوجدت ما يزيد على عشرين معنى^(٥).

واما اقواله في غيره فانها في معظمها تتناول بالغض او التهمك او السخرية بعض
علماء العربية واثمتها مثل ابن جنى * والبي علي الفارسي * وابي العلاء المعري * وابي حامد
الغزالي * وابن سينا فضلا عن عدد من الكتاب وعلما البلاغة من بينهم : القاضي الفاضل
وابو اسحاق الصابي والحريري * وابن زيادة البغدادي^(٦) * والزمخشري . فما جاء له
من ذلك قوله في ابن جنى * وما كنت اظن ان احدا من الناس يذهب وهمه وخاطره
حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره * واذا كان هذا القول قول امام من ائمة اللغة

-
- ١ - المثل السائر ٢ : ٣٥
 - ٢ - المصدر نفسه ٢ : ٣٤
 - ٣ - المصدر نفسه ١ : ١٤٨
 - ٤ - المصدر نفسه ٢ : ٩١
 - ٥ - المصدر نفسه ٢ : ٢٢٠ وانظر اقواله الاخرى في الفرض فذاته في الصفحات ١ : ١٣٥ ،
١٤٧ ، ١٦٠ ، ١٨٢ ، ٢٠٥ ، ٢٧٠ ، ٣٠٣ ، ١١٥ ، وغيرها .
 - ٦ - لم اعثر على ترجمه له ، ولكن يبدو انه كان كاتباً في ديوان الخلافة ببغداد وانما كان
معاصراً للقاضي الفاضل (انظر نصرة الثائر ، ٧٦)

العربية تشد اليه الرجال ، فما يقال في غيره ؟ ^(١) وذلك تعقيبا على شرح ابن جني
لبيت المتنبي :

تبهل خدى كلما ابتسمت من مظره بركة ثناياها

فقد شرحه على هذا الوجه " انها كانت تبزق في وجهه "

وكذلك وصفه لكتاب عصره بانهم من متخلفي مهنة الكتابة وانهم " يجعلون همهم
مقصورا على الالفاظ التي لا حاصل وراءها ، ولا كبير معنى تحتها ، واذا اتى احدهم
بلفظ مسجوع على اى وجه كان من الغثاثة والبرد ، يعتقد انه قد اتى بامر عظيم ، ولا يشك
في انه صار كاتباً مفلحاً فقاتل الله القلم الذى يمشي في ايدى الجهال الاغمار ،
ولا يعلم انه كجواد يمشي تحت حمار . " ^(٢)

فهذه الاقوال وامثالها اثارت عليه كلا من ابن ابي الحديد والصفدى ، وحفظتهما
للرد عليه فوقف اولهما عند قول ابن الاثير : " وهداني الله الابتداع اشياء لم تكن من قبلي
مبتدعة ، ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون اقوالها تابعة وانما متبعة " ^(٣) واما الحقه
به في الموضوع نفسه من قول في تعريف لكتابة " المثل السائر " ولا ادعى فيما ألفت من ذلك فضيلة

١ - المثل السائر ٢ : ١٠٨ ويقول فيه في الاستدراك : ١٧ " وذلك غريب غريب ،
وما كنت اتوهم ان احدا من بني آدم عنده من اعوجاج الذهن الى هذه الغاية . "

٢ - المثل السائر ٢ : ٦٣ وفي الجامع الكبير : ٦٦ يورد كلاما مشابها الى قوله " بامر
عظيم " ويثمه كما يلي : " فاذا انكرت هذه الحال عليهم يقولون لنا اسوة بالعرب . . .
الا ترى الى جهل هؤلاء القوم ، فانهم لم يكفهم جهلهم فيما ارتكبوه من ذلك ، حتى
انهم ادعوا ان العرب مثلهم ، فصارت جهالتهم جهالتين . "

٣ - المثل السائر ١ : ٢٧

الاحسان ولا السلامة من سبق اللسان* فنقد اولاً بتظاهر ابن الاثير بالتواضع رغم
مباهاته بهداية الله لا بتداع ما لم يبتدع من قبله . ثم تسأل بتعجب متمكم * فمن
يزعم ان الله هداه في هذا الفن الى ابتداع اشياء لم يسبق اليها ووزقه فيها بلوغ
درجة الاجتهاد التي يتبعها الناس ولا تكون تابعة لاحد منهم ، كيف يقول لا ادعي
فيما الفتحة فضيلة الا وبلغتها* (١)

وبهذه الاشارة الى ما ظهر من تناقض في اقوال ابن الاثير ينسى ابن ابي
الحديد رده ، ويبدو انه وجده كانيا للتعبير عن رأيه في مجمل ما اورده زميله في مدح
نفسه وفيه الكتابي ، ان نكاد لا نعثر له على ردود اخرى في الغرض ذاته . وهو في
ذلك يخالف الصفدي الذي لم يحسن بالرد المباشر على تلك الاقوال وعلى ما ذهب اليه
ابن الاثير من احصاء لمعانيه المبتدعة ، وانما راح يلاحق تلك المعاني بالنقاش والتحليل ،
وقالها بما يؤيد وجهة نظره من امثلة وشواهد ، ولعل غرضه من كل ذلك اظهار الحقيقة
فيما ذهب اليه ابن الاثير ، وربما اتضح لنا منهاجه في هذا المقام من خلال مناقشته
لنماذج ثلاثة من انشاء زميله .

يعرض ابن الاثير فصلاً له في ذم الشيب يقول في بعضه : * والشيب اعدام للايسار
وظلام للانوار ، وهو الموت الاول الذي يصلي ناراً من الهم اشد وقوداً من النار عولثن قال
قوم انه جلالة فانهم دقوا به وما جلوا ، وافتوا في وصفه بخير علم فضلوا واضلوا ، وما اراه
الا محراثاً للعمر ، ولم تدخل آلة الحرث دار قوم الا ذلوا . ومن عجيب شأنه الجهول الذي

الذى يشفق من بعده ، والخلق الذى يكره نزع برده . (١)

وينتهي من الفصل المذكور الى التشبيه على المعنى المخترع في عبارة " وما اراه

الا محراثا للعمير "

فيقف الصفدى عند هذا التشبيه ويعلق قائلا : " انه لهُخذ بعد فراغه من هذا الفصل في الدندنة على العادة ، وان المعنى الذى ابتدعه هو تشبيه الشيب بألة الحرث ، وقد شبه الناس الشيب باشياء منها اشتعال النار ، وقد نطق القرآن العظيم به في قوله تعالى " واشتعل الرأس شيئا " (٢) ثم بيدي رأيه في العبارة المذكورة فيرى ان التشبيه فيها غير مناسب لعدم وجود وجه شبه بين الشيب والمحراث ، وانه لو شبه الهمم بالحرث نفسه لكان ذلك جائزا .

ويلتفت الى معاني الفصل موضع النقاش ، فيبين ان معظمها مأخوذ من اقوال

بعض الشعراء ، فعبارة " والشيب اعدام للايسار " اخذت من البيت :

وقد اراني الشباب الروح في بدني وقد اراني المشيب الروح في بدله (٣)

كما اخذ معنى " ظلام للانوار " من البيت :

ابعدت بياضا لا بياض له لانت اسود في عيني من الظلم

ومن البيت ايضا :

١ - المثل السائر ٢ : ٢٣

٢ - نصره الشاعر : ٢٣٣

٣ - المصدر نفسه : ٢٢٦

له منظرني العين ابيض ناصح ولكنه في القلب اسود اسفع (١)
واما قوله " وهو الموت الاول " فمأخوذ من قول بعضهم : " الشيب احدى الميتتين " (٢)

كما اخذ قوله " ولكن قال قوم انه جلالة " من قول بعضهم :

وقالوا شباب المرء لهو وفرة ومن خلفه شيب الوقار ولا ريب

واى وقار لامرئ عرى الصبا وقد امه شيب ومن خلفه شيب (٣)

وكذلك اخذ " وهو المملول الذى يشفق من بعده " من :

الشيب كره وكره ان يفارقتي اعجب بشي على البغضا مودود

يمضي الشباب فيأتي بعده بدل والشيب يذهب مفقودا بمفقود (٣)

وعلى ذلك فإن معظم معاني النموذج هذا غير مبتدعة ، ولكن انصافا للحق نوضح هنا

ان ابن الاثير لم ينص على ان جميع معاني نموجه هذا مبتكرة وانما اختص بالابداع معنى
عبارة (ما اراه الا محراتا للعر) فقط . فيبدو ان الصفدى في غمرة تحمسه للبرهنة على
ما ذهب اليه لم يتفطن الى ذلك الاختصاص وهو ما نلاحظه في مناقشته لنموذج آخر من اشعار
ابن الاثير يقول فيه في وصف صورة مليحة : " البس من الحسن انضر لباسه ، وخلق من طينة غير
طينة الناس ، وكما زاد حسنا فكذلك ازاد ظليبا وانفقت فيه الالهوا حتى صار الى كل
قلب حبيبا ، فلوصافح الورد لتعطرت اوراقه ، او مر على النيلوفر كليا لتفتحت

١ - نصره الثائر : ٢٢٦

٢ - المصدر نفسه

٣ - المصدر نفسه : ٢٢٧

٤ - النيلوفر ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة (انظر القاموس : ١٢٧ : ١٤٧)

اوراقه* (١)

ثم ينبه على المعنى الخريب في عبارة " او مر على النيلوفر ليلًا لتفتحت اوراقه " فلا
يكتفي الصدى بالوقوف عند المعنى المنبه عليه ، وانكار الغرابة والابداع فيه ، بل
يشمل بافكاره معاني النموذج كلها فيقول : " اي غريب في هذه المعاني ، و اي ابداع
حتى يثبته ويتعجب له ويروقه " (٢) ويتناول عبارة " فلوصاح الورد لتعطرت اوراقه "
فيوضح ان المعنى فيها لا يعبر عن مدح للموصوف لان الورد عطري في كل الاحوال ، ولا
يكتسب عطره من اي انسان ، ويرى ان ما يعبر عن المدح هو مثل قوله في وصف الانسان
بانه " يكسب الطيب ما ليس له طيب ، ويفيد الحسن ما لم يكن معروفًا بحسن " (٣) ويدل
على صحة رأيه بالاشارة الى تنبه ابن الاثير لهذا الامر في السجعة التالية " او مر على
النيلوفر ليلًا لتفتحت اوراقه " ان قال ليلًا ولم يقل نهارًا لان النيلوفر لا يكون في النهار
الا مفتوح الاوراق ؛

ثم يورد الأشعار التي يرى ان معاني النموذج المذكور قد اخذت منها ؛ فمن

البيت

ريب ملك كأن الله صوره مسكا وقدر انشاء الوري طينا (٤)

اخذ معنى السجعات الثلاث الاولى . كما اخذ معنى السجعة الرابعة من

انفرت في الزجاج من كل قلب فهي محبوبة الى كل نفس (٥)

١ - المثل السائر ٢ : ٢٢٢

٢ - نصره الثائر ٢٢٦

٣ - المصدر نفسه ٢٢٧

٤ - المصدر نفسه

٥ - المصدر نفسه

ومن البيت ايضا :

عصرت من دم القلوب فما تبصر الا تعلقت بالقلوب (١)

قد يفهم من طريقة مناقشة الصدى للنموذجيين السابقين انه في جميع مناقشاتنا
- لهذا النوع من اقوال ابن الاثير - لا يعني بالوقوف عند المعنى المنبه على غرابته فقط
وانما يتجاوزها الى ما لم ينبه عليه ، والواقع انه احيانا يلتزم بتحقيب زميله ولا يخرج في
رده عما جاء في هذا التحقيب ، ومن ذلك مناقشته لفصل من رسالة لابن الاثير في دم
الشيب ايضا يقول في بعضه :

* والعيش كل العيش في سن الحدائة ، وما يأتي بعدها فلا يدعى الا بسن الغثائة وليس يعد
الاربعين من مصيف اللذة ولا مريح ، وهي نهاية القوة الصالحة من الطبائع الاربع فاذا تجاوزها المرء
اشقت ثمار عمره على حرصها وصارت زيادته كزيادة التصغير التي هي زيادة تدل على نقصها ،
ويصح بعد ذلك ابا بعد ان كان يدعى ابنا .*

فجريا على عادته ينبه ابن الاثير على معانية الواردة في الفصل المتقدم قائلا :
* في هذا الفصل معاني كثيرة لا توجد في كلام آخر . (٢) ولكن الصدى لا يستسيغ هذا
التنبيه ، فيبادر الى تحدى زميله بقوله : * قد ادعى انه ابتكر ما في هذا الفصل من المعاني ،
وانا اذكر ابياتا تدل على اخذ كلامه منها . (٣)

١ - نصره الناشر : ٢٢٧

٢ - المثل السائر : ١٣٩

٣ - نصره الناشر : ١٠٤

ثم يورد ابیاتا عديدة تتضمن معاني الفصل المذكور منها :

آلة العيش صحة وشباب	فاذا وليا عن المرء ولي (١)
كأن الفتى يرتقى من العيش سلما	الى ان يجوز الاربعين وينحط (١)
وكان ابنا عدوكا كراه	له يأتي حروف انيسيان (٢)
متى لحظت بياض الشيب عيني	فقد رأيت انتقاصي في ازدياد (٢)
واذا دعوتك عنهم فأنه	نسب يزيدك عند من خبالا (٣)

ويتقدم الصفدي لأدلته في ان معاني ابن الاثير في الفصل المتقدم كما في
الفصلين السابقين ليست بمبتكرة وانما اخذت من "كلام آخر" يصبح احصاء المذكور
لمعانيه المبتدعة موضع شك وتساؤل ، وينسحب ذلك على أقواله الأخرى في نفسه وفي
كتاباتة ، بحيث يترامى للمرء ان لدى هذا الناقد من المبالغة او الزيادة ما يتنافى مع
الدقة والموضوعية الواجب توفرهما في الناقد القدير . وفيما يبدو كان هذا هو هدف الصفدي
من مناقشاته وادلته ، على ان لا يلتزم بمنهاجه هذا في تصديه للرد على معارضة ابن الاثير
لبعض الكتاب . ومن ذلك رده على كتاب ابن الاثير في معارضته القاضي الفاضل في فتح
القدس . فقد افتتح ابن الاثير كتابه بقوله :

" خلد الله سلطان الديوان العزيز النبوي ، وجعل ايام دولته اترابا ، ومناقب مجدها
هضابا ، وزادها على مرور الايام شبابا ، واوسعها توشية وازهاها ، ومنحها نسي
الدنيا الآخرة عطا ، وفاقا لاعطاء حسابا ، ومثل جدودها في عيون الأعداء شيئا عجابا ،

١ - نصره الثائر ١٠٤

٢ - المصدر نفسه ١٠٥

٣ - المصدر نفسه ١٠٦

واراهم منها وراهم في اليقظة ارهابا وارهابا ، وفي المنام ابلا صحابا تقود خيلا عربا^(١) .
واستمر في اثبات الكتاب الى نهايته .

ولكن الصفدى لم ينتق للمناقشة من الكتاب المذكور سوى الافتتاحية المتقدمة وبدأ

نقاشه بالتنويه بأهوية عاملي الزمان والمكان في انجاز اى عمل ، وتأثيرهما على مستوى
الجودة فيه ، فاشار الى ان ابن الاثير عندما انشأ هذا الكتاب " قعد في بيته وتأنى
ونقى ونقى " ^(٢) ، واما القاضي الفاضل فقد اصدر كتابه " وهو ابن يومه بل ابن ساعته " ^(٣)
وعلى ذلك ان كان ثمة فضل في الكتاب الاول ، فان ذلك يرجع الى العاملين المذكورين .

ثم تناول بالنقد والتحليل بعض الفاظ الافتتاحية تلك ، فاشار الى ان لفظة
اترابا مما يتحاشى استعماله في الدعا^٤ للدول لانها تحمل معنى المشابهة في الخير
والشره فكان ينبغي له ان يقول " وجعل ايام دولته في النصر اترابا " واما تشبيه المناقب
بالهضاب ، فليس بمستحسن ، لان الهضاب هي صغار الجبال او كبارها او الجبال
المنبسطة على الارض فاي مبالغة في ان تكون المناقب في ارتفاعها كالهضاب ؟ ^(٣)

واكتفي بالنقد دون التحليل لعبارة " ومثل جدودها في عيون الاعداء شيئا عجابا " ^(٤)
فوصفها بانها " كلام فارغ كالجسد الذي لا روح فيه " ^(٤) ثم ذهب الى ان المعنى في

-
- ١ - المثل السائر ٢ : ٣٧٥-٣٨٥ ، والكتاب مثبت في رسائل ابن الاثير ١٤٦-١٥٦ ايضا .
 - ٢ - نصره التائر : ٣٠٤
 - ٣ - انظر في هذا القول وما تقدمه نصره التائر : ٣٠٤
 - ٤ - نصره التائر : ٣٠٥

السجعتين الاخيرتين من القطعة المذكورة مأخوذ من البيتين :

وهلى عدوك يابن عم محمد ركوان: ضوء الصباح والإظلام
فاذا تنبه رعته واذا غفيا سلّت عليه سيوفك الأحلام (١)

وبذلك راج الصغدي في رده هذا بين الدفاع من القاضي الفاضل، وتبرير موقفه

من ناحية ، ومواخذة ابن الأثير ونقد اقواله من ناحية اخرى .

وقريب من ذلك ما اوردته في رده على معارضة ابن الاثير لابن زيادة البغدادي .

فقد وجد ابن الاثير كتابا كتبه ابن زيادة الى صلاح الدين الايوبي ضمنه امورا انكرت عليه في ديوان الخلافة منها تلقبه بالملك الناصره واستشهد في انكار اللقب بعبارة " ما يستلحه المولى فهو على عبده حرام " فتلقف ابن الاثير هذه العبارة واوسعها تجريحا ، فهي " كلام فيه غشاة " (٢) ولا يصلح للاحتجاج به . ثم انشأ كتابا في معارضة الكتاب المذكور وقال في بعضه : " قد علم ان للأنبياء والخلفاء خصائص يختصون بها على حكم الانفراد ، وليس لاحد من الناس ان يشاركهم فيها مشاركة الانداد ، وقد اجرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك في اشياء نص عليها بحكمه ، ومن جملتها انه نهى غيره ان يجمع بين كنيته وبين اسمه ، وهذا مسوغ لامير المؤمنين ان يختص بامر يكون به مشهورا وهلى غيره محظورا " (٣)

ويحد ان فرغ من اثبات الكتاب عقب بالتنبيه على استشهاده بالحديث النبوي

وابدى تعجبه " كيف شد عن ابن زياد ان يأتي به " . (٤)

١ - نصره السائر : ٣٥٥

٢ - المثل السائر : ٦٧

٣ - المصدر نفسه : ١ : ٦٨

٤ - المصدر نفسه : ١ : ٦٩

وقد اختار الصفدي هذا الحديث النبوي ليكون منطلق رده على ابن الاثير
ففرق اولا بين الاسم والكنية واللقب من الناحية اللغوية ، ثم بين المراد بالحديث * لا
تجمعوا بين اسمي وكنيتي * من الناحية الفقهية وهو الا يتكلم من اسمه محمد بابي القاسم .
وانتقل الى خواص الانبياء ، فاورد خواص النبي المعلومة شرعا ، وانتهى الى توضيح انه
ليس لاحد سوى النبي خاصة يمتاز بها من حيث الشرع . واذ فرغ من شرحه وتوضيحه تحول
الى ابن الاثير فقال * فانظر الى ابن الاثير رحمه الله ، لم يطابق بين الافكار والاستشهاد ،
ولو اجاب الطك الناصر عن ذلك وقال : ان الخادم ما جمع بين كنية امير المؤمنين وبين
اسمه ولا انفردت بواحدة منها ، فما وجه الافكار ~~هنا~~ لكان له ان يقول ذلك * (١) ولعله
هدف من قوله هذا الى التعريض بابن الاثير من حيث معرفته بدقائق اللغة او
الاجتهادات الفقهية .

ثم وقف عند عبارة (وما يستلحه المولى فهو على عبده حرام) فرأى انها تتناسب
جيدا مع سياق الكلام في فصل الافكار المذكور ، ولم يفقه ان يوضح ان تلك العبارة هي احد
ابيات شعر كتبه احد كتاب المأمون له مع فرس اهداه اليه ، وقرن قوله بالبرهان فاثبت تلك
الابيات . (٢)

وانتهى الى التأكيد انه بسبب الكتاب المذكور امتنع الاعيان من غير رعايا صلاح الدين

١ - نصره الثائر ، ٧٥

٢ - المصدر نفسه ، ٧٦

عن تلقيبه بالملك الناصر^(١) وفي ذلك دليل على بلاغة الكتاب لا على غثائه بعض عباراته كما جاء في وصف ابن الاثير له .

وهكذا نرى ان الصفي في رديه السابطين لم يلتزم بالموقف الدفاعي فحسب وانما تطرق منه الى نوع من الهجوم حين حاول الغض من آراء ابن الاثير ومن ثقافته العلمية ، ولعله سار في ذلك على هدى من موقف ابن ابي الحديد في رده على معارضة ابن الاثير للقاضي الفاضل ايضا ، في كتاب للاخير كتبه من صلاح الدين الايوبي الى دار الخلافة ببغداد يصف فيه فتح مصر واسقاط الدولة الفاطمية فيها .

وقد وجد ابن الاثير - كما يقول - خلا في الكتاب وهو عدم تشبيه زميله الكاتب فتح مصر بفتح مكة حيث ان كلا منهما لم تفتح الا بعد محاولات ثلاث ، فتصحيحا لهذا "الخلل" انشأ كتابا قال في بعضه :

"ومن جعلتها ما فعله الخادم في الدولة المصرية ، وقد قام بها منبر وسرير وقالت : منا امير ومنكم اميره فرد الدولة العباسية الى معادها ، واذكر المنابر ما نسيته بها من زهو اعوادها ولم يعد لها الى وطنها حتى تغربت لها الارواح عن اجفانها ، وسهرت لها اجفان السيوف سهر العيون عن اجفانها" (٢)

وتعقب بعد الفراغ من ايراد كتابه بالتنويه بتضمينه لعبارة (منا امير ومنكم امير)

١ - انظر نصرة الثائر : ٧٧

٢ - المثل السائر : ١ : ٦٥

التي قالها بعض الانصار للمهاجرين يوم مبايعة ابي بكر بالخلافة في سقيفة بني ساعدة ، ثم ابدى تعجبه من القاضي الفاضل " مع تقدمه في فن الكتابة كيف فاتته ان يأتي به في كتابه " . (١)

ورق ابن ابي الحديد عند العبارة التي نوه بها زميله ، فاعلن ان القاضي الفاضل كان موقفا حيث لم يوردها في كتابه لانها لا تنطبق على مقتضى الحال في فتح مصر ، فقد اراد الانصار بها تعاقب الخلافة بينهم وبين المهاجرين ، واما فاطميومصر فكانوا يدعون ان الخلافة ليست إلا لهم خاصة دون سواهم . (٢)

ثم نقد كتاب ابن الاثير نقدا عاما ، فوصفه بانه ليس من جيد قوله " وفيه ما لا يجوز وان جاز فهو على ضعف شديد وتكلف عظيم " (٣) ثم اخذ في تطبيق ما ذهب اليه على عبارتين من الكتاب المذكور . فاشار الى ان حرف الباء في عبارة " واذكر المنابر ما نسيت بهما من زهو اعوادها " متعلق بالمصدر زهو ، وعلى ذلك فهو من صلته ، فلا يجوز تقديمه على مصدره الا على تأويل بعيد وهو متعذر في هذا الموضع خاصة او مستهجن . (٤)

ورأى ان الجزء الثاني من عبارة " وسهرت لها اجفان السيوف سهر العيون عن اجفانها " كلام بارد ، وعلل رأيه هذا تعليلا منطقيا عبر عنه بقوله : " لان العيون لا تسهر عن الاجفان " . (٥) ثم ذهب الى ان ابن الاثير لم يأت له ايراد تركيب صحيح للعبارة مثل " وسهرت لها اجفان السيوف سهر اجفان العيون " فجاء بعبارته التي تحتاج في تصحيحها

١ - المثل السائر ١ : ٦٦

٢ - انظر الفلك الدائر ٥٤

٣ - المصدر نفسه : ٥٥

٤ - المصدر نفسه

٥ - المصدر نفسه

الى تعب شديد ، وليس تحت تلك العبارة * من المعنى الغريب ما يساوى ذلك التعب * . (١)

لعلنا لمنا ما تقدم مدى تشابه ابن ابي الحديد وزميله الصفدى في موقفهما العام من معارضا ابن الاثير للكتاب الاخرين ، وهو موقف يقم في جانب منه على ابراز ما رأوه من اخطاء في اقوال الاخير ، مما يؤدى الى زعجة موقفه النقدى في هذا المجال . غير اننا لا نلاحظ مثل هذا التشابه في ردودهما على انتقاض ابن الاثير لغيره ، وربما استطعنا تبين طريقة كل منهما في الرد من خلال عرض بعض نماذج لهما في هذا الغرض .

٢ - ابن الاثير والغزالي

فقد اعترض ابن الاثير على تقسيم الغزالي للحجاز الى اربعة عشر قسما ، ورأى انها ترجع الى ثلاثة اقسام هي : التوسع ، والتشبيه ، والاستعارة ، وذهب الى انه اذا لم يختص كل قسم بصفة لا يختص بها غيره كان التقسيم غير صحيح وبالآخرى * لغوا لا فائدة فيه * (٢)

ثم اخذ في مناقشة الاقسام المذكورة الواحد تلو الآخر ، واثنا مناقشته كان يورد من التحليل ما يراه مؤيدا لوجهة نظره ، ولكن تلافيا للاسهاب ستقتصر من الاقسام المذكورة على ثلاثة نرى انها تفي بالغرض المطلوب ، وهي الاقسام التالية : تسمية الشيء بما يؤول اليه ، وتسمية الشيء بفعله ، والزيادة في الكلام لغير فائدة .

١ - الفلك الدائر : ٥٥

٢ - المثل السائر ٢ : ٨٨

وقد وقف ابن الاثير عند اولها ومثله (اني اراني اعصر خمرا) فردّه الى القسم
الاول من تقسيمات الغزالي وهو ما جعل للشيء سبب المشاركة في خاصته ، واستدرك
فأكد انه اولي بهذا القسم ان يكون في باب الاستعارة لان الخمر من العنب فبينهما صفة
مشابهة. (١)

ورأى ان قسم تسمية الشيء بفعله كتسمية الخمر مسكرا - داخل ايضا في القسم
الاول للمشاركة بين الخمر والإسكار ، لان الإسكار صفة لازمة للخمر ولا يمكن ان يكون
خمر ولا إسكار. (٢) . وانكر ان يكون من المجاز قسم (الزيادة في الكلام لغير فائدة) كما
في قوله تعالى (فما رحمة من الله لنت لهم) وهل انكاره بقوله ان "المجاز هو دلالة اللفظ
على غير ما وضع له في اصل اللغة وهذا غير موجود في الآية ، وانما هي دالة على الوضع اللغوي
المنطوق به في اصل اللغة. (٣) وزاد ، انه حتى ولو سلم يكون هذا القسم من المجاز فان
"ما" في الآية المذكورة ليست بزائدة ولكنها وردت تفخيما لامر النعمة التي لان بها الرسول
(صلعم) ، ولو عريت الآية منها لما كان للمعنى تلك الفخامة او الجزالة ، ولم يفته التنويه بأن
هذا الامر لا يحرفه "الا اهل من علماء الفصاحة والبلاغة. (٤) وانتهى الى التهكم اولا على
الغزالي "واما الغزالي رحمه الله تعالى ، فانه معذور عندي في الا يحرف ذلك لان ليس
فنه. (٤) ثم الى الآخر من علمه واعتقاده فقال "ومن ذهب الى ان في القرآن لفظا زائدا

١ - المثل السائر ٢ : ٨٩٢

٢ - المصدر نفسه ٢ : ١٢

٣ - المثل السائر ٢ : ١٣

٤ - المصدر نفسه ٢ : ١٤

لا معنى له فاما ان يكون جاهلا بهذا القول واما ان يكون متسحا في دينه واعتقاده (١) وقريب من هذا النسق كان نقاشه لبقية الاقسام . (٢)

وقد رد عليه ابن ابي الحديد فوقف طويلا عند اعتراضاته على التسميات هاتفة
فوافق في بعضها (٣) وناقشه في البعض الآخر مظهرا خطأ فيما ذهب اليه ولعل في
نقاشه لاعتراضات ابن الاثير المتقدمة ما يكفي لتوضيح اسلوبه في الرد على بقية الاقسام ه
فهولا يجد ان الآية (اني اراني اصخر خمرًا) في (تسمية الشي* بما يوول اليه) داخلية
في القسم الاول لان الخمر لا يشارك العنب في خاصيته ه كما انها ليست من باب الاستعارة
فان "كون الشي* بمنصرون غيره او يستحيل اليه ه لا يقتضي ان يكون بين الامرين مشابهة
في امر خاص لاحدهما قد اشتهر به . (٤)

وينوه بان الاصوليين سمو هذا القسم (اطلاق اسم السبب على السبب) ولكنه
يرى ان هذه التسمية* لا تثبت في العلم الحكيمه لأن العلل اربعة : الفاعل ه والصورة ه
والمادة ه والغاية (٥) والقسم المذكور يقتصر على العلة الغائية فقط .

-
- ١ - المثل السائر ٢ : ٩٤
 - ٢ - انظر المثل السائر ٢ : ٨٨ ٩٠ ٩١ ٩٣ ٩٥ .
 - ٣ - مثل (تسمية الشي* باسم ما يشاركه في الخاصية) و (تسمية الشي* بما يدعو اليه)
و (تسمية الشي* بحكمة) انظر الفلك الدائر : ١٩٩ ٢٠٢ ٢١٣ .
 - ٤ - الفلك الدائر : ٢٠٠
 - ٥ - المصدر نفسه : ٢٠١

ويذهب الى ان ابن الاثير لم يعلم المراد من التفخيل (بتسمية الخمر مسكرا) على
(تسمية الشيء بفعله) فيوضح ذلك باشارته الى ان السكر هو الفاعل ، والى ما قاله
"القوم" من ان الخمر تسمى مسكرا قبل الاّ تشرب وتسكر صاحبها "فقد سموا الشيء بما
شأنه ان يفعله ، وبأثره قبل ان يفعله ويؤثره وهذا هو المجاز" (١) ويدخل في تحليل
منطقي يميز فيه بين الاسكار بالقوة ، والاسكار بالفعل ، وينتهي الى التأكيد بأن الثاني هو
مراد الاصوليين واعتباره جعلوا قول (الخمر مسكرة مجازا) ويختم نقاشه بقوله "لو كان
الاسكار صفة لازمة للخمر ، ولا توجد خمر الا وهي مسكرة على الوجه الذي قاله وادعاه لكان
اطلاق لفظة المسكر على الخمر حقيقة لا مجازا" (٢)

واما فيما يتعلق بقسم (الزيادة في الكلام لخير فائدة نه فانه يؤيد الخزالي في
ايراده ضمن تقسيماته ، ويؤكد أن الاخير ذهب في ذلك مذهب بعض شيوخ المتكلمين
في ان "الحقيقة ما انتظم لفظها معناها من غير زيادة ونقصان ، ولا نقل ، والمجاز ما لا
ينتظم لفظه معناه الا لزيادة ونقصان او نقل" (٣) وعلى ذلك فإن في الآية (فبما رحمة من
الله لنت لهم) مجاز ، اذ ينتظم اللفظ المعنى فيها مع زيادة ما .

ويرى أن تعشياً مع ما ذهب اليه ابن الاثير من اعطاء "ما" للآية المذكورة من الفخامة
والجزالة والفصاحة ما لا يتوفر لها في حالة فقدانها ، تكون الآية (واخفض لها جناح الذل)
حقيقة ، وينسحب ذلك على جميع المجازات . ويستطرد الى القول انه اذا انكر المذكور

١ - الفلك الدائر : ٢٠٧

٢ - المصدر نفسه : ٢٠٨

٣ - المصدر نفسه : ٢١١

اخراج " ما " من باب المجاز ، فان في ذلك تسليم بقول الغزالي ، وبالتالي لا يصح
لانتقاضه له اى معنى . (١)

ويختم رده بمدح تفسيمات الغزالي ، والتعرض بقدره ابن الاثير على فهمها
فيقول " وكل قسم من هذه الاقسام له خصوصية ينفرد بها ويمتاز عن غيره بها ولو ان هذا
الرجل يقف على التفسيرات العقلية الدقيقة في العلم الحكيم والكلامية التي يمتاز كل
قسم منها عن الآخر بما هو اذق من الشعر ، ولا يفهمه الا الراسخون في العلم لكانت هذه
التفسيرات في امتياز بعضها عن بعض اجلى من فلق الصبح ، لانه ليس فيها من الغموض
ما يوقع في مثل هذا الغلط . " (٢)

ما تقدم يمكن القول ان ابن ابي الحديد حاول في رده الايحاء بان تفسيرات
الغزالي تقوم على اساس من العلم والمعرفة ، وعلى الدراية بمذاهب المتكلمين واقوال ارباب
المنطق ، ومن ثم فلا تكون كما وصفها ابن الاثير " لغوا لا فائدة فيه " كما حاول اظهار ابن
الاثير بمظهر الجاهل " بالعلوم الحكيمية والعقلية " مما يشكك في سلامة آرائه واقواله عامة ،
وهي محاولة لا تبعد كثيرا في اطارها العام عن محاولاته في ردوده الاخرى ، في الدفاع
عن ابن جنى ، وابي علي الفارسي ، والزمخشري (٣) ، على انه في هذا كله يخالف اسلوب زميله
الصفدي في ردوده الدفاعية عن ثعلب والمعري ، والحريري ، ولعلنا نتبين وجه الاختلاف

١ - الفلك الدائر : ٢١٢

٢ - المصدر نفسه : ٢١٤

٣ - انظر الفلك الدائر : (١٩٢-١٩٨) (٢١٩-٢٢٤) (٢٢٤-٢٢٨) .

من خلال عرض تلك الردود .

٣ - ابن الاثير وعلب

يسخر ابن الاثير من ثعلب لذكره لفظة " الامة " في كتابه الفصح ويتساءل " وما لبت شعري ما الذي رآه من فصاحتها حتى اختارها " ويتبع السخرية بالتهكم فيقول " ولا لوم عليه ، لان صدور مثل ذلك الكتاب عنه كثير " (١) ثم يتحول من التخصيص الى التعميم فيؤكد ان اسرار البلاغة لا تؤخذ من علماء العربية ، وانما من المختصين بها ويلتفت ثانية الى ثعلب فيختصه بتعليق ينتقص فيه من قدرته العلمية حين يستنكر من تأليف كتاب معظم الفاظه فصيحة فيقول " هراذا شذ عن صاحب كتاب الفصح الفاظ معدودة ليست بفصيحة في جملة كثيرة ذكرها من الفصح فان هذا منه كثير " (٢)

ويتصدى الصفدى للرد عليه ، ولكنه يبدي وانه يوافقه فيما ذهب اليه من عدم جواز ادخال لفظة " الامة " في الفصح ، اذ نجده يورد ردا على جانب الضعف وعدم الافناع حين يبرر ان ثعلبا ما اورد تلك اللفظة في كتابه الا التزاما منه بالباب الذي عقده لذلك وهو باب المكسور اوله والمضموم باختلاف المعنى . (٣)

ثم يتطرق الى توضيح مفهوم الفصح عند ائمة اللغة ، فهو عندهم ما كثر استعماله

١ - المثل السائر ١ : ٣٨٩ ، اورد ثعلب كلمة " الامة " بمعنى النعمة في الفصح ١ : ٦٥ في باب المكسور اوله والمضموم باختلاف المعنى .

٢ - المثل السائر ١ : ٣٨٩

٣ - انظر نصرة الثائر : ١٦٣

وليس العذب الحسن من الالفاظ ، ويمثل على ذلك بلفظة " الزئبق " التي هي في الفصحى بالهمز دون التسهيل مع ان هذا اعذب ، وكذلك يمثل بلفظة " السمع " التي تحريكها افصح من تسكينها مع ان " الحس يشهد بان التسكين اخف واحسن " (١) فهذا هو رد الصفدى بجمله ، ويقرب منه رده في الدفاع عن المعرى ، وان كان فيه بعض الاختلاف كما سنرى .

٤ - ابن الاثير والمعرى

يتناول ابن الاثير المعرى بالذم حين ينعي عليه اعجابه الشديد بالمتنبي وشعره لفظا ومعنى فيقول " ويلغني عن ابي العلاء بن سليمان المعرى انه كان يتعصب لابي الطيب ، حتى انه كان يسميه " الشاعر " ويسمى غيره من الشعراء باسمه ، وكان يقول ليس في شعره لفظة يمكن ان يقوم عنها ما هو في معناها ، فيجيء حسنا مثلها . فياليت شعرى اما وقف على هذا البيت المشار اليه ، لكن الهوى كما يقال اعى ، وكان ابو العلاء اعى العين خلقة ، واعماها عصبية ، فاجتمع له العى من جهتين " . (٢)

فكيف يرد الصفدى على هذا الذم الجاح ؟ انه يورد ردا عائما لا يخطو على اى دفاع مفتح عن المعرى الشاعر الفيلسوف او الانسان المفكر على الاقل . فهو يكتفي بتبرير اعجاب المعرى بالمتنبي تبريرا يبدو معه وكأنه انسان عادى يستمد آراءه واحكامه من الجمهور لا من علمه ووقافته ، وذلك ما يوحي به قوله " ان المعرى معذور في تفضيل المتنبي على غيره ،

١ - انظر نصرة الشاعر ١٦٣

٢ - المثل السائر ١: ٤١١ والبيت المشار اليه هو : فلا يبيم الامر الذي هو حالل - ولا يحلل الامر الذي هو يبيم .

وليس هو ببدعة في ترجيحه على غيره من الشعراء فآكثر الناس على هذا المذهب^(١).

ثم يتحول من الدفاع عن المعرى الى تقرّظ المتنبي ، واطهار مزايا شعره التي لا نظير لها — فيما كبراه — سوى مزايا القاضي الفاضل في النثر ، على احتواء^(٢) منهما للقليل من الردى^(٣) . ثم يستشهد على جيد المتنبي ورفيقه بنماذج من شعره^(٤) وينتهي الى التأكيد على تفرد القاضي الفاضل بالترسل ، وتفرد المتنبي بالشعر^(٥) مع ما لهما من الانحطاط ولكن انحطاط المتنبي اوضح واشنع^(٦) ومع ذلك فان^(٧) العبرة بالاغلب والاكثر القليل محفوظه^(٨).

ذاك هو مجمل رد الصفدى على ذم ابن الاثير للمعرى ، ورغم ان الثاني تجاوز الموضوعية في ذمه ، الا ان الاول لم يأت في رده بما يوحي باهتمامه بهذه الحقيقة بل توجه بعنايته الى المتنبي يمدحه ويقرّظ شعره ، فبدأ وكأنه مؤازر لا مناهض لابن الاثير الذى يرى ان المتنبي وابا تمام والبهترى اعظم شعراء العربية على الاطلاق ويصفهم بانهم^(٩) "لات الشعر وهزاه ومناه"^(١٠).

١ — نصره الثائر : ١٧٠

٢ — انظر المصدر نفسه : ١٧١

٣ — المصدر نفسه : ١٧٦

٤ — المثل السائر ٣ : ٢٢٦ . وقال في الاستدراك : ٢٥ " ان ابا تمام والبهترى اشعر من الثلاثة المذكورين / جرير والفرزدق والاختل / وليس عندي اشعر منهم في جاهلية ولا اسلام "

٥ - ابن الاثير والحريري

غير ان الصفي في دفاعه عن الحريري يتهج نهجا مغايرا الى حد ما . فقد ابرز ابن الاثير حادثة عدم تمكن الحريري من كتابة رسالة في ديوان الخلافة ببغداد ، كما اورد شعر بعضهم فيه :

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عثونه من الموس
انطقه الله بالمشاق وقصد الجمه في بغداد بالخرس (١)

وتطرق من ذلك الى نقد الحريري في مواضع من مقاماته فقال " على ان الحريري قد كتب في اثنا مقاماته رقاعا في مواضع عدة ، فجاء بها منحطة عن كلامه في حكاية المقامات ، لا بل جاء بالغث البارد الذي لا نسبة له الى باقي كلامه فيها " (٢) ونقده ايضا في كتاباته الاخرى ورأى فيها تفاوتا بعيدا عن مقاماته . (٣)

ويقف الصفي عند حادثة الديوان ، فيبرر عدم تمكن الحريري من كتابة الرسالة تلك ، بان الله لم يفتح عليه في ذلك الوقت اذ اقي الكتابة " من باب الفتح على الانسان " (٤) ثم يتطرق الى توضيح اثر المكان والتقيد بموضوع مفروض دون سابق استعداد له على قدرة المرء الكتابية ، فيذكر ان الحريري في وقت عمل مقاماته " كان في بيته مخلى ونفسه ، يصوغ

-
- ١ - المثل السائر ١ : ٤١
 - ٢ - المصدر نفسه ١ : ٤٢
 - ٣ - انظر المصدر نفسه
 - ٤ - نصرة الناشر : ٥٦

ويكسر ويهدم ويبني ، فاذا نباهه مقام تحول الى غيره ، واذا تقاصر عليه معنى تركه وجذب ما هو اعلى قيادا منه ، وذلك امر غير جلوسه في الديوان واول قدومه ، وهو بين جماعة من ارباب الفن ، ويقترح عليه معنى لا محيد عنه ، ولا نسحة له في ضيقه ولا نجاة له من زله ، ولم يكن قد استعد له ، لا جرم ان انجم وتوقف وتنتف عشونته (١) ويلجج من طرف خفي الى ان ابن الاثير لا يفضل الحريري في مثل هذه الظروف فهو ايضا اثنا معارضاته للقاضي الفاضل ولغيره من الكتاب ، كان يلزم بيته يكتب ويحوي وينقح (٢) وكان الصفدي يتلميحه هذا يروي الى انكار حق ابن الاثير في نقد زميله الحريري .

ثم يستطرد الى الاشادة اولا بمقامات الحريري ويعددها * كتاب علم في بابيه (٣) وينسئ بالاشارة لبلاغة الحريري التي مكنته من مدح الشيء * ثم لومه ، او لومه ثم مدحه في نفس الموضوع من مقاماته ، وينوه ايضا بصاحته التي * تعلم من اخذه الامثال السائرة وضحاها الى سجة احسن منها (٤) وينسئ دفاعه بالاستشهاد بنماذج من سجعه المتضمن لتلك الامثال . (٤)

١ - نصره النائر : ٥٧

٢ - انظر المصدر نفسه .

٣ - نصره النائر : ٦١

٤ - بيدوان الصفدي في اصحابه الشديد بمقامات الحريري ، كان يذهب مذهب عصره .
فقد كانوا كما يقول ابن الطقطقي * فيها معتقدين وفي تحفظها راغبين * انظر الفخرى : ١٠
ولعل اعتقادهم فيها كان نتيجة اعتبارهم لها شاهدا فريدا على لغتهم وثقافتهم
وتراثهم . انظر :
Nicholson. A Literary History of the Arabs: 336

وبتراهي لنا من هذا الرد ان الصغدي لم يبذل من عنايته في الدفاع عن كسل
من المعري وتعلب ما بذله للحريزي ، رغم انه لم يتعرض فيه ايضاً لابن الاثير بنقصد
او مواخذة . ولعله رأى في الدفاع فقط ما يكفي لظهار تجنى ابن الاثير على العلماء .
غير انه في عرض وجهة نظره في ردوده تلك ظل بعيداً عن الجدل المنطقي او
الفلسفي ، كما انه لم يخرج في الاستشهاد على وجهة نظره عن نطاق الادب بقسميه ،
النثر والشعر . وهو وان خالف ابن ابي الحديد في ذلك ، الا انه كان متمشياً معه في
معالجة مشكلة ابن الاثير كناقده . وقد عمل كل منهما على ابراز ما ارتآه من مبالغة في
مدح المذكور لنفسه ولقنه الكتابي ، كما حاولا وضع اقواله وآرائه في الاخرين موضع الشك
والتساؤل من حيث سلامتها وصحتها ، وبذلك توصلا الى غايتيهما في البرهنة على ان هذا
الناقد قد يتجاوز الدقة والموضوعية فيما يحرض له من مسائل ونضايا سواء أكانت على علاقة
بالذات ام بالغير .

خاتمه

خاتمة

عرضت في مقدمة هذه الدراسة لطائفة من نقاد القرنين السابع والثامن للهجرة .
فوقفت عند معظمهم وقفة قصيرة في محاولة للتعرف بهم وآرائهم ومواقفهم النقدية .

وخصت بالدراسة النقاد الثلاثة : ابن الاثير ، وابن ابي الحديد ، والصفدي .
فتحدثت عن نشأة كل منهم وعن ثقافته وتحصيله العلمي ، وما أسهم به في مجالات الحياة
المختلفة ، سواء كانت سياسية او ادارية او فكرية ، مع الاشارة الى ما تركه من تراث في
الادب والنقد .

ثم وقفت عند بعض القضايا النقدية في * المثل السائر* فوجدت انها تقع في قسمين
رئيسيين : قسم يشمل قضايا عامة تتناول : ١ - علم البيان وعلاقته بالنحو والبلاغي
٢ - والاديب بين الطبع والثقافة ، و ٣ - والعلاقة بين الشعر والنثر .

وقسم آخر يبحث في قضايا خاصة تتناول ١ - اللفظ ، ٢ - والمعنى ، ٣ - والعلاقة
بين اللفظ والمعنى ، و ٤ - وتداول المعاني (السرقات الشعرية) .

وقد تحدث ابن الاثير - في القسم الاول - عن علم البيان وموضوعه ، معرّفنا بالفصاحة
والبلاغة لغة واصطلاحاً ، مع توضيح الفرق بينهما . وأكد استنباط ضرورتهما بالعقل ، خلافاً
لاقسام النحو التي يرى انها نقلية . ونددّ بجهود علماء البلاغة في بحوثهم في الفصاحة والبلاغة ،
كما ندّد بمفسري اشعار اللغويين ، وكذلك بادلة النحاة في تحليل اقسام النحو . ولم يتقبل
كل من ابن ابي الحديد والصفدي من مجمل تلك الآراء سوى قول ابن الاثير ان الفصاحة تختص

باللفظ والبلاغة بالصيغة او التركيب . وابدى الاثنان اعتراضاتهما على اقواله الاخرى مع ايراد الحجج والبراهين التي من شأنها اظهار نفاذ ما ذهب اليه .

وحين عرض رأيه فيما يجب توفره في الاديب من طبع وثقافة ، أكد على الطبع اولا ، ثم على الاهتمام لعقله بثقافة مستمدة من انواع ثمانية من المعرفة ، مع استبعاد الثقافة اليونانية لعدم ضرورتها للكاتب والشاعر ، ودلل على رأيه هذا بتفوقه وتلوق عدد من الكتاب والشعراء الاوائل كل في ميدانه ، على جهلهم بها . ولم يعترض ابن ابي الحديد او الصفدي على نظرية الطبع ، وانما جاء اعتراض ثانيهما على تأكيد ابن الاثير عدم اطلاع بعض الاديباء على الثقافة اليونانية ، في الوقت الذي رفض فيه ابن ابي الحديد نظرية ثقافة الاديب بمعظمها ، وخاصة استبعاد الثقافة اليونانية .

وفي بحثه للعلاقة بين الشعر والنثر ، توة ابن الاثير بافضلية النثر وورد في ذلك اسبابا ثلاثة تتلخص في ١ - اتصال اعجاز القرآن بالنثر ، ٢ - وصعوبة الكتابة نثرا - ٣ - وهو شأن الكاتب في الدولة دون الشاعر . ثم ذكر ما اورده ابو اسحاق الصابي من فروق بين الشعر والنثر ، فردّها وتقدم بفروقه الخاصة مع فرق محتمل بين الشعر العربي والفارسي ، وهو خلو الشعر العربي من قصائد ملحمية على فرار الشاهنامه الفارسية .

وقد ثار الصفدي حين تراهى له ان في الفرق الاخير طعنا على اللغة العربية ، فاتهم ابن الاثير بالشعوبية ، ودافع عن الشعر والعرق العربيين مستشهدا بما نظم في العربية من قصائد طويلة ، وتفضيل علماء العربية - ممن كانت اصولهم فارسية - للغة العربية على لغتهم الام . واكفى ابن ابي الحديد بالدفاع عن الصابي واقواله ، وازافة فروقا اخرى الى

فروق ابن الاثير .

واما من حيث القضايا النقدية الخاصة ، فقد تحدث ابن الاثير عن اللفظ أولا واكد ان حسن الالفاظ مستمد من خصائص ذاتية لا تتعلق بالاصاف او الشروط التي وضعها ابن سنان مثل تباعد مخارج الحروف ، وعدد الحروف ، والجريان على العرف العربي وعدم ابتذال اللفظ او توحشه وفراسته ، وهي شروط لم يأخذ ابن الاثير بمعظمها وانما بالشرط الاخير منها ، فأيد عدم استعمال الوحشى من الالفاظ في الكلام عامة وفي النثر خاصة . ووضع قاعدة غاية يسوغ بوجهها استعمال الشريب الحسن من اللفظ في النظم دون النثر . ثم اكد على وجوب مراعاة التلاوم والتناسق وعدم التناقض بين الالفاظ في السبك ، منددا ببيت شعر للحريرى في التناقض اللفظي ، وهو ما دعا الصفدى الى اتخاذ موقف دفاعي عن الحريرى ، كما اتخذ ابن ابي الحديد مثل هذا الموقف تجاه ابن سنان واقواله ، ودارت مناقشات الناقدين حول امثلة ابن الاثير فقط .

وحدث ابن الاثير قضية المعنى بحثا مستفيضا ، كشفت اقواله عن اهتمام بالغ بالمعنى ولا سيما المبتدع منه ، وعن ايثار للمفاتيح الذهنية المجردة دون اى احتفال بالصورة الشعرية . ثم طرح آراء ونظرات تتناول النحو من حيث عدم ضرورة اقسامه جميعا في توضيح المعنى ، وتؤكد وجوب توفر الوضوح في المعاني والتدرج والتناسب والترابط والتنوع ، وهذا الامر الاخير لم يجده ابن الاثير في اسجاع الصابي وكتاب آخرين . ولم تلق معظم هذه الآراء معارضة تذكر سواها من ابن ابي الحديد او الصفدى ، ولكن اولهما تصدى للدفاع عن الصابي ، وانفرد ثانيهما بالرفض الكلي لنظرية ابن الاثير في علاقة النحو بالمعنى ، وهنا ايضا جاءت مناقشات الناقدين لـ

الامثلة دون النظرية .

ولدى تناول ابن الاثير للعلاقة بين اللفظ والمعنى ، جعل منها نظيرا لعلاقة الخادم بالمخدوم اولا ثم تطرق الى بعض جوانب مؤثرة في هذه العلاقة مثل التآلف والتناسب والمساواة ، وتوكيد اللفظ للمعنى وتقويته ، وتغيير المعنى بتغيير ترتيب الالفاظ ، واثرا للتكلف اللفظي في المعنى ، ومثل على هذا التكلف برسالتى الحريرى في بعض مقاماته . وقد ناقش الصفدى - اثنا دفاعه عن الحريرى نظرية التكلف هذه ، وجعل التكلف نوعين : ثقيل مسجوج ، وخفيف لا يكاد اثر الكلفة يلح فيه ، وفيما عدا ذلك كان موقفه مقاربا الى حد ما لموقف ابن ابي الحديد وخاصة في مناقشتهما لبعض شواهد ابن الاثير وتحويلها من مسائل بلاغية الى مسائل نحوية .

وفي قضية تداول المعاني اخذ ابن الاثير باقوال من تقدمه من النقاد العرب ، فنوه بان الاخذ من المعاني المشتركة او المتداولة لا يعد عيبا او سرقة ، شريطة اخفاها الاخذ بحذق ومهارة ، مع اضافة شي من الطرافة او الابدكار الى المعنى المأخوذ . واكد ان السرقة لا تقع الا في معنى مخصوص انفرادا بابتداعه الشاعر . وبالمقابل رفض قول القائل ان الاوائل سبقوا الى المعاني ، كما رفض اقتصار المفاضلة على المعاني المتفقة او المتماثلة ، مشيرا الى امكانية وقوعها بين المعاني المختلفة . ودعا الى اجراء المفاضلة في القصيدة بكاملها لا في البيت الواحد . ولم يورد ابن ابي الحديد او الصفدى شيئا على هذه الآراء ، واكتفى الصفدى بمناقشة تعليقيين لابن الاثير على مثالين في نوعين من السرقة الشعرية .

واما في القسم الثالث والاخير من هذه الدراسة ، فقد اثبت شيئا (مما استخلصته من

"المثل السائر") من مناقشات فردية وهي تدور حول حديث ابن الاثير عن نفسه ومدحه
لفنه الكتابي ومهارته في معارضة اشهر الكتاب مثل ابي اسحاق الصابي ، والقاضي الفاضل ،
وابن زيادة البغدادي ، وتتناول بالتنديد طائفة من علماء العربية ، من بينهم الغزالي وثلعب
والمعري والحري . وتشابه موقف كل من ابن ابي الحديد والصدى من هذه المناقشات ،
حين راحا يحاولان ابراز اخطاء وتناقضات تراعت لهما في بعض اقوال ابن الاثير ، ووضع
هذه الاقوال موضع الشك والتساؤل للبرهنة على تجاوز زميلهما الناقد للموضوعية احيانا ، وكذلك
حين التزما بالدفاع عن ندد بهم ابن الاثير .

ومن هذا كله تتضح حقيقتان : ١ - مبادرة كل من ابن ابي الحديد والصدى الى اتخاذ
موقف دفاعي أتى وجدا من ابن الاثير تنديدا بالآخرين وفضحا من شأنهم . ٢ - وان معظم
ردود هذين الناقدين هي ردود جزئية تتناول الامثلة والشواهد ولا تمس القضايا في صميمها ،
الا في النادر .

كما يتضح تبان اساليب النقاد الثلاثة في الوقوف عند القضايا النقدية ومعالجتها بوعي
مناقشة الآراء المطروحة حولها . فلا ابن الاثير اسلوب الناقد الذواق الذي يبحث موضعه بحثا ادبيا
خالصا بعيدا عن النحو والفلسفة والذي يعتمد الذوق في معظم تعليقاته واحكامه .

ولا ابن ابي الحديد النحوي المعتزلي اسلوبه المتكلم الذي يعول على المنطق والجدل
العقلي في النقاش وفي التدليل على وجهة نظره .

واما الصدى فهو ذاك الاديب الفنان الذي يراخ بين الاسلوب المنطقي - في قلة من
مناقشاته ، والاتجاه البديهي - في معظمه ، والذي لا يخفي ميله للجناس والتأنق اللفظي
وزخرف الصنعة الكلامية .

ثبت الصادق

مصادر البحث

١- مؤلفات الفقهاء الثلاثة

- أ - ضياء الدين بن الاثير،
- ١ - الاستدراك، بتحقيق حفنى شرف، القاهرة، مطبعة الرسالة، ١٩٥٨.
 - ٢ - الجامع الكبير، تحقيق د. مصطفى جواد ود. جميل سعيد، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٦.
 - ٣ - رسائل ابن الاثير، تحقيق انيس المقدسي، بيروت، دار العلم للطبايع، ١٩٥٩.
 - ٤ - المثل السائر، تحقيق أحمد الحوفي ود. بدوى طبانه، القاهرة، مطبعة الرسالة، ١٩٥٨.
 - ٥ - الوشي المرتسم، القاهرة، مطبعة ثمرات الفنون، ١٢٩٨.
- ب - عز الدين بن ابي الحديد
- ٦ - شرح نهج البلاغة، مصر، مطبعة الهايي الحلبي، ١٩٢٩.
 - ٧ - الفلك الدائر على المثل السائر، تحقيق د. احمد الحوفي ود. بدوى طبانه، القاهرة، مطبعة الرسالة، ١٩٥٨.
- ج - صلاح الدين الصفدى
- ٨ - تمام المتنون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٦.

- ٩ - جنان الجناس ، قسطنطينية . مطبعة الجوائب ١٢٩٩
- ١٠ - الغيث المسجم في شرح لامية الحجم ، الاسكندرية ، المطبعة الوطنية ١٢٩٠
- ١١ - نصره الثائر على المثل السائر ، تحقيق محمد علي سلطاني ، دمشق مجمع اللغة العربية ١٩٧٢
- ١٢ - نكت العميان في نكت العميان ، القاهرة ، المكتبة التجارية ١٩١١ .
- ١٣ - الوافي بالوفيات (١-٧) تحقيق جماعة من الاساتذة . جمعية المستشرقين الالمانية ١٩٣١ - ١٩٧٢ .

٢ - مصادر اخرى

- ١٤ - اتابكة الموصل لعز الدين بن الاثير ، تحقيق عبد القادر طلحيات ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٣ .
- ١٥ - اختصار القدر المعلي لابن سعيد ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، القاهرة ، الهيئة العامة ، ١٩٥٩ .
- ١٦ - اسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق ه . ريتز ، استانبول ، مطبعة وزارة المعارف ، ١٩٥٤ .
- ١٧ - الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، القاهرة ، المطبعة الشرقية ، ١٩٠٧ .

- ١٨ - الاغانى لابي الفرج الاصبهاني ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٥٧ .
- ١٩ - انباء الغمر بانباء العمر لابن حجر العسقلاني ، تحقيق د . حسن حبش ، القاهرة
لجنة احياء التراث الاسلامي ، ١٩٧١ .
- ٢٠ - انباء الرواة علي انباء النحاة لجمال الدين القفطي ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ،
القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠ .
- ٢١ - بدائع البدائ لابن ظافر الازدي ، بهامش معاهد التنصيص ، القاهرة ، المطبعة
البيهية ، ١٣١٦ .
- ٢٢ - البداية والنهاية لابن كثير ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٥٨ .
- ٢٣ - البدر السافري انس المسافر للادفوى ، مخطوط رقم (٤٢٠١) استانبول .
- ٢٤ - البدر الطالع بحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٤٨ .
- ٢٥ - بخية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ،
القاهرة ، البابي الحلبي ، ١٩٦٥ .
- ٢٦ - بلوغ الارب في معرفة احوال العرب للالوسي . دار الكتاب العربي بمصر ط ٢٧ .
- ٢٧ - البيان والتبيين للنجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة وبيروت ، ١٩٧٨ .
- ٢٨ - تاريخ ابن خلدون ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٦٦ .
- ٢٩ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٣١ .
- ٣٠ - تاريخ الطبري ، لندن ، مطبعة بريل ، ١٩٦٤ ط / ٢

- ٣١ - تحرير التحرير لابن ابي الاصبغ ، تحقيق د . حفني شرف . القاهرة ، لجنة
احياء التراث الاسلامي ١٣٨٣ .
- ٣٢ - تكملة اكمال الاكمال لابن الصابوني ، تحقيق د . مصطفى جواد ، بغداد ، مطبعة
المجمع العلمي العراقي ١٩٥٧ .
- ٣٣ - الجامع المختصر لابن الساعي ، بعناية مصطفى جواد ، بغداد ، المطبعة السريانية
الكاثوليكية ١٩٣٤ .
- ٣٤ - الحوادث الجامعة لابن الفوطي ، بعناية مصطفى جواد ، بغداد ، المكتبة العربية
١٣٥١ .
- ٣٥ - خزنة الادب ولب لباب لسان العرب للبغدادي ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة
دار الكاتب العربي ١٩٦٩ .
- ٣٦ - دار الطراز لابن سناء الملك ، تحقيق جودة الركابي ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية
١٩٤٩ .
- ٣٧ - الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، القاهرة ، مطبعة
المدني ، ١٩٦٦ .
- ٣٨ - دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرحاني ، القاهرة ، مطبعة المنار ١٣٣١ ط / ٢
- ٣٩ - الذيل علي الروضتين لابي شامة بعناية عزت العطار . القاهرة ١٩٤٧ .
- ٤٠ - رياض الجنات للخوئاسري الاصبهاني ، تحقيق اسد الله اسطهيليان ، تهران ١٣٩٢ .
- ٤١ - الروضتين في اخبار الدولتين لابي شامة ، القاهرة ، مطبعة وادي النيل ١٢٨٨ .
- ٤٢ - سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، تحقيق علي عودة ، القاهرة ، مطبعة الرحمانية ١٩٣٢ .

- ٤٣ - السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ، بعناية محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ،
مطبعة دار الكتب ١٩٣٤ .
- ٤٤ - شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي ، القاهرة ، مطبعة القدسي ١٣٥١ .
- ٤٥ - شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، بعناية احمد امين ، وعبد السلام هارون ، القاهرة
لجنة التأليف ، ١٩٥١ .
- ٤٦ - الصناعتين لابي هلال العسكري ، تحقيق البجاوي وابو الفضل ابراهيم ، القاهرة
مطبعة صبيح ١٩٦٦ ط / ٢ .
- ٤٧ - الضوء اللامع للسخاوي ، القاهرة ، مكتبة القدسي ، ١٣٥٣ .
- ٤٨ - طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي ، القاهرة ، المطبعة الحسينية ١٣٢٤ .
- ٤٩ - العبرني خبر من ذهب للذهبي ، تحقيق د . صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٦٦ .
- ٥٠ - عقود الجمان في شعراء هذا الزمان لابن الشعار ، مخطوط رقم (٢٣٢٥) صورة مصورة .
- ٥١ - العمدة في صناعة الشعر لابن رشيق القيرواني ، تحقيق محمد مجيب الدين عبد الحميد .
مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٥ ط / ٢ .
- ٥٢ - عنوان المرتصات والمطربات لابن سعيد ، القاهرة ، جمعية المعارف ، ١٢٨٦ .
- ٥٣ - عيار الشعر لابن طباطبا ، تحقيق د . الحاجري ود . محمد زفلول سلام ، القاهرة
المكتبة التجارية ١٩٥٦ .
- ٥٤ - غرائب التنبهات على عجائب التشبيهات لابن ظافر الازدي ، تحقيق د . محمد زفلول سلام
والصاوي الجويني . دار المعارف بمصر (لا ت)

- ٥٥ - الفخرى في الآداب السلطانية لابن الطقطقي ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، ١٣٤٠ .
- ٥٦ - الفصح لشعلب ، تعليق محمد عبد المنعم خفاجي ، القاهرة ، المطبعة النموذجية ، ١٩٤٩ .
- ٥٧ - الفهرست لابن النديم ، بيروت ، مكتبة خياط ، ١٩٦٤ .
- ٥٨ - نوات الوفيات لابن شاکر الکتبی ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة مطبعة السعادة ، ١٩٥١ .
- ٥٩ - القاموس المحيط للفيروزا بادی ، القاهرة ، المطبعة الكستلية ، ١٢٨١ .
- ٦٠ - الكامل في التاريخ لعز الدين بن الاثير ، بيروت ، دار صادر - دار بيروت ، ١٩٦٦ .
- ٦١ - اللباب في تهذيب الانساب لعز الدين بن الاثير ، القاهرة ، مطبعة القدسي ، ١٣٥٦ .
- ٦٢ - لسان العرب لابن منظور ، بيروت ، دار صادر - دار بيروت ، ١٩٥٥ .
- ٦٣ - مجمع الآداب في معجم الالقاب لابن الخوطي ، تحقيق د . مصطفى جواد ، دمشق المطبعة الهاشمية ، ١٩٦٢ .
- ٦٤ - مرآة الجنان وهرة اليقظان لليافعي ، حيدرآباد الدکن ، مطبعة دار المعارف ، ١٣٣٩ .
- ٦٥ - مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ، حيدرآباد الدکن ، دائرة المعارف العثمانية (لا . ت) .
- ٦٦ - المطرب من اشعار أهل المغرب لابن دحية ، تحقيق الابيارى ود . حامد عبد المجيد ود . احمد بدوى ، القاهرة ، المطبعة الاميرية ، ١٩٥٤ .
- ٦٧ - مصادر نهج البلاغة واسانيدہ لعبد الزهراء الحسيني ، النجف ، مطبعة القضاء ، ١٩٦٦ .

- ٦٨ - معجم الادباء لياقوت و القاهرة و مطبوعات دار المأمون و الطبعة الاخيرة (لا . ت)
- ٦٩ - معجم البلدان لياقوت و بيروت و دار صادر ١٩٥٥ .
- ٧٠ - المغرب في حلي المغرب لابن سعيد و تحقيق د . شوقي ضيف و دار المعارف بمصر ١٩٥٣ .
- ٧١ - مفتاح السعادة لطاسق كبرى زاده و حيدرآباد الدكن و مطبعة دار المعارف ١٣٥٦ .
- ٧٢ - مفرج الكروب في اخبار بني ايوب لابن واصل و تحقيق د . حسنين ربيع و القاهرة مطبعة دار الكتب ١٩٧٢ .
- ٧٣ - مقامات الحريري و بحناية الزمخشري و بيروت و المطبعة الادبية ١٩٠٣ ط / ٣ .
- ٧٤ - منهاج البلغاء و سراج الادباء لحازم القرطاجني و تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجه و تونس و دار الكتب الشرقية ١٩٦٦ .
- ٧٥ - الموازنة بين الطائيين للامدى و تحقيق احمد صفر . دار المعارف بمصر ١٩٦١ .
- ٧٦ - النجم الزاهرة لابن تغرى بردى و القاهرة و دار الكتب المصرية ١٩٥٠ .
- ٧٧ - نزهة الالباء لابن الانبارى و تحقيق د . ابراهيم السامرائي و بغداد و مكتبة الاندلس ١٩٧٠ ط / ٢ .
- ٧٨ - نفع الطبيب للمقرئ و تحقيق د . احسان عباس . بيروت و دار صادر ١٩٦٨ .
- ٧٩ - نقد الشعر لقدامة بن جعفر و تحقيق س . ا . بونيباكر . لندن و مطبعة بريل ١٩٥٦ .
- ٨٠ - الوساطة بين المتنبى و خصومه و للقاضي عبد العزيز الجرحاني و تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم و البجاوى و القاهرة و البايع الحلبي ١٩٦٦ .

- ٨١ - وفيات الاعيان لابن خلكان ، تحقيق د . احسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة
٠ ١٩٦٩
- ٨٢ - يتيمة الدهر لابي منصور الثعالبي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة
مطبعة السعادة ، ١٣٧٥ .